حِكايات سوريّة (لها علاقة بالاستبداد)

كش ملك

دار نون

يروي الحكايات:

سمير سعيفان- غزالة شمسي- هشام الواوي- إياد جميل محفوظ - رامي سويد- ماهر حميد- شذى بركات- محمد السلوم- أحمد أنيس الحسون- مروان علي- إياد خضر – يوسف رزوق- عدنان عبد الرزاق- وافي بيرم- عبد القادر عبدللي- عبد الناصر شيخ محمد- مصطفى تاج الدين الموسى- (أبو مروان)- وائل زيدان- فاطمة ياسين- محمود نحلاوي- خطيب بدلة- الكاتب العالمي رفيق شامي- المخرجة السينمائية هالا محمد- المربي الفاضل الراحل فاخر عاقل- كبير المخرجين السوريين هيثم حقي- فرج بيرقدار- سامر قطان- غسان الجباعي- محمد جمال طحان- بكر صدقي

تحرير وتقديم: خطيب بدلة

حِكايات سوريّة لها علاقة بالاستبداد

حقوق النسخ والتأليف © ٢٠١٥ لدار نون للنشر - الإمارات، ومجلة كش ملك

جميع الحقوق محفوظة. لا يُسمح بنسخ أو استعمال أو إعادة إصدار أي جزء من هذا الكتاب سواء ورقياً أو إلكترونياً أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال، دون إذن خطي من الناشر. ويجوز استخدامه لأغراض تعليمية أو لإصدار كتب موجهّة إلى ضعيفي البصر أو فاقديه شريطة إعلام الدار. تستثنى أيضاً الاقتباسات القصيرة المستخدمة في عرض الكتاب.

Copyright © 2015 by **Noon Publishing House & Kesh Malek Magazine**

تحرير وتقديم: خطيب بدلة / عنوان الكتاب: حكايات سورية "لها علاقة بالإستبداد"

طُبع في المملكة الأردنية الهاشمية / الطبعة الأولى: 2015.

صورة الغلاف: كاريكاتير موفق قات / تصميم الغلاف والإخراج الفني: الناصري

ISBN: 978-91-87373-35-0

دار نون للنشر

دار نون للنشر

رأس الخيمة / دولة الإمارات العربية المتحدة / ص.ب ٤٠٠٤٤

عمان / المملكة الأردنية الهاشمية / ص.ب: ١٤٧٦ / تلفاكس:0096264625290

www.dar-noon.com / noon@dar-noon.com

تحرير وتقديم: خطيب بدلة

حِكايات سوريّة
(لها علاقة بالاستبداد)

دار نون للنشر
كش ملك

يعود ريع هذا الكتاب لدعم مجلة كش ملك الإلكترونية

كش ملك

مجلة إلكترونية سياسية - اجتماعية - نقادة - ساخرة - (تطمح لأن تكون هزلية)

www.kishmalek.com
https://www.facebook.com/123kishmalek
https://www.facebook.com/groups/461716593920581/?fref=nf

يروي الحكايات:

سمير سعيفان- غزالة شمسي- هشام الواوي- إياد جميل محفوظ - رامي سويد- ماهر حميد- شذى بركات- محمد السلوم- أحمد أنيس الحسون- مروان علي- إياد خضر – يوسف رزوق- عدنان عبد الرزاق- وافي بيرم- عبد القادر عبدللي- عبد الناصر شيخ محمد- مصطفى تاج الدين الموسى- (أبو مروان)- وائل زيدان- فاطمة ياسين- محمود نحلاوي- خطيب بدلة.

ضيوفنا الكبار:

الكاتب العالمي رفيق شامي- المخرجة السينمائية هالا محمد- المربي الفاضل الراحل فاخر عاقل- كبير المخرجين السوريين هيثم حقي.

ضيوفُنا من الأدباء نزلاءُ المعتقلات الأسدية:

فرج بيرقدار- سامر قطان- غسان الجباعي- محمد جمال طحان- بكر صدقي

شكر كبير

أتوجه بالشكر إلى الأصدقاء الذين تكرموا علي بقراءة مخطوط هذا الكتاب قبل دفعه إلى الطباعة. لم يكتفوا بالقراءة، بل قدموا إلي ملاحظات هامة رفعتْ من شأن الكتاب ومستواه.. وهم:

الكاتب العالمي: رفيق شامي

الروائية: سوسن جميل حسن

الروائي والكاتب المسرحي والسيناريست: غسان الجباعي

الشاعر: فرج بيرقدار

الفصل الأول- معابر للهواء المنعش

معبر أول:

محرر الكتاب: كان شهريار يُبَدِّدُ النساء.. هذا أسوأ أنواع الاستبداد وأخطرُها على الناس والبلاد.

معبر ثانٍ:

عبد الرحمن الكواكبي في «طبائع الاستبداد»:

المشكلة أن فناء دولة الاستبداد لا يصيبُ المستبدين وحدَهم، بل يشمل الدمارُ الأرضَ والناسَ والديار، لأن دولة الاستبداد في مراحلها الأخيرة تضرب ضربَ عشواء كثور هائج أو مثلَ فيل ثائر في مصنع فخار، وتُحطم نفسَها وأهلَها وبلدَها قبل أن تستسلم للزوال.

معبر ثالث:

حسين عماش في مداخلة له خلال ندوة بعنوان (خطة التحول الديمقراطي في سوريا) أقيمت في الدوحة١٧ و١٨ تشرين الثاني ٢٠١٣:

قال لي أحدُهم، في بداية الثورة: أنتم واهمون حينما تعتقدون أن النظام السوري سيسقط بسهولة. الحقيقة أن هذا النظام متغلغل في جسد الدولة السورية، ولن يسقط حتى تسقط الدولة السورية معه!

معبر رابع:

كان عمر بن عبد العزيز يعرف أن السارق الظالم المستبد لديه مقدرة

استثنائية على الإتيان بعشرات القرائن الكاذبة التي تسوغُ له اغتصابَ حقوق الناس، وإظهار نفسه بمظهر الضعيف المسكين المُعْتَدَى عليه.. لذلك، حينما بدأ بإجراء عملية واسعة لرد المظالم، أعلن أنه يكتفي من الضعفاء بالقليل من القرائن التي تثبت أن المستبدين الكبار قد اغتصبوا مالَه.

معبر خامس:

حكاية رحبانية، رويت بعد الحرب، بصوت فيروز، نتمنى نحن السوريين أن يكون لنا مثلها:

رجعتْ العصفورة تعشش بالقرميدْ، والسوسنة رجعت تزهِّر من جديدْ، إجتْ الشتوية تجمَّعوا العشاق، رجعتْ المدارس أطفال تلج وعيدْ، وطلع السماق ومد جناحو، بس اللي راحوا راحوا.

بالدفاتر عندي أسامي غيَّابْ، أصحابا تركوها صارتْ بلا صحابْ، يوسف الكندرجي صبحي بياع الكاز، وأمين البواب اللي انقتل عالباب، أساميهن عندي وهني راحوا، وكل اللي راحوا راحوا.

لاكن رح ترجع..

(بدهية: سترجع سوريا.. سترجع طبعاً)!

الفصل الثاني- نقاط قراءتُها مستحبة

١. يمكنُ اعتبارُ هذا الكتابَ ضرباً من ضروب التسلية، أو- كما اصْطَلَحَ أبو حيان التوحيدي- «الإمتاع والمؤانسة».. ويمكن اعتبارُه مدخلاً، أو مفتاحاً للمعرفة، انسجاماً مع قول بابلو نيرودا: نعرفُ فنقصُّ الحكايات، ونقصُّ الحكايات لكي نعرف..

ويمكنني أن أضيف هنا: إنها معرفة لذيذة.. لأن الحكاية تنطوي على الكثير من التشويق، وإرواء الفضول، ولا سيما حينما يكون الراوي «الحكواتي» موهوباً، متمكناً، مُعَلِّماً، ينضحُ بالفكاهة والظرف.

٢. إن لـ «يوسف إدريس»، الرائدِ الأول للقصة القصيرة العربية، قولاً يُلخصُ الموقف برمته، وهو أن مقدرة الأديب القاص على الإبداع القصصي، تتجلى في مقدرته على «الحكي»، أو على سرد الحكايات..

ثمة، في الكتاب، بعضُ القصص ذات الفنيات العالية التي تعتمد- في الوقت نفسه- على النهج الحكائي، فينطبق عليها توصيفُ يوسف إدريس بدقة..

٣. هذه الفكرة تقودنا، مباشرة، إلى الكاتب التشيكي الكبير ياروسلاف هاتشيك.. الذي كتب رواية «الجندي الطيب شْفيك»، على هيئة مسرودة حكائية طويلة جداً، أَلَّفَها استجابةً لدافع «الحكي»، أو لنقل: «الحكي اللذيذ»..

بطلُ الرواية «شفيك» حينما يُطْرَحُ عليه سؤال ما، سرعان ما يردُّ بحكاية،

أو بحكايتين، أو بسلسلة مترابطة من الحكايات التي لا تتوقف إلا حينما يصرخ به الآخر: أنْ تَوَقَّفْ!

إنها الرواية الأكثر شهرة وخلوداً في تاريخ الأدب التشيكي.. وقد أخبرني صديق سوري درس في تشيكوسلوفاكيا أن التشيك، كلما اجتمع بضعةُ أشخاص منهم في سهرة، يبدؤون بتذكر مقاطع من رواية هاشيك، وأحياناً يخترعُ بعضُهم حكاياتٍ منسوجةً على منوال حكايات «شفيك»، ويلقيها بطريقة تمثيلية، فما يزيدُهم ذلك إلا حبوراً وبهجة.

حينما سئل «شفيك»: لماذا أنتَ تَروي الحكايات على هذا النحو؟

قال: أنا لا أعرف طريقة أخرى لرواية الحكايات غير هذه الطريقة.

٤. إن جواب «شفيك» حول وجود طريقة واحدة لرواية الحكايات، في الحقيقة، يشير إلى أن لكل كاتب (أو راوٍ شفاهي) أسلوبَهُ الخاصَّ في رواية الحكايات.. وهذا ما ستلاحظونه جلياً أثناء قراءتكم لحكايات كتابنا المتنوعة، فأسلوب كل واحد منهم يختلف عن أسلوب الآخر ليس فقط من حيث طريقة البناء، بل ومن حيث النكهة أيضاً.

٥. الشيء المريح في حكاياتنا هو أننا كَتبناها بعدما تحررنا، إلى حد ما، من سطوة النظام الاستبدادي الذي كان قائماً في سورياً منذ أواسط الستينيات من القرن الماضي، ومن ثم فإننا لم نكن مضطرين للتمويه والتورية.. ومَنْ كان منا ما يزال يستشعر الخطر من جهة الاستبداد، على نفسه أو على عياله، قَبِلْنا منه أن يكتب حكاياته باسم مستعار، (كما هو الحال مع سامر قطان وغزالة شمسي وهشام الواوي ونيسار الحجي وأبي مروان).. قبلنا ذلك لئلا نفسد عليكم وعلى أنفسنا متعة قراءة الحكاية التي تنتمي إلى ما يسمى نقدياً بـ «الواقعية الفوتوغرافية» التي تسمي الأشياء بأسمائها، و(تُفَقِّط)

الوقائع والأحداث، وتَذْكُرُ تواريخَها الفعلية.. ولا ريب في أن الأسماء الحقيقية لهؤلاء الكتاب سيُعْلَنُ عنها في وقت لاحق..

٦. هذا، في الحقيقة، لا يقلل من شأن الحكاية الفنية التي تبدأ بعبارة «كان ياما كان»، لا بل قد تكون أفضلَ من الحكاية المباشرة.. وقد كتب إليَّ صديقي الكاتب العالمي «رفيق شامي» حول هذه المسألة ما يأتي:

يخطىء معظم كتابنا في فهم أهمية الأدب الشفاهي وأهمية «كان يا ما كان» ومعناها، فينظرون إليها على نحو سلبي نتيجة تمكن الغرب من إقناع مثقفينا بأن تراثنا سيء، وأن التقدم يعني أن نتخلى عنه، وأن نقلد الغرب برواياته الواقعية...

لقد حاضرتُ عند حصولي على مرتبة بروفسور جامعي تكريماً لجهدي أمام الطلاب والخبراء مدافعاً عن أسلوب الرواية الشرقية ليس برومانطيقية، بل بالعودة إليها وتجاوزها، والحفاظ على مكوناتها التي تصلح لعصرنا... «كان ياما كان» ليست تمويهاً ولا هروباً من المكان والزمان...إنها، على العكس، تحديد واضح لكون ما نرويه حقيقة (كانت من جملة ما كان على الأرض)، كانت، كحقيقة، واندثرت معالمُها مثل اندثار شعوب بكاملها دون أن يكون الاندثار مبرراً لرفض «نكران» وجودهم أصلاً... «كان يا ما كان» تعني، فيما تعني، الأمل- حسب مقولة الفيلسوف الماركسي اليهودي إرنست بلوخ- (انظر فيكيبيديا) تعني زمناً أفضل يجب أن نتوق للوصول إليه مجدداً، تعني مكاناً في «يوتوبيا» حيث يمكن للإنسان المحرر أن يقوم بالعجب... وتعني درساً في مقاومة المعتاد الذي يسيطر على حياتنا ويدفعها إلى البلادة...

٧. الأدب، وبالأخص «الأدب الحكائي»، من جهة أخرى، يؤرخ للحياة وللشعوب.. باختصار: إن ياروسلاف هاتشيك هو الذي (خَلَّدَ)

الإمبراطور فرانتس يوسيف، وليس العكس، وحكاياتُنا هي التي ستجعل الطغاة مشهورين، ولكنها شهرة «المجرمين اللصوص الخونة»..

٨. لئلا نوغل في عمق التاريخ كثيراً نقول إن الاستبدادَ الذي نرصدُه من خلال حكاياتنا هو ذاك الذي ترافقَ مع ظهور المد القومي في سوريا، وبالتحديد مع بداية الوحدة مع مصر (١٩٥٨)، حيث وَجَّهَ النظام الوحدوي ضربة قاصمة للحياة المدنية الدستورية البرلمانية التي سادت في أواسط الخمسينيات، وفتح الباب على مصراعيه لحكم العسكر والمخابرات، وأطلق العنان لـ «عبادة الفرد».. ومع بداية انقلاب الثامن من آذار مارس ١٩٦٣، أُعْلنت الأحكام العرفية التي بقيت سارية المفعول حتى الآن. (لا نعتد بالإلغاء الشكلاني لهذه الأحكام في مطلع ٢٠١٢).. وقد بلغ الاستبداد قممه وذراه التي لا تُطَاوَلُ في عصر انقلاب حافظ الأسد.

٩. لنعترف: بأن الاستبداد لا يقتصر على استبداد السلطة «أو: النظام»، بل يتجاوزه إلى الاستبداد الاجتماعي، ومن هنا فإن كتابنا يرصد- في الوقت نفسه- استبداد الجماعات الجهادية التي تزعم أنها تستبد بعباد الله استجابة لإرادة الله!

١٠. يعود الفضل في تأليف هذا الكتاب إلى «مجلة كش ملك» الإلكترونية الساخرة التي أنشأناها في أواسط شهر حزيران ٢٠١٣، وبالأخص إلى صفحة «مجموعة كش ملك المفتوحة» التي تحولت، بالتدريج، إلى منبر ديمقراطي حر يستطيع المشتركون فيه أن ينشروا ما يشاؤون من آراء ومقترحات و«حكايات»..

كنتُ، أنا محرر هذا الكتاب، ولكوني متورطاً برئاسة تحريرها، أراقب

«الحكايات» المنشورة، فإذا عثرتُ على واحدة قوية ولطيفة وفكهة سارعتُ إلى مراسلة كاتبها واستئذانه لنشرها في المجلة، ثم في الكتاب..

١١. لدي اعتقاد شبه جازم بأن الحكايات الموجودة ضمن هذا الكتاب سوف تنال إعجابكم.. وإذا لم تنجح في تقديم أية ثقافة أو معرفة أو تاريخ، فيكفيها أن تقدم لكم المتعة.. أنا شخصياً لا أرى ذلك شيئاً قليلاً!

«المنفى»- تركيا- الريحانية

الصيغة النهائية للكتاب..

تحققت يوم ٢٠١٤/٥/٨

الفصل الثالث- بدهيات ومعلومات حكائية

بدهيات حكائية- *(نقلاً عن: سمير سعيفان)*:

- كل سوري عمره دون النصف قرن لم يعرف سوى حزب البعث في السلطة!
- وكل سوري عمره دون الخامسة والأربعين سنة ولد تحت حكم حافظ الأسد!
- وكل سوري عمره دون أربعة عشر عاماً ولد تحت حكم بشار الأسد!

بدهية حكائية شائعة: مقولة ترددها «أنيسة مخلوف» دائماً: سورية لبيت الأسد من الوالد إلى الولد!.

بدهية حكائية: *(نقلاً عن: سمير سعيفان)*: الاستبداد المتوحش لا طائفة، ولا مذهباً ولا ديناً ولا قومية له، فصدام حسين السني كان أكثر عنفاً ودموية من الجميع، وتشابَهَ ردُّ فعل القذافي عام ٢٠١١ مع فعل بشار الأسد في السنة ذاتها.. وميلوزوفيتش الأرسوذوكسي تميز في يوغسلافيا بالوحشية ذاتها.

ثانياً- المعلومات الحكائية:

معلومة حكائية ١: رَفَعَت البورجوازية المدينية شعاراتها الترحيبية بقدوم حافظ الأسد في الأسواق التجارية في دمشق وحلب وحمص وحماه تقول: «طلبنا من الله المَدَدْ- فجاءنا حافظُ الأَسَدْ»! ووضعوا قاعدة للتعامل مع الأسد بشعار يقول: «منكَ العطاء.. ومنا الولاء»!

معلومة حكائية ٢: تم تدبير اغتيال «محمد عمران» في مدينة طرابلس اللبنانية عام ١٩٧١، ويُتَّهَمُ حافظ الأسد بهذا الاغتيال.

كان لـ محمد عمران نفوذ كبير على الضباط الذين ساندوا حافظ الأسد في انقلاب السادس عشر تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٧٠.

معلومات حكائية ٣: شارك «سليم حاطوم» في محاولة انقلاب عسكري (على جماعة صلاح جديد) عام ١٩٦٦، إذ ألقى القبض على أعضاء القيادة أثناء اجتماعهم في السويداء بعد خلافات معها.

ولكن حافظ الأسد الذي لم يذهب لهذا الاجتماع أرسل قوات خاصة تمكنت من إفشال محاولة حاطوم الانقلابية.

هرب سليم حاطوم، إثر فشل عمليته، إلى الأردن، وبقي هناك إلى ما بعد هزيمة حزيران ١٩٦٧ حيث تورط بالعودة إلى سوريا، متوهماً ان الأخطار الإسرائيلية ستدفع الجميع نحو نسيان خلافاتهم، فما كان من القيادة العسكرية (حافظ الأسد وصلاح جديد) إلا أن ألقت عليه القبض ونفذت حكم الإعدام فيه.

الفصل الرابع- بعثيات

تمهيد صغير:

الدكتور «فاخر عاقل» الذي رحل بتاريخ ٢٠١٠/١/٢٩ عن عمر قدره (٩١) عاماً هو من الشخصيات العلمية «التكنوقراط» الكبرى في سورية..

قبل رحيله بأسابيع قليلة زاره الدكتور «عمر الدقاق» والأديب القاص «إياد جميل محفوظ» في «دار السعادة للمسنين بحلب» حيث كان يمضي أيامه الأخيرة..

روى لهما حكايات لها علاقة بالاستبداد.. أرسلها إليَّ الأستاذ «إياد جميل محفوظ»، بعد أن أبدى موافقته- مشكوراً- على نشرها في هذا الكتاب..

تقديراً للكفاءات العلمية- *(رواها إياد جميل محفوظ نقلاً عن المربي الفاضل د. فاخر عاقل).*

د. فاخر عاقل: ذات مرة عَرَضَ عليّ مسؤولُ الأمن المختص بالجامعة تَوَلِّي عمادة كلية التربية.. فاعتذرتُ فوراً بدعوى رغبتي في الاستمرار بالبحث العلمي والتأليف والتدريس..

(الحقيقة أنني اعتذرتُ كيلا أغدو أداة طيعة في يد الفساد)..

أجابني المسؤول الأمني بتهكم وازدراء: إي بالناقص!!

حكاية الرفيق الملتزم- *(رواها إياد جميل محفوظ نقلاً عن المربي الفاضل د. فاخر عاقل).*

د. فاخر عاقل: بينما كنتُ، ورؤساءُ الأقسام في كلية التربية بجامعة دمشق، ولفيفٌ من الأساتذة الجامعيين، مجتمعين في مكتب «الدكتور مصطفى حداد» وزير التعليم العالي السابق.. إذ أفاد بتصريح يستأهل أن يسجله التاريخ.. فحينما دخل المستخدم «الآذن» لتقديم الضيافة للمجتمعين هتف قائلاً:

إن هذا المستخدم، الملتزم «حزبياً»، هو عندنا أفضل (وأهم) منكم جميعاً!!

يسقط الآغوات- *(رواها: خطيب بدلة)*

حدثني «الوليد طالب» من بلدة «كفرتخاريم» بمحافظة إدلب، وهو واحد من البعثيين الأوائل الذين تبنوا فكر حزب البعث في بداياته الأولى، بأنه أراد أن ينتسب إلى «دار المعلمين»، وكان من شروط الانتساب إليها الحصول على كفالة من أحد الملاكين الزراعيين، يعني: (كفالة آغا لبعثي!!)، وأنه ذهب إلى معظم أغوات منطقة حارم، طالباً منهم تقديم الكفالة له، فزجروه وقالوا له:

كيف بدنا نكفلك، وأنت كل يوم تنط لنا في المظاهرات وتسب على الآغوات؟ رُحْ، خَلِّ «الكادحين» يكفلوك!

(معلومة: بعد انقلاب الثامن من آذار مارس ١٩٦٣ تولى «الوليد طالب» عدة وزارات في الحكومة البعثية الأولى، ومع بداية انقلاب حافظ الأسد هرب إلى العراق، وبقي هناك، في كنف النظام البعثي العراقي، حتى أواخر الثمانينيات، إذ رجع بموجب ترتيب أمني يشترط عليه أن يُجري معه التلفزيون السوري مقابلة يتحدث فيها عن عظمة حافظ الأسد، وحقارة الآخرين، وبضمنهم قادةُ النظام العراقي).

وقد تم ذلك.. أجريت المقابلة، وأعطي الأمان..

لو نعرف البعث- *(رواها: سمير سعيفان)*

ثمة حادثة طريفة سمعتها من «أبي الندى اللواء محمد ابراهيم العلي» الذي كان قائدَ الجيش الشعبي في عهد حافظ الأسد، وهو من قرية «حورات عمورين» التي تبعد عن بلدتي نحو ٣ كم.. رويت عن «علي حيدر» قائد الوحدات الخاصة حين دَعَا لزيارته أحدَ وجهاء بيت «الكنج» من اللاذقية، وكانت هذه إحدى العائلات الإقطاعية قبل حكم البعث، فجاء ابن الكنج لزيارة علي حيدر في مقر قيادته في معسكر الكسوة قرب دمشق، يقود سيارته الشيفروليه القديمة موديل الخمسينات، فرأى أمام مكتب علي حيدر سياراتٍ كثيرةً حديثة فارهة، وعشرات الجنود يقومون على خدمته، فسأل ابنُ الكنج ابنَ حيدر:

لمن كل هذه السيارات؟

فأجاب ابن حيدر: لي أنا!

ابن الكنج: ما لهؤلاء الجنود يتصرفون وكأنهم خدم وليسوا جنوداً.

ابن حيدر: بل هم خدم، ألا تراهم يقومون على خدمتنا؟

حينها قال ابن الكنج قولته الشهيرة: والله لو عرفنا أن حزب البعث هكذا لسبقناكم إليه!

القرية قريتكم- *(رواها: سمير سعيفان)*

استمعتُ مرة، في أواسط ستينات القرن العشرين، لـ «جرعب الطليّع»، مختار قرية «الجرنية» التي تبعد عن بلدتي «السقيلبية» نحو ٢ كم، استمعتُ إليه يحدثُ والدي بتلك الحكاية التي انتشرت في المنطقة آنذاك، ومفادُها أن مجموعة من مشايخ حماه جاؤوا لزيارة قرية «الجرنيّة»، والقرية كانت ملكاً لـ «نجيب آغا البرازي» وقد شملها الإصلاح الزراعي وحصل كل فلاح على نحو ١٥٠ دونم أرض خصبة جداً في منطقة مطرية

بين ٤٠٠-٦٠٠ ملم في السنة، جاؤوا لزيارتهم، فرحب بهم أهالي الجرنية أيما ترحيب، فقد اعتادوا أن يأتي المشايخ لزيارة نجيب آغا وليس لزيارتهم، بينما كان دورهم يقتصر على خدمة نجيب آغا وضيوفه.

قال كبير المشايخ: نحن أتينا لبناء جامع للجرنية ونريد أن تقدموا لنا أرضاً للبناء، ولكننا لا نريدها من أراضي نجيب آغا البرازي، لأن الإصلاح الزراعي حرام.

فقال المختار جرعب: نحن ليس لدينا سوى أرض نجيب آغا التي وُزعت علينا فالقرية، بكاملها، كانت ملكه.

فقال الشيخ: إذن لن نستطيع بناء الجامع في القرية.

فقال المختار جرعب: إذن تفضلوا إلى الطعام يا عرب.

وكانوا قد أولموا لهم مناسف بخرفان، فقال الشيخ:

- إن كانت هذه الخرفان قد رَعَتْ في أرض نجيب آغا البرازي فهي حرام.

فحينها قال جرعب: الخرفان رعت في أرض القرية، وهذه الأرض هي أرضنا، فإن تفضلتم وشاركتمونا الغداء فأهلاً وسهلاً بكم، وإلا فالطريق أمامكم.

ثم اندار للحضور، وقال: تفضلوا إلى الغداء.

ومرة كنت أروي هذه الحكاية بحضور «أبو الندى محمد ابراهيم العلي» فقال:

- أنا كنت بالصدفة في هذه المناسبة، وكنت قادماً بصفتي مندوباً من القيادة لزيارة الجرنية، حاملاً معي ٥٠ ألف ليرة سورية لبناء مدرسة.

فبعد أن غادر مشايخ حماه الذين حدثتني بحكايتهم، قلت لمختار جرعب ولبقية الحاضرين:

-أنا قادم من القيادة ومعي ٥٠ ألف ليرة سورية ونريد أي قطعة أرض لبناء مدرسة، وطبعاً الأرض أرضكم، كما أنني أقبل دعوتكم للغداء والأكل من هذه الخرفان التي رعت في أرض القرية التي هي أرضكم!

فكان لي ما أردت!

صير بعثي يا حيوان- *(رواها: أبو مروان)*

دخل المدير. قال معلم الصف: قيام.

وقفنا.

أشار لنا المدير، بوجه بشوش أن نجلس. جلسنا.

وقف المعلم جانباً، أما المدير فأوضح لنا أنه ممثل لحزب البعث العربي الاشتراكي في هذه المدرسة، وأكد على أننا طلاب محظوظون، لأننا أصبحنا في سن تؤهلنا للانتساب لهذا الحزب العروبي المناضل.

وقال: شوفوا يا ابني. الانتساب للحزب اختياري. وضحك وهو يُنَكِّت: لا إكراه في البعث!!.. وقد تبين أن البعث على حق!!

وأشار إلى أحدنا: تعال ولاك. أنت. وزع طلبات الانتساب على الشباب!

أخفيت ورقتي، وتشاغلت عن زميلي المكلف بجمع الطلبات وتسليمها للمدير الذي- بدوره- أمسكها منتشياً كما لو أنه يمسك رزمة نقود من فئة ٥٠٠ ليرة، وقال: مبروك يا شباب، تشرفتم بانتسابكم لحزب البعث، الحزب القائد للدولة والمجتمع.

خرج المدير وتابع المعلم إعطاء درسه. وقلت في نفسي منتصراً: نَفَدْنَا.

خمس دقائق مرت وإذا بالمدير يفتح باب الصف بعنف، ويندفع إلى الداخل، كما لو أنه دورية أمنية تداهم وكراً للحشاشين والزعران.

نظر إلينا شذراً، وقال:

- ولاك! مين الجحش اللي ما قدم طلب انتساب للحزب..؟؟

سكتنا كأن على رؤوسنا الطير.

وبعد أن أجرى إحصاءً سريعاً، اكتشف أننا كنا ثلاثة لم نملأ طلبات الانتساب. حَصَرَنا في مقعد واحد قريب من النافذة الداخلية، وزع علينا ثلاث استمارات، وأمرنا:

- عبوها لشوف.

وقال موجهاً الكلام لي: ولاك يا حيوان.. أنت وأبوك وأهلك بتتشرفوا بالانتساب لحزب البعث. ولك احمد ربك. لو كنت أنا ابن حرام كنت رفعت فيكم تقرير لا يقف عليه حكيم! ولك يا ابني، يا بغل، أنا ليش تصرفت معكم بهدوء في البداية؟ لأني بدي إياكم تنتسبوا للحزب بملء إرادتكم مو بالعَفْسْ!

الحس الوطني- *(رواها: إياد جميل محفوظ)*

بطلُ هذه الحكاية هو المرحوم «بهاء الدين الأميري» بطل سورية السابق بكرة الطاولة.

بهاء، أثناء مشاركته مع منتخب سورية الوطني في إحدى البطولات الآسيوية، رماه حَظُّهُ العاثر أمام بطل الصين في مباراة لا تُنسى.. وأنا لا أفشي سراً حين أقول إن مَنْ اخترع هذه اللعبة هم الصينيون.. وأنهم حافظوا على حصد البطولات والألقاب المختلفة على مدار العصور والدورات الأولمبية والقارية كلها.

وكما كان متوقعاً، خسر «بهاء» أمام اللاعب الصيني بنتيجة ثلاثة أشواط مقابل صفر.. بعد مباراة استطاع فيها بهاء مجاراة خصمه في بعض من مراحلها.. إلا أن «الرفيق» رئيس البعثة السورية لم يُرُقْ له ذلك.. فانهال على بهاء الأميري الغارق في عرقه بالتأنيب والتوبيخ.. وأنهى كلامه بعبارة مؤثرة وعميقة حين قال له:

أنت لا تملك أدنى حس بالوطنية.. لقد سَوَّدْتَ وجهنا.. ماذا تراني قائلاً للقيادة السياسية والقيادة الرياضية حين عودتنا إلى أرض الوطن؟

وعلى الرغم من أن بهاء كان في قمة الإرهاق والتعب.. غير أنه بادره بكلمات بسيطة أصاب بها الهدف على نحو بارع:

هل تعرف، يا رئيس بعثتنا المحترم، الرئيسَ الصيني «ماو تسي تونغ»؟

رد عليه بحماسة:

بكل تأكيد.. ولكن ما علاقته الآن بخسارتك الشنيعة؟

فعاجله بهاء بسؤال آخر:

وما رأيك بحسه الوطني؟

أجابه بنبرة واثقة وقد ارتسمت على وجهه أمارات التهكم والسخرية: أأنت تسعى إلى اختباري أيها الجاهل؟.. إنه من أعظم عظماء التاريخ.. وهو صانع الصين الحديثة وبانيها.

هذا يعني أنك لا تشك لحظة واحدة بحسه الوطني.

رد عليه بغضب: على الإطلاق.. نهائياً.. ما هذا الكلام الفارغ؟

إذن.. أرجو أن تُحْضِرَه، الآن، فوراً، ودون إبطاء، لألعب معه مباراة بكرة الطاولة.. وسوف أفوز عليه بثلاثة أشواط نظيفة! وأمسح به الأرض أمامك!!.. وألقنه أكبر درس بـ «كرة الطاولة»، وبـ «الحس الوطني»!!!

بالإنكليزي- *(رواها إياد جميل محفوظ نقلاً عن المربي الفاضل د. فاخر عاقل)*.

د. فاخر عاقل: أوفد عددٌ من خريجي كليات الأدب «الإنكليزي» في الجامعات السورية إلى «إنكلترا» لمتابعة الدراسات العليا..

حينما راجع هؤلاء إدارةَ الجامعة الإنكليزية التي أوفدوا إليها اضطروا للاستعانة بأحد قناصل سفارة الجمهورية العربية السورية في «إنكلترا».. من أجل التفاهم.

القنصل شرح لإدارة الجامعة أن هؤلاء الأشخاص الموفدين للحصول على شهادة الدراسات العليا باللغة «الإنكليزية» لا يتقنون التحدث بـ «الإنكليزية»!!

محرك ألماني- *(رواها: هشام الواوي)*

كنا في السنة الثالثة من الاختصاص العسكري «ميم طاء»، نقيم في معسكر التدريب الجامعي بمدينة «الضمير».

كنا ثمانية رجال في خيمة واحدة. وكان «سلام» الشاب الوديع ذو النظرات الخجولة والقامة الطويلة المنكسرة معنا في ذات الخيمة.

لا يتكلم «سلام» إلا في حالات الضرورة القصوى. يجلس وحيداً شاغلاً نفسه بتصحيح وضعية نظارته، أو بمسحها بعناية فائقة. يجيبك سلام بابتسامة على كل شيء حتى على الشتيمة! إنه ودود كقط حديث الولادة، ومحايد كجذع شجرة، وصامت كشتلة بقدونس ناصعة الخضرة.

إن النوم لأول مرة في مكان غريب، مع أشخاص غرباء، هو شيء ثقيل. تشعر بأن كل مَنْ في الخيمة يتشقلب، والليل كحجر صوان ضخم، لا يريد أن يتزحزح. يترافق القلق الليلي مع تحذيرات من وجود حشرات سامة وهوام عاقصة، وعقارب، وربما أفاع يجب الحذر منها. كنت أشعر بأن كل

مَنْ في الخيمة يتحرك، ويتنفس بصعوبة، ويعاني كما أعاني أنا بالضبط.

يبدو «سلام» على سريره في الزاوية نائماً بهدوء وكأنه خديج موضوع ضمن الحاضنة ويتنفس بانتظام كمحرك ألماني الصنع.

تعالى صوت صرصار ليلي جائع عندما استوى سلام في سريره، واستلقى شعاع القمر الذي تسلسل من باب الخيمة المشقوق على وجهه، فبدا كالملاك.

فجأة... جلس «سلام» على حافة السرير، وعقد يديه على صدره، وبدأ يشتم بصوت عال:

شتم حزبَ البعث، ورئيسَ الجمهورية، والقائدَ العام للقوات المسلحة!

أصبتُ بالرعب، وانكمشتُ في سريري كالقنفذ. تمنيت لو أتلاشى بسرعة في قطن الفراش، وأما «سلام»، فكما لو أنه يغني أغنية جميلة منسابة، تابع الشتم. كان شتماً مؤلماً، مؤذياً، من الزنار وأنت نازل، لم يترك على حزب البعث ستراً مغطى. وسب رئيسَ الجمهورية ونوابَه والقائدَ العام للقوات المسلحة، ووزيرَ الدفاع.

أنهى وصلته وعاد بكل هدوء إلى النوم، والانتظام في التنفس كالمحركات الألمانية، وكأن شيئاً لم يحدث!

أحزاب ما عليها زحمة- *(رواها: خطيب بدلة)*

انتسب صديقي السكّير، أو السُّكُرْجي «ص. م» إلى حزب البعث، وبقي فيه بضع سنوات وهو يدفع الاشتراكات في مواعيدها.. علماً أنه شخص لا مبالٍ يبيع الأحزاب السورية والعربية والعالمية كلها بـ (بطحة عرق «البَطّة» مع صحن بزر وقضامة من النوع الرخيص)!..

كنا نسألُه عن فلسفة هذا الانتساب، فيشرح لنا أنه لن يخسر شيئاً، إذ أن رسم الانتساب في الشهر كله عشر ليرات. فإذا ارتأت القيادة، في يوم

من الأيام، تكليفه بوظيفة فيها لَحْس أصابع «يعني: فيها مجال للاختلاس»، فبظرف سنتين، أو ثلاث سنوات، يقبر الفقر ويضع فوق جثته أمتاراً من التراب.

في مطلع التسعينيات، غاب عنا «ص. م»، وانقطعت أخباره ما لا يقل عن سنتين، عرفنا، بعدها، أنه انتقل إلى دمشق، وقد تخلى عن حزب البعث وانتسب إلى حزب «الاتحاد الاشتراكي» الذي يقوده الأخ «صفوان قدسي»..

سألتُه، في أول جلسة لنا بـ «مطعم الريس»، في وسط دمشق، عن سر هذه التكتكة، (كدتُ أقول: الذبذبة)، فقال لي بكل صراحة:

- أخي، أحزاب الجبهة أفضى «أقل ازدحاماً».. حزب البعث فيه زحمة كتير.. يعني ممكن تعيش وتموت وما حدا يكلفك بمنصب!

وضحكنا..

وبعد مدة التقيت فيه. قال لي:

- يمكن انتقل لعند «كريم الشيباني»!.. هادا فاتح حزب جديد، اسمه «الحزب الوطني الديمقراطي» ولسه ما في عليه عجقة أبداً!

تعقيب: «كريم الشيباني» المولود في سنة ١٩٤٧، عضو في اتحاد الكتاب العرب أيضاً، وله تسعة مؤلفات، ثلاثة منها عن حافظ الأسد!.. وكان يفكر، حقيقة وليس مزاحاً، بتأسيس حزب يحمل عنوان «الحزب الأسدي» نسجاً على منوال «الحزب الناصري»!.. ولكن الموت عاجله في سنة ٢٠٠٧، فأراحنا من كل شي.

اجتماع الجبهة الوطنية التقدمية- *(رواها: خطيب بدلة)*

ذات يوم، في أوائل السبعينيات، فوجىء أمين فرع إدلب لحزب البعث

ببرقية من القيادة القطرية تنص على أن وفداً من الجبهة الوطنية التقدمية سيزور المحافظة بعد أيام قليلة، وأن عليه أن يعقد اجتماعاً لفصائل الجبهة برعاية فرع حزب البعث، كما ينص ميثاق الجبهة!

(**ملاحظة معترضة:** ثمة مقولة تهكمية سورية تفترض وجود دكان مكتوب عليه: دكان الجبهة الوطنية التقدمية لصاحبه حزب البعث العربي الاشتراكي)!

أغلق أمين الفرع سماعة الهاتف، وأمر بعقد اجتماع فوري لأعضاء الفرع، وطَرَحَ الموضوع للتداول.

توصل المجتمعون، بعد لأي، إلى أن حزبين من أحزاب الجبهة الوطنية التقدمية ليس لهما أي وجود رسمي أو شعبي في محافظة إدلب. فما الحل؟

عولج الموضوع على النحو التالي: جيء بعشرة رفاق بعثيين، واتخذت قيادة الفرع قراراً بفصلهم، بحجة عدم دفع الاشتراكات، وتقدم خمسةٌ منهم بطلبات انتساب إلى أحد الحزبين الجبهويين، والخمسة الآخرين انتسبوا إلى الحزب الجبهوي الآخر.. وعُقِدَ اجتماعُ الجبهة في موعده، وبحضور ممثلين عن كافة أحزاب الجبهة بمحافظة إدلب، دون استثناء.. وقام التلفزيون العربي السوري بواجبه في تغطية هذا الاجتماع التاريخي..

(**خاتمة:** نجحت التمثيلية التي ألفها وأخرجها فرع الحزب نجاحاً باهراً، ولكن.. حينما طُلِبَ من الرفاق العشرة ترك الحزبين اللذين نُسِّبُوا إليهما، والعودة إلى صفوف فرع الحزب، نفذ بعضُهم الطلب، مسرورين بحسن التزامهم بأوامر حزبهم العظيم، وآثر بعضُهم الآخرُ البقاءَ هناك.. وقد أصبح أحدُهم- فيما بعد- وزيراً عن حزبه «المنقول إليه»، وأصبح آخر عضواً في المكتب التنفيذي عن حزبه «المنقول إليه»، وعُهِدَ إليه بمنصب نائب رئيس المكتب التنفيذي لفترة طويلة)!

تدشين- (رواها: إياد خضر)

ذات مرة، في أحد الأيام المشمسة من شهر تشرين الثاني «نوفمبر» الذي كان يُخَصَّصُ كله للاحتفال بذكرى الحركة التصحيحية، جاء إلى ضيعتنا أمينُ فرع الحزب، والمحافظ، وقائدُ الشرطة، وثلة من رجال الدولة.. وصلوا ماشين بجوار بعضهم، متكاتفين، يصفقون ويهزجون بعبارة:

- بالروح بالدم نفديك يا حافظ.

توقفوا أمام المستطيل الحجري الذي يرتفع عن الأرض بمقدر ١٢٠ سنتمتر. مد أمين الفرع يده وأزاح الستار عن اللوحة التذكارية لتدشين مشروع جر مياه الشرب إلى القرية.

وأما المحافظ فمد أصابعه وفتح حنفية الماء المتصلة بالمستطيل الحجري المرتفع الذي يعرف باسم «حجر الأساس»، فأخذت المياه تتدفق من الحنفية بغزارة، وعلى الفور قُرِع الطبلُ، وتَرْغَلَ المزمار، وأقيمت حلقة الدبكة التي أخذت تتسع حتى صار طولُها أكثرَ من مئة مترا!..

حوالي نصف ساعة، غادر الوفد بعدها المكانَ بمثل ما استقبل من حفاوة وتكريم.

في الجانب الآخر لجدار حجر الأساس كان ابنُ بلدنا «عبدو الحجي» يفك النربيش الواصل «بشكل خفي» بين صهريج الماء والحنفية وهو يتمتم ببعض الشتائم والمسبات على القيادة القطرية، وعلى أمين فرع الحزب، وعلى عضو الفرع رئيس المكتب المالي الذي وعده بدفع ثمن صهريج الماء، ولكنه، قبل التدشين بقليل، طلبَ منه اعتبارَ هذا الصهريج تبرعاً لثورة البعث والحركة التصحيحية..

حتى البعثات الرياضية- (رواها: إياد جميل محفوظ)

تلك الحكايات العجيبة التي رواها لنا الدكتور (فاخر عاقل) رحمه الله،

قذفت بذاكرتي إلى العام (١٩٧٩)، حين التقيت بالصديق (أمين تاج الدين) بطل سورية آنذاك في القفز العالي خلال إحدى زياراتنا الرياضية إلى (بوخارست).. إذ كان يتابع تحصيله العلمي بالسنة الرابعة في كلية التربية الرياضية، موفداً من وزارة التربية السورية.

وقد رافقنا طيلة أيام الرحلة.. ولا أنسى خدماته الجليلة التي وفرها لنا على نحو جعل معسكرنا التدريبي أكثر يسراً ومتعة.

وقبل مغادرتنا العاصمة الرومانية بعدة أيام لفت انتباهي أنه كان ينضم إلينا في كل مرة منفرداً.. دون أن يصطحب معه أحداً من المبتعثين معه.. وحين سألته عن السبب أجابني:

- أنتم لا تعرفون أحداً منهم.

فهتفت متعجباً:

- لِمَ؟.. أليسوا من أصدقائنا الرياضين؟

فرد عليّ بسخرية بادية:

- حبيبي.. نحن اثنا عشر طالباً.. أوفدتنا وزارة التربية لدراسة الرياضة وفنونها، والحصول على شهادات عليا في الاختصاصات الرياضية المتنوعة.. وإليك الآن من هم زملائي في هذه البعثة: الأول اسمه (حسن)، وهو الأخ الأصغر للدكتور (كمال طه) معاون وزير التربية.. والآخرون منحدرون من الساحل السوري.. وللأسف عندما وصلوا إلى هنا لم يكن بوسعهم التمييز بين كرة الطاولة (البينبون) وكرة القدم.. أي أنهم لم ينتموا في يوم من الأيام إلى الوسط الرياضي.. فكيف لكم أن تعرفوهم، أو يعرفوكم؟

وبدون طول سيرة.. فقد اكتملت لديّ الصورة بعد أن أنهى صديقي بوحه بحسرة ومرارة، وغدت الحقيقة واضحة كضوء الشمس.. إذ لم يشفع له

تفوقه الرياضي، وتقلده للعديد من البطولات، والألقاب المحلية والعربية بألعاب القوى في الحصول على الإيفاد.. بل تبين لي أن الواسطة وحدها كان لها أبلغ الأثر في تحقيق حلمه بالابتعاث، ونيل درجة علمية عالية بالتربية الرياضية.

آنذاك استوعبت الموقف على نحو جيد ووفق تسلسل منطقي، وتفهمت لِمَ لم نلتق بهم ولو لمرة واحدة.. فأنا أعتقد مشفقاً أن هؤلاء المساكين الذين أوفدوا لدراسة التربية الرياضية (دون رغبة وهوى منهم، إذ كانوا يفضلون دراسة اختصاصات علمية أخرى كالطب والهندسة)، في أواسط السبعينات من القرن الفائت لم يكن بوسعهم تحمل مشاهدة ومتابعة المزيد من المباريات والأنشطة الرياضية.. إذ فاضت روحهم سأماً وقرفاً منها خلال سنوات دراستهم الأربع التعسة.

اليوم بعد ثلاثة عقود ونيف بات الصديق (أمين تاج الدين) من أنجح وألمع العاملين بالطب الرياضي، والمعالجة الفيزيائية في (حلب)، بعد أن حصل لاحقاً على شهادة علمية أخرى بهذا الاختصاص.

ومن جهة أخرى لا يسعني الادعاء أنني أعرف أين عمل الآخرون، وكيف كانت مسيرتهم في حياتهم العملية.. وهل استفادت منهم الشعب الرياضية، أو الشعب الحزبية، أو شعب التجنيد، أو الشعب الأمنية.. حقيقة لا أدري.. ولكن الذي أعرفه تماماً، ودون أدنى ريب، أن الرياضة السورية في الفترة نفسها وصلت إلى حالٍ لم تعد تسر صديقاً أو تغيظ عدواً.

تحرير لواء اسكندرون- *(رواها: حربنوشي قح)*

كان أمينُ الفرقة الحزبية يجتمع بالرفاق أعضاء الفرقة ويحثهم على النضال لاسترجاع «لواء اسكندرون» من الاحتلال التركي، بينما الرفاق، معظمهم، نائمون.

وكان ثمة رجل مسن يجلس في الخلف.. والظاهر أنه رفيق قديم من النوع الذي يعرف البير وغطاءه.

تضايق هذا الرجلُ من كثرة اللت والعجن في موضوع لواء اسكندرون، فوقف وقال:

- رفيق.. يا رفيق.. الله يوفقك لا بقى تحكي، علي الطلاق وجعت لي راسي.. أخي، إنتوا رَجّعوا لنا «الجولان»، وبالنسبة للواء اسكندورن بتاخدوه من هالدقن!

طازجة- *(رواها: حربنوشي قح آخر)*

تشاجر، في قرية «حربنوش»، أخوان شقيقان مع بعضهما، سنفترض أن أحدهما يدعى حسن (وهو بعثي عضو عامل وعضو الفرقة الحزبية) والثاني حمود، (شخص عادي لا يفهم في السياسة، وهو، إلى ذلك، عصبي، يغضب لأقل الأسباب)..

أثناء المشاجرة، وكان غضبُهما في الأوج.. قال حسن:

- ولاك حمود، والله الحق مو عليك أنت، ولاكن الحق علي أنا.. لما أنت سبيت على حزب البعث العربي الاشتراكي، كان لازم أكتب بحقك تقرير للمخابرات وخليك تروح بخبر كان!

قال حمود، وهو يفور ويغلي كالمرجل: أنا سبيت على حزب البعث؟.. أيمتى؟

قال حسن: السنة الماضية..

صاح حمود: ولك ليش السنة الماضية؟ خدها الآن، طازجة، (كذا...) فيك وفي الحزب!!

الطالب المناضل- *(رواها: إياد جميل محفوظ)*

في بداية الثمانينيات من القرن الماضي نالَ رجلٌ من مدينة حلب..

يُدعى «أبو حسن مغربي» شهرة واسعة.. لا أدري إن كان هذا اسمه الحقيقي أم أنه لقب مستعار..

يُقال إن أبا حسن كان من أوائل العاملين في إدارة التجنيد العامة في المدينة.. ويكاد أن يكون أقدم «مساعد أول» فيها.. وبعد أن راجت تجارتُه استقال من عمله، وغدا واحداً من أهم الوسطاء المحترفين الذين ذاع صيتُهم وسط مجتمع رجال المال والأعمال في المحيط الحلبي ودهاليزه.

كان أبو حسن- على ما يُحكى- يحل أية مشكلة مهما كانت عويصة.. وعلى سبيل المثال تتوفر لديه خدمات كثيرة محددة الأجر مسبقاً.. فالتأجيل الإداري من الخدمة الإلزامية لمدة سنة بخمسة آلاف ليرة سورية بضمنها المصاريف والنثريات.. وحين يُطْلَبُ التأجيل للشخص نفسه سنة أخرى يصبح السعر عشرة آلاف ليرة سورية.. نَقْلُ عسكري مجند من الجبهة إلى محافظته بثلاثة آلاف ليرة سورية.. وإذا العسكري كان ذا رتبة «صف ضابط أو ملازم مجند» تتضاعف التسعيرة.. وهكذا.

على هذا الأساس قَصَدَهُ أحدُ أصدقائي في مسألة تخصه، معتقداً أنها صعبة وعصية عن الحل، مؤملاً، رغم ذلك، أن يجد عنده الفَرَج.

الموضوع باختصار هو: أن ابن صاحبي حصل على الشهادة الثانوية من «المملكة العربية السعودية» حيث يعمل والدُه.. وكان مجموعه ينقص درجتين فقط عن المجموع المطلوب للقبول بكلية الطب في «جامعة حلب».. وحين عرض الأمر على «أبو حسن» قال:

لاااا!.. الموضوع يحتاج لسفرة إلى دمشق.

وعندما عاد من دمشق، بعد أسبوع، كان يحمل البشرى معه.. إلا أن الأجر بدا باهظاً.. ومع ذلك لم يعترض صديقي عليه..

سأله فيما إذا كانت الطريقة التي سيُسَجَّلُ فيها ابنُه في كلية الطب

البشري قانونيةً أم لا؟.. فانقلب (أبو حسن مغربي) ضاحكاً وهو يقول:

نظامية..ههه، نظامية!.. يا لطيف إش نظامية!..

ثم ما لبث أن هتف بنبرة حاسمة: محسوبك أبو حسن لا يسلك إلا الطريق السليم.. اسمع الحل: سنقوم بتنسيب ابنك إلى حزب البعث العربي الاشتراكي بتاريخ قديم.. وبمرتبة «عضو عامل».. وبما أن القيادة القطرية شديدة الحرص على أعضائها.. ولا سيما أولئك الذين يتعرضون للاضطهاد والملاحقة في الدول الرجعية العربية «السعودية في حالتكم».. فقد ارتأت القيادة أنه لا بد من منح ابنك، وعلى وجه السرعة، تلك الدرجات البسيطة لإنقاذه من براثن الرجعية والإمبريالية وتآمر العملاء والخونة.. وفي الوقت نفسه يكسب الوطن مناضلاً جديداً!!

(انتهت القصة هنا.. ولست أدري إن كان يهمكم أن تعرفوا أن صديقي رفض عقد هذه الصفقة، لئلا يصبح ولدُه مناضلاً مزيفاً، ولئلا يتشوه اسمه بالانتساب إلى حزب البعث)..

مطرب مناضل- *(رواها: مصطفى تاج الدين الموسى)*

لا زلت أتذكر جيداً ذلك المساء الصيفي القديم، وكأنه مساء البارحة. في أوائل التسعينيات من القرن الماضي، وفي حفلة عرس أحد أقارب هذا الطفل الصغير.. تجمعت حوله الصبايا اللواتي يعتقدن أن صوته جميل.. أوقفنه على كرسي وألححن عليه ليغني لهن أغنية ما، وهُنَّ، في أعماقهن، يحلمن بسماع أغنية (لزرعلك بستان ورود).

لكن.. يبدو أن التربية العقائدية آنذاك، كان لها وجهة نظر أخرى.. أمسك الطفل بالمايكروفون، وأمام العشرات راح يتمايل منتشياً، وهو يغني بطربٍ طفولي بريء.. ويصدح لهم بـ :

- يا معاملنا دوري دوري... يا معاملنا غني ودوري!!

تحت البنطلون- *(رواها: خطيب بدلة)*

كان من عادة الآغوات، ملاكي الأراضي، قبل حكم البعث الاشتراكي، أن يُهْمِلُوا ممتلكاتهم من الأراضي التي تقع بجوار القرية أو البلدة، وتسمى الواحدة منها «حاكورة».. يهملونها لأنها تكون، في العادة، صغيرة لا تتجاوز نصف الدونم، ومرتعاً للجحاش والغنم والماعز والدجاج والكلاب، ولا يليق بآغا يمتلك بضعة آلاف من الدونمات أن يفلحها ويزرعها، و(يحط عقله في عقلها)!

ولكن أحياناً يكون للضرورة أحكام..

ففي ذات يوم حضر «إلهامي آغا» إلى مكتب أمين فرع حزب البعث بإدلب، وهو ابن قريته، يعني بينهما شيء من الموانة، وقال له:

يا رفيق، جماعتك صادروا أملاكي كلها، ووزعوها على الأجراء والمرابعين الذين كانوا يشتغلون عندي.. صحتين رفيق، صحتين على قلب الحزب، وعلى قلوب الأجراء والمرابعين.. ولكن بودي أن أخبرك بشيء، هو التالي: أنا كان عندي «حاكورة» شرقي البلد.. أنتم صادرتم هذه الحاكورة، ولم تسلموها لأحد من المرابعين، أصلاً المرابعون يرون أنها غير محرزة، ولا تستأهل التعب!!.. رفيق، ممكن تعيدوا لي إياها، لأستصلحها وأزرع فيها خضروات تُغْنيني وأسرَتي عن الشراء من السوق، وأنا رجل فقير كما تعلم!!!!!

شرح أمينُ الفرع لإلهامي آغا أن الأمر في يد القيادة القطرية، وبالنظر إلى أن إلهامي فقير!! ومعتر!!.. فهو، أي أمين الفرع، مستعد أن يعطيه رسالة توصية إلى الرفاق في القيادة القطرية عسى أن يساعدوه في هذا الأمر.

سُرَّ إلهامي آغا بهذا الإنجاز، وأخذ بطاقة التوصية وقال: يا ودود.

بيد أن إلهامي آغا ارتكب خطأً لا يمكن لواحد نبيه- مثله- أن يرتكبه..

إذ أنه ارتدى الطقم غالي الثمن الذي كان يقابل به الحكام، في أيام العز و«الآغوية»، وسافر إلى الشام.

كان الرفاق، أعضاء القيادة القطرية، مجتمعين، حينما دخل عليهم إلهامي آغا ومعه «كارت» التوصية المرسل إليهم من رفيقهم أمين فرع إدلب.

بلا طول سيرة، عرض عليهم إلهامي آغا حاجَته لاسترداد «الحاكورة» بمنتهى الصدق والانسجام مع النفس.. والحقيقة أن معظمهم تعاطفوا مع حالته، (باعتبار أنهم صاروا أغنياء، بفضل النضال ضد الرجعية والإمبريالية والاستعمار! وأمسوا يتفهمون معاناة الإنسان الغني الذي يمكن أن يصبح، بين عشية وضحاها، فقيراً، معثراً).. وكادوا أن يقرروا الموافقة على طلبه، لولا أن عَلَّقَ أحدُهم، على نحو مفاجئ، موجهاً الكلام إلى إلهامي آغا:

أنا أرى أنك «تتصنَّع» الفقر أمامنا، لكي تستثير شفقتنا.. أيّ فقر هذا و«الطقم» الذي ترتديه أكثر فخامة وأغلى ثمنا من «طقوم»ـنا نحن أعضاء القيادة القطرية مجتمعين؟!

ههنا حصل أمر شديد الغرابة.. ذلك أن كلام الرفيق قد أثار غضب إلهامي آغا، وبالأخص اتهامه بأنه «يتصنَّع» الفقر! وإذا به، فجأة، ومن دون أي تردد، أو خجل، يمد يديه إلى حزام البنطلون، وبدأ يفكفك الأزرار، ويخلع البنطلون، وكأنه يريد أن يقدم للأعضاء وسائل إيضاح عن الموضوع الذي يشرحه لهم، وأثناء ذلك كان يقول:

- نعم يا رفيق؟ قلت لي أنا أتصنع الفقر لأجل أن أستجدي عطفكم؟ طيب أنا الآن سأريك، على الواقع، أنني لا أرتدي «كلسون» تحت هذا الطقم الفخم غالي الثمن!!.. يا أخي، هأنذا أحكي أمام كل هؤلاء الرفاق المناضلين الشرفاء، وأراهنك، إذا كنت لابس «كلسون» تحت الطقم تربح أنت الرهان..

وحينما أصبح نصفه السفلي عارياً قال:

- تعرف ليش أنا لا أرتدي كلسون؟ لأني الله وكيلك لا أمتلك ثمن كلسون!.. وهل تركتم لي ثمن «كلسون» يا أولاد الكلب؟!!

عامل التنطيزات- *(رواها: إياد خضر)*

حينما كنا تلاميذ في الصف الثالث الابتدائي، إن لم تَخُنِّي الذاكرة، كان لدينا نَصٌّ في كتاب القراءة، يحمل عنوان «عامل التنظيفات»..

أراد المعلم أن يتأكد من أننا نجيد- مبدئياً- قراءة العنوان، فعمد إلى الاستماع لكل منا على حدة، حتى جاء دور «عبدو» الذي قال:

- «عامل التنطيزات» أستاذ.

طلب منه أن يعيد المحاولة، لكنه، في كل مرة كان يعيدها بنفس الصيغة. أقسمَ المعلم ألا (يحل عنه) حتى يجيد قراءتها.

عبدو لم يستطع ذلك. استحالة.

وأما المعلم فلم يكن يملك حتى قوت عياله، ومن ثم هو لا يستطيع إطعام عشرة مساكين.. فما كان منه إلا أن صام ثلاثة أيام كفارةً عن يمينه.

مضت السنون، وانتسب «عبدو» إلى صفوف حزب البعث العربي الاشتراكي، ثم تقدم بطلب للحصول على وظيفة لدى أحد فروع الأمن، وتوسط له الرفيق «أمين الشعبة العمالية» عند الرفيق أمين الفرع، فقبله. وبما أنه لا يجيد القراءة والكتابة فقد عينه بوظيفة حارس عند باب أحد المشافي العسكرية.. وسلموه بارودة روسية مع ثلاثة مخازن وخزانة صغيرة يضع البارودة والمخازن فيها إلى حين توقيت نوبة الحراسة التالية.

هذا الموقع، وبهذا الشكل، لم يحقق لعبدو حلم حياته بوضع مسدس فوق مؤخرته، والسير في شوارع المدينة بوضعية (التعنيز والتطنيب) التي يتقنُها عناصرُ المخابرات، فاضطر، غير آسف، لدفع خمسة وعشرين ألف

ليرة سورية لأحد الضباط، على سبيل الرشوة، حتى تمكن من استلام المسدس.

تنقلَ عبدو في عدة مناصب أمنية، حتى غدا يتقاضى ثلاثة رواتب من ثلاث جهات أمنية- دفعة واحدة- عدا راتبه الأساسي..

وذلك نتاج ما يجود به «لسانُه» من تقارير ووشايات، لا ما يخطه قلمه، لأنه، كما علمتم، لا يجيد الكتابة، وبالأخص عبارة «عامل التنظيفات»!

لا تفتح لي سيرة الرياضة أرجوك- *(إياد جميل محفوظ)*

في زيارة خاصة إلى مدينة إسطنبول الساحرة في أواخر صيف العام ٢٠١٣، التقيتُ بالعديد من الأصدقاء الرياضيين القدامى الذين تشتتوا في مغارب الأرض ومشارقها إثر قيام الثورة السورية.. منهم الصديق «ك. ه» الذي أخبرني بأنه ما يزال رئيساً لمجلس إدارة أحد الأندية الرياضية في حلب، وأضاف بأن أفراد فريقه لكرة القدم مقيمون في دمشق منذ أكثر من شهرين للاشتراك في بطولة الدوري العام.

أمر غريب وعجيب فعلاً- قلتَ لنفسي- فبعد هذا الدمار والخراب كلّه ما زال النظام يصرّ على أن الحياة تسير بشكل طبيعي في سورية، والنشاط الرياضي شغّال (طبعاً المباريات تجري بدون جمهور، وخلف أسوار ملاعب مغلقة!!).. أفادني «ك. ه» أن ما يهمهم فقط من هذه التمثيلية كلّها هو نشر أخبار الدوري في الشريط الإخباري الذي يمرّ أسفل شاشة القناة الفضائية السورية، ليوهموا الواهمين أن سورية بخير.

ثم حكى لي هذه الحكاية:

تم تعيين أعضاء جدد لفرع حزب البعث بحلب، فبادرت أنا ورؤساءُ الأندية الرياضية في المدينة إلى زيارة مَنْ يُسمى «رئيس مكتب الشبيبة والرياضة»، وذلك طبقاً للأعراف المتبعة.

التقينا في مكتب مسؤول الشبيبة والرياضة الرفيق «ياء ميم».. وما إن بدأ الشباب بالحديث معه عن واقع الأندية في المدينة حتى قاطعهم قائلاً:

- يا رفاق.. بإمكانكم أن تطرحوا ما تشاؤون من أمور، وتتحدثوا فيما ترغبون.. ولكن لا تفتحوا لي سيرة الرياضة، الله يوفقكم.. فأنا لا أفهم فيها على الإطلاق.. وطوال حياتي لم أشاهد مباراة.. حتى إنني لم أمارسها قط.

أمام هذا الاعتراف الصريح والمفاجئ، شعر أصدقائي بالحرج وأنهم قد تورطوا بهذا اللقاء.. أو ربما أنهم قد أخطؤوا العنوان.. ولمّا حاول أحدهم تلطيف الأجواء بدبلوماسيته المعهودة.. قاطعه الرفيق «ياء ميم» على نحو حاسم قائلاً:

- يا شباب.. يبدو أنكم ما فهمتم علي!.. سأخبركم بأكثر من ذلك.. أنا لا أحب الرياضة إطلاقاً.. بل على العكس أكرهها.. ولم تستهوني في يوم من الأيام.. ولا أعرف لماذا ورطوني بهذا المنصب!

دعوني أقل لكم إنني شعرت بقدر من الاحترام تجاه هذا الرجل، فهو يختلف عن الآخرين.. إذ تبين أنه يمتلك «شوية» جرأة جعلته يفصح صراحة عن الحقيقة التي أجبرت على الغياب قسرياً على مدى عقود.

(يبدو أن رياح الثورة السورية قد أصابته بشيء من العدوى)!

الرئيس نور الدين الأتاسي- *(نقلاً عن ويكيبيديا)*

أصبح نور الدين الأتاسي رئيساً للدولة السورية، وانتخب أميناً عاماً لحزب البعث بعد انقلاب الثالث عشر من شباط ١٩٦٦ الذي أطاح بالرئيس أمين الحافظ.

كانت سلطته محدودة إذ كانت السلطة الفعلية في يد مساعد الأمين العام لحزب البعث «رئيس شعبة شؤون الضباط» صلاح جديد.

تَبَوَّأَ منصب رئيس الوزراء في العام ١٩٦٨ إلى جانب تبوئه منصبي الأمين العام للحزب ورئيس الدولة. ووقع في عهده الاتفاق على إنشاء سد الفرات مع الحكومة السوفييتية، وبوشر في تنفيذه في ذلك العهد أيضاً.

خلال فترة حكمه خسرت سوريا مع مصر والأردن حرب الـ ١٩٦٧ واحتلت إسرائيل الجولان. وفي الوقت الذي رفض وزير الدفاع حافظ الأسد تحمل مسؤولية هذه الهزيمة.

نادى الأتاسي، بعد الحرب بإقامة جبهة وطنية واسعة وبالانفتاح على بقية القوى السياسية في البلاد. لكنه دخل هو والأمين العام المساعد صلاح جديد في خلاف مع وزير الدفاع آنذاك حافظ الأسد، وقد بلغ الخلاف أوجه أثناء أحداث أيلول الأسود في الأردن، فقد أرسل نور الدين الأتاسي قوات سورية لمساندة الفلسطينين، وحصل خلاف مع حافظ الأسد حول إرسال هذه القوات.

استقال من كافة مناصبه في شهر تشرين الأول من العام ١٩٧٠ احتجاجاً على تدخل الجيش في السياسية وعلى ممارسات رفعت الأسد شقيق وزير الدفاع حافظ الأسد، وعلى إثر هذه الاستقالة فرغت المناصب الثلاثة الرئيسية في الدولة وتم توجيه الدعوة لعقد المؤتمر العاشر الاستثنائي للحزب الذي قرر فصل كل من حافظ الأسد ورئيس الأركان مصطفى طلاس من منصبيهما، وعلى الأثر قام الأخير بانقلاب عسكري سمي بالحركة التصحيحية في ١٦ تشرين الثاني ١٩٧٠ أزاحه فيه وصلاح جديد عن منصبيهما ووضعهما في سجن المزة العسكري.

أمضى الأتاسي اثنتين وعشرين سنة في السجن ضمن زنزانة ضيقة ومن دون محاكمة، وأصيب في النهاية بمرض السرطان ولم تقدم له السلطة العلاج المناسب، وأدخل إلى مشفى تشرين العسكري لمدة أربعة أشهر

قبل أن يطلق سراحه بعد أن انتشر المرض في جسده، ولم يعد هناك من أمل في شفائه.

سافر بعد إطلاق سراحه فوراً للعلاج في باريس ولكن المرض لم يسعفه وتوفي بعد أسبوع من وصوله، في الثاني من كانون الأول١٩٩٢، ودفن في مدينته حمص وخرجت له جنازة مهيبة.

ملاحظة من المحرر:

تعرض زعيم حركة ٢٣ شباط / ١٩٦٦ صلاح جديد إلى الجرعة ذاتها من اضطهاد حافظ الأسد، فسجنه مدى الحياة، علماً بأن صلاح جديد كان في مقدوره أن يستأثر بالسلطة خلال الأعوام ١٩٦٦- ١٩٧٠، ولكنه لم يفعل، وقد عرف عنه الإخلاص لمبادئ حركته، والزهد بغنائم السلطة. وإن كان لصلاح جديد أخطاء يمكننا أن ننسبها لمجموع قادة الحركة..

اليدُ العليا- *(رواها: وائل زيدان)*

في مدينة «السَّلَمية»، على طول الحائط المُطل على الطريق الرئيسي (طريق حماه)، كَتَبَت شعبةُ الحزب، بالخط العريض، شعاراً بعثياً معروفاً هو: اليدُ المنتجة هي العليا في دولة البعث.

في آخر ذلك السور فتحَ أحدُهم «بَسْطة» للسندويش بعد أن قام، بمنتهى العفوية، بطلاء جزء من الخلفية بالأبيض مغيباً الكلمةَ الأخيرة من الشعار ومستبدلاً إياها باسم بسطتِهِ الجديد. لكن أحداً لم ينتبه إلى أن الشعار الحزبي تحول على يد هذا الشاب البسيط إلى شعار جديد هو: «اليد المنتجة هي العليا في دولة فلافل الحديقة»!

الفصل الخامس- ثلاث رميات من خارج القوس رماها الكاتب الكبير سامر قطان *(اسم مستعار)*

الرمية الأولى: أنت شو ولا عرص؟!!

قبل سنوات عديدة من قيام الثورة السورية، كنتُ سألتُ صديقي، بُعيد خروجه من المعتقل، عن أغرب ما واجهه خلال السنوات الخمس التي قضاها، فقال:

- والله يا صاحبي يمكن تستغرب لو قلت لك بأنه رغم التعذيب والحصار والشتائم والتجويع.. فإن سؤالاً بعينه ظل معلقاً في ذهني مثل الناقوس..

قاطعته مستغرباً: يا لطيف! وما هو هذا السؤال الخطير؟

قال: لا أعرف إنْ كان خطيراً كما تقول. لكنه كان غريباً عجيباً فعلاً.

قلت: «قلْ»!

فقال: في اليوم الأول من اعتقالي انهالت عليَّ الأسئلة والمعلومات التي لدى المحقق مثل المطر. بالطبع، ناورت وداورت وأنكرت وما إلى ذلك مما تعرفه. لكنَّ المحقق سكت فجأة، وراح يحدّق في عينيّ بثبات، ثم قال بما يشبه السؤال: «إنتَ شو ولاه!؟» فحرت بالسؤال وقلت: «شو أنا؟» فعاود صائحاً: «عم إسألك يا حيوان إنتَ شو؟ شو إنتَ؟»

رحت أتلفّت حولي، لا بدَّ أنه يقصد شيئاً لا أراه!!

أثناء تلفُّتي، اختلست بضع نظرات إلى وجهه. كان يحلق بي من ما

فوق رأسي إلى ما تحت قدميَّ بملامح المستطلع المنتظر! قلت في سري: أشاغلُه بسؤالي عن سؤاله العجيب، إذ لم يبقَ مطرحٌ في جسدي لخيزرانة جديدة، فقلت كما لو كنت أسأل نفسي «شو أنا!؟». ومططت شفتي السفلى.

بصق بقوة في وجهي، وصفعني صفعة أسقطتني أرضاً. ثم أمر بوضعي في الدولاب من جديد وهو يقول: «لك يا عرص يا ابن العرص عم إسألك شو إنتَ، بتقلي: شو أنا؟ إنتَ عم تحقّق معي، ولاّ أنا عم حقّق معك؟!!»

قلت لصديقي مستنكراً: «طيب، يمكن الزلمة عم يسألك عن تنظيمك، عيلتك، شغلك...»

قال صديقي: «لا! لا!».. وتابع:

الزلمة سألني عشرات الأسئلة، وحقّق معي لحتى شبع.. بس ما بعرف شو خطر على باله لحتى سألني: انتَ شو؟.. فعلاً وقتها ما فهمت أنا شو؟! لو كان سألني: إنت مين، لكنت ذكرت اسمي، لو سألني إنت وين، أو إنت كيف، لكنت ذكرت مدينتي أو وضعي أو تنظيمي.. إلى آخره. لكن المشكلة إنو سألني: إنت شو؟ يعني في غير ربك بيعرف نحنا شو؟!

صمت صديقي قليلاً، ثم راح يحكي كما لو كان ينزف:

- تعرف شو؟ بالحقيقة كان في عيونه شي غريب. كان عم يتطلع بوجهي وجسمي كما لو كنت رائداً من روّاد الأطباق الطائرة وأمسكوا به أخيراً! فعلاً كانت ملامح وجهه فيها استغراب ما فيها سؤال! بدك تقول فيها تعجّب! عم يسأل كأنه مانو مصدّق. ما كان بدو معلومات، كان حابب يفهم أنا شو؟! ويمكن إنتَ نفسك شو؟ والشباب اللي معنا.. شو؟ وكل رفقاتي.. شو؟ وكل واحد عم يفكر يعارض النظام.. شو؟ وكل واحد بالبلد يقول (لا) في غير تشهّده.. شو؟!

صمت صديقي فجأة، وصمتُّ معه لدقيقة، أو لدقيقتين، ثم كما لو كنا على اتفاق وتنسيق، توجّه كل واحد منا للآخر ليسأل:

-«بجدّ، ما قلتلي: ولك إنتَ شو؟»

ثم اعتدنا، طيلة السنوات التي تلت، على أن نبدأ، حال أن نلتقي، بالسؤال عينه: ولك يا عرص.. إنت شو؟!

الرمية الثانية: من هو رئيسكم؟

لم أكن أدري، وأنا في زيارة إلى سويسرا قبل نحو عشر سنوات، أنني سأُخْرِجُ أصدقائي السويسريين هناك بـ (سؤال) عارض خطر ببالي في سياق أحاديثِنا عن موضوعات شتّى، وتَبَادُلِنا لبعض النكات والتعليقات الخفيفة، كما هي العادة في اللقاءات الأولى، وأنني عبثاً، سأحاول التراجع عنه، ولكن دون جدوى!

كنت العربي الوحيد في الجلسة، غير أن أحد الأصدقاء السويسريين كان يجيد العربية ويقوم بالترجمة. فجأةً وجدتُني أميل نحو صديقي هامساً بسؤال: (ما اسم رئيسكم الحالي؟).. فوجدته- بعد أن هرش رأسه- يميل نحو الجالس قربه، ليميل الأخير- بعد أن مطّ شفته ورفع كتفيه- نحو آخر مال بدوره على جاره، فبدوا لي مثل أحجار الدومينو إذ انخرطوا في الكلام بالألمانية، وازداد احمرارُ وجوههم جراء عدم تمييزهم (كما فهمت) بين اسم الرئيس الماضي، والحالي، والقادم! وهذا ما أشعرني بثقل دمي و«غلاظة» سؤالي، إذ لم أكن معنياً إن كان اسمه جون أو ألبرت أو إدغار أو عبد الجبّار!! غير أنني تورطتُ وسألتُ، وتورطوا في البحث عن الجواب الصحيح!!

من ارتباكهم البادي، ومن تداولهم السريع للكلام (كما لو كانوا يشاركون في مسابقةٍ قصيرةِ الوقت) همستُ لصديقي بأنني أسحب سؤالي، إذ أن الاسم لا يعنيني، وإنْ هو إلاّ مجرد سؤال عابر.

لكن سؤالي العويص كان قد أحرجهم، كما يبدو من حركات أيديهم، فأرادوا حفظ ماء وجوههم أمامي، ولذا استمروا في التداول محاولين تذكّره!.

قبل ذلك، كنتُ علمتُ أن منصب الرئاسة عندهم يتمّ تداوله بين سبعة أشخاص (مدة عام واحد لكل شخص) وحين تنتهي الأعوام السبعة، يتداول سبعة آخرون المنصبَ... وهكذا دواليك.

ولم نكن لنتخلّص من ورطة معرفة اسم الرئيس لولا- من نِعَم الله- أنْ اقترح أحدُهم القيامَ بجولة في المدينة، حيث دخلنا منطقة خالية من السيارات تماماً، يكثر فيها المشاة إضافة إلى بعض راكبي الدراجات الهوائية.

وبينما كان يشرح لي صديقي سبب إخلاء هذه المنطقة من السيارات وتخصيصها للمشاة، إذ قطع شرحه ليهتف مشيراً بسبابته: (انظر! انظر! ذاك هو رئيس الدولة! اسمه «إيريك». نعم اسمه «إيريك»)!

التفتُّ إلى حيث أشارت سبابته، فلم أستطع تمييز الرئيس، فسارعت إلى سؤاله: «مَنْ منهم؟» أجابَ:

- راكب الدراجة الزرقاء، تولّى الرئاسة حديثاً.

استطعت تمييزَه فسألته متعجباً: أهذا رئيس بلادكم؟!

قال: نعم.

قلت مندهشاً: إنه متواضع!

قال: مَنْ؟

قلت: رئيسكم.

فقال بنبرة حيادية كأنه يُخبر عن الوقت: لا أدري.

عقّبتُ بحميّة: وكيف لا تدري؟! ألا تراه يركب دراجة؟!

قال: منذ قليل أخبرتُك أنهم منعوا السيارات هنا حفاظاً على البيئة بحيث... قاطعته: عرفتُ ذلك، لكنه متواضع حقاً.

فسألني باستغراب: وهل تعرفه شخصياً!؟

أجبته وقد ضاق صدري: بالطبع لا أعرفه! ولكن لأنه يركب دراجة فلا بدّ أن يكون متواضعاً.

مطّ شفتيه كأنه يستغرب استنتاجي، وجحظتْ عيناي مستغرباً استغرابه!!.

وفيما راح صديقي يتابع شرحه عن أهمية البيئة لديهم، كنت أشعر بتعطّل في تلافيف دماغي، وبخربطة في برنامجها، فلذتُ بالصمت، ناوياً الاستمرار به طوال الأيام المتبقية لزيارتي، مكتفياً بالتصويت بـ «إمممم» على كل حديث يجري أمامي، إذ من شأن أي سؤال جديد أطرحه أن يورطني مزيداً، ويوطّن اليقين لدي من أنني جئت من كوكبٍ بعيد لأزور كوكباً آخر!!.

الرمية الثالثة: رجال حول هتلر

من الأفلام الوثائقية التي شاهدتُها قبل سنوات، ثم ظلت في ذاكرتي إلى اليوم، فيلمٌ قصير (نحو ٣٠ دقيقة) بعنوان: فاشية عادية.

جُمع هذا الفيلم من أرشيف النشرات الإخبارية التلفزيونية التي صَوَّرت الزعيم الألماني أدولف هتلر خلال تنقلاته وزياراته ولقاءاته واجتماعاته المختلفة، وقد اختير عددٌ من اللقطات والمشاهد، وضُمَّ بعضها إلى بعضها الآخر، لتُعْرَضَ متتاليةً كفيلم وثائقي يحمل في طياته دلالات كثيرة.

وقد اكتفى المخرج بتعليقات إرشادية خاطفة وتنبيهات سريعة للمشاهد لا تحمل أيَّ أحكام قيمة أو مواعظ إيديولوجية، أو خطب رنّانة معادية مما

درج عليه الإعلام السوفيتي السابق.

لن أتحدث عن كامل الفيلم. سأكتفي بالتوقف مع مشهد من مشاهده التي تضمّنها، وفيه نرى هتلر يقف فوق أرض جرداء ترابية، يحمل معولاً، وقد شرع بتهيئة حفرة صغيرة تمهيداً لشتل شجيرة، وإيذاناً ببدء مشروع ضخم للتشجير، وفق ما يوضّح المخرج.

وعلى عادة تصوير الرؤساء والمسؤولين بافتتاح مشاريع متنوعة، كان المشهد عادياً تقليدياً، ليس فيه ما يلفتُ النظر. إلا أن المخرج يخبرنا بأنه سيعيد المشهد نفسه، طالباً من الجمهور المشاهد للفيلم تدقيق النظر وتركيزه ليس على شخص هتلر فقط أثناء الحفر، بل كذلك على المحيطين به.

وحين يُمعن المشاهدُ النظرَ فيمن يحوطون بالزعيم (وكانوا من كبار الجنرالات كما تدلُّ رتبُهم العسكرية ونياشينُهم، ومن كبار الساسة في عصره) يتمكّن من التقاط ما فاته تماماً في المشاهدة الأولى، وما يحمل في ذاته الدلالة الأكبر والأخطر عن الزعيم ونهجه السياسي وهيمنته الطاغية في آن معاً.

ففي اللحظة التي يبدأ فيها هتلر بالانحناء والاستواء لنكش الأرض بمعوله.. نرى المُحيطين به، جميعَهم، القريب منه والبعيد عنه، وقد شرعوا- من دون معاول بالطبع- ينثنون مع انثنائه، ويستوون مع استوائه، لكأنما، هم أيضاً، ينكشون الأرض ويهيئون الحُفر، وحين يأخذ الزعيم بطمر الحفرة تتحرك أيادي المحيطين به كما لو أنها تطمر حُفَراً.. حتى إذا ما توقف ومسح جبهته، توقفوا أيضاً ومسحوا جباههم، ثم طفق الضباط منهم بتسوية قبعاتهم العسكرية الرسمية التي كادت تَسقط عن رؤوسهم جراء انهماكهم بالانحناء والحركة، وتسوية نياشينهم التي تشابكت، وأشياء أخرى تحرّكت من مطارحها!!

الفصل السادس- حافظ الأسد

لا يريد أن يحكم- *(رواها: سمير سعيفان)*

حافظ الأسد، بعد نجاح انقلابه، قدم نفسه كزاهد في الحكم، وقام بتسمية شخص مغمور يدعى «أحمد الخطيب» رئيساً للجمهورية، وعين شاباً مغموراً آخر لم يكن قد أدى خدمته الإلزامية هو «متعب شنان»، في منصب وزير الدفاع في حكومة شكلها ورئسها بنفسه. ثم قام بتنظيم مسيرات جماهيرية يومية تطالبه و«ترجوه» أن يترشح لرئاسة الجمهورية. وكانت إذاعة دمشق تذيع باستمرار أغنية «تسلم إيديك يا معلم ... قود السفينة يا معلم»، مما «اضطره» للنزول عند الرغبة الشعبية وقبول تكليف الشعب له بهذه المهمة الشاقة.

وفي ١١ آذار ١٩٧١ نَظَّمَ استفتاءً شعبياً حول شخصه كمرشح وحيد لرئاسة الجمهورية وفاز بنسبة لا يفوز بها حتى الأنبياء لو رشحوا أنفسهم في انتخابات حرة، وهي ٩٩,٧٪. ثم أمسك هذا «الزاهد» بالسلطة حتى مماته، وأورثها لولده من بعده!!!!!!!

ذرائعية أسدية

بعض أقوال حافظ الأسد في مجالسه الخاصة تم تناقلها عبر مَن سمعها، وجميعها تُظهر الطابع الذرائعي لشخصيته.

مثلاً. روى سمير سعيفان، كلاماً يُنْقَلُ عن السفير المرحوم «حمود الشوفي» عن حافظ الأسد، حينما سأله كيف سيكون بإمكانه حكم سورية، أنه قال:

- هناك مَن يريد منصباً سيأخذه. وهناك مَن يريد مالاً سأعطيه. وهناك فئات ستُعارض سيكون مصيرها السجن.

محمد مهدي الجواهري، منافقاً:

سلاماً أيها الأسدُ

سلمتَ ويسلمُ البلدُ

وتسلمُ أمةٌ فَخَرَتْ

بأنك خيرُ مَنْ تَلِدُ!!!

دفاعاً عن الجواهري- *(خطيب بدلة)*

في أواخر سنة ٢٠١٣، كتبتُ- على صفحتي الفيسبوكية- فقرةً عبرتُ فيها عن استهجاني لمدائح الشاعر العراقي الراحل «محمد مهدي الجواهري» لحافظ الأسد، معللاً وجهة نظري بأن صدور المديح عن شاعر كبير له مصداقية فنية عالية، كالجواهري، ينطوي على تضليل كبير للسوريين..

فكتب إلي الباحث الصديق الدكتور (ع.ح) معاتباً، محاولاً تسويغ موقف الجواهري قائلاً:

- سقا الله تلك الأيام... بعد هيمنة المباحث السلطانية على البلاد أيام الجمهورية العربية المتحدة حطّ الجواهري الرحال في «براغ»، ولم يكن مرتاحاً نفسياً... ذهب إلى «المغرب» ومدح ملكها... ولدوافع كثيرة ألقى عصا التسيار في دمشق أيام الهبوط الوطني والنهضوي. ولم يكن أمامه- وهو ساعٍ إلى قضاء بقية عمره في «النعيم»- إلا أن ينشد لحافظ العهد...

في تلك الأيام طار صوابي والتقيتُ بعدد من العراقيين المستائين من قصيدة الجواهري، ولكنهم حاولوا أن يجدوا له الأعذار ومنها أن الشاعر ليس ملزماً، كالثوري، بالسير على سراط مستقيم. وقال لي أحدهم:

- اخلقْ للجواهري جواً شعبياً ثورياً أصيلاً وجماهير تملأ الشوارع، فسيبدع قصائد مما تشتهي نفسك.

جوابي: الحمد لله أن هذا الشاعر المنافق المضلل (الذي كان يتخذ من مديح الطغاة ديدناً) قد مات قبل أن يرى الجماهيرَ السورية العظيمة وهي تملأ الشوارع والساحات، فلو رآها لتَفَنَّنَ في مديح وريث حافظ الأسد المجرم، وحثه على قتل الجماهير بعد نعتها بالرجعية، والتكفيرية، والوهابية..

(ملاحظة: لم أذكر الاسم الصريح للباحث لأنه كتب لي ما كتب على الخاص)..

رُتَب حافظ الأسد

نقلاً عن مصار متعددة.. أن حافظ الأسد كان أحد أفراد الخلية العسكرية البعثية التي تشكلت في مصر إبان عهد الوحدة بعد حَلّ حزب البعث، وكانت الخلية تضمه وصلاح جديد وأحمد المير وعبد الكريم الجندي ومنير جيرودي ومحمد عمران. وأثناء انقلاب ١٩٦٣/٣/٨ كان حافظ الأسد مُسَرَّحَاً من الجيش، فقد سُرِّحَ في فترة الانفصال برتبة «رائد» ونقل إلى وزارة المواصلات مديرية النقل البحري.

وبعد قيام الانقلاب استدعي إلى الجيش برتبة «عقيد» فوراً في ١٠ آذار«مارس» هو وثمانية وثلاثون ضابطاً مُسَرَّحاً آخرون.

عُيِّنَ حافظ الأسد قائداً لمطار «الضمير»، ثم رُفِّعَ ليكون قائد القوات الجوية. وبعد ٢٣ شباط «فبراير» ١٩٦٦ سُمِّيَ وزيراً للدفاع برتبة «لواء».. وأثناء حكمه منحَ نفسَه رتبة «فريق أول»!

تعقيب أول لمحرر الكتاب: يبدو أن عائلة الأسد مولعة كثيراً بالترفيعات، ففي اليوم التالي لإعلان وفاة الديكتاتور الفريق الأول الركن حافظ الأسد بتاريخ (٢٠٠٠/٦/١٠)، وزعت وكالاتُ الأنباء الخبر التالي:

أعلن مكتب نائب رئيس الجمهورية العربية السورية أن سيادة النائب «عبد الحليم خدام» أصدر مرسومين تشريعيين قضيا بترفيع «العقيد» بشار الأسد إلى رتبة فريق، وتعيينه قائداً عاماً للجيش والقوات المسلحة!

وكانت القيادتان القطرية والقومية لحزب البعث الاشتراكي الحاكم في سوريا اجتمعتا اليوم وقررتا- بالإجماع- ترشيح الدكتور بشار الأسد لمنصب رئيس الجمهورية العربية السورية.

لم يستغرب السوريون، يومها، ذلك الحبَّ الكبير الذي يَكُنُّهُ السيد «خدام» لآل الأسد، ولا مسارعته إلى ترفيع بشار الأسد وتنصيبه رئيساً غير شرعي للبلاد، ولكنهم تساءلوا بدهشة:

- متى صار هذا الولد «عقيداً»؟ ألم يكن مشغولاً بدراسة الطب والاختصاص بالعيون؟.. أم لعله كان متطوعاً في الجيش البريطاني حيث كان يتخصص بالعيون ثم ساعده «عمو عبد الحليم» بالحصول على «الكولّيكيوم» أي: معادلة الرتبة على السوري!

تعقيب ثان لمحرر الكتاب: بتاريخ ٢٠٠٠/٧/٣، أصدر بشار الأسد لائحة بترفيعات بعض الضباط، وتنسيق بعضهم الآخر، تضمن ترفيع الرائد ماهر الأسد إلى رتبة عميد، دون المرور برتبتين تحتاجان إلى سنين طويلة جداً لاجتيازها هما رتبتا «المقدم» و«العقيد»!

جماهير كادحة: *(رواها: خطيب بدلة)*

كانت العادة المتبعة في سوريا، حينما يطرأ في البلاد أمرٌ جلل، أن يجتمع أساطين الأسرة الحاكمة مع الحلقة العليا من قيادات الأجهزة الأمنية وقادة الفرق والألوية العسكرية المهمة...

وبعد التداول في الأمر الطارئ، يتوصلون إلى اتخاذ قرار ما... وعلى الفور يُبَلَّغُ القرارُ للقيادة القطرية لحزب البعث العربي الاشتراكي، ولقيادة

الجبهة الوطنية التقدمية، ولقادة المنظمات الشعبية، وهذه الجهات بدورها تصدرُ أوامرها إلى الحكومة، ومجلس الشعب، وأجهزة الدولة المدنية التي تنفذها صاغرة، وعظامُها ترتجف من شدة الهلع.

ومن الحكايات الرهيبة التي جرى تداولها سراً- ولا ندري مدى صحتها- أن حافظ الأسد قد توفي، فعلياً، في اليوم السابع من حزيران «يوليه» ٢٠٠٠، فأوعزت الحلقةُ الحاكمة العليا إلى من يهمهم الأمر بأن «يَسُوقوا» الجماهيرَ الكادحة، في اليوم التالي، إلى «القرداحة» زُمَراً، شريطة ألا يدخلوها، بل يُطلب منهم أن يعسكروا حولها، تحت أشعة الشمس الحارقة، ويناموا، إذا حل الليلُ البهيم، في العراء، أو في الغابات القريبة من البلدة، إضافة إلى أن المفروض أن يبقوا جاهلين بالسبب الذي جيء بهم إلى هذا المكان من أجله..

وقد روى لي أحدُ الذين «سيقوا» إلى هناك في إحدى الزمر أن الحشود الغفيرة التي عسكرت حوالي «القرداحة» كانت تجتاحُ الدكاكين الصغيرة الموجودة في أطراف البلدة، وتشتري منها أيَّ شيء قابلٍ لأنْ يُؤكل، لأنَّ الجهات التي أمرت بـ «سَوْقهم» إلى هذا المكان، قد نسيتهم من دون طعام، للأسف.

على الأقدام- *(رواها: خطيب بدلة)*

على إثر إعلان وفاة حافظ الأسد، رسمياً في صبيحة العاشر من حزيران ٢٠٠٠، بدأ المسؤولون الصغار المنتشرون في كافة أنحاء سوريا «يتفننون» في ابتكار الأساليب التي تعبر عن عميق حزنهم على هذا القائد التاريخي!

ومن أكثر الأشياء ظرفاً، وغرابة، وعجباً، وإدهاشاً، هي أن أمين رابطة «شبيبة الثورة» بمدينة عفرين، بمجرد ما تلقى الخبر الفاجع، بدأ بتسيير المئات من طلاب المدارس إلى القرداحة، على الأقدام، وهم يرتدون

اللباس الأسود حداداً على قائدهم المُلهم، فكانت تلك، برأيي، من أكثر التصرفات ديماغوجية وحقارة في عصر الاستبداد الأسدي، لأن الفتية المساكين كانوا يذوقون الأَمَرّين من آلام المشي، وورم الأقدام، والتعرق، وروائح الآباط والجوارب، فالطريق إلى القرداحة كانت تستغرق بضعة أيام... وكان أمناءُ الشعب الحزبية والروابط الشبيبية في محافظتي إدلب واللاذقية يؤمنون لهم المنامة في المدارس، ضمن شروط أقل ما يقال عنها إنها «لا إنسانية».

ضرورة الفساد- *(رواها سمير سعيفان)*

عمل حافظ الأسد على إشاعة الفساد المتوسط كمكافأة للكادرات التي تخدم في مؤسسات دولته المختلفة، وذلك على حساب عموم السوريين. وأشاع الفساد الصغير، لأن الفساد الصغير يجعل الفسادَ الكبير مقبولاً، مستساغاً، متبنياً شعار «الفساد للجميع!».

وكان من المعروف عن الأسد أنه يُحَضِّرُ لكل مسؤول كبير ملفاً خاصاً به عن فساده ليكون سيفاً معلقاً فوق رقبته كي يستمر في السير وفق مشيئته. وثمة حكايات كثيرة عن ذلك.

استخدم حافظ الأسد هذا السلاح بقوة في اجتماع القيادة القطرية في ربيع ٢٠٠٠، عندما شعر بدنو أجله وضرورة الإسراع بتقديم بشار كوريث له، فقام بشن هجوم قوي على أعضاء القيادة القطرية في أحد اجتماعاته بها مطلع سنة ٢٠٠٠، متهماً الجميع بالفساد، ملوحاً بأن ملفات الفساد جاهزة لكل من يرفض التوريث. ثم اعتقل وزير النقل «مفيد عبد الكريم» ونائب رئيس الوزراء «سليم ياسين» وحُكم كل منهما بخمس سنوات حبس، كما أصدر أمراً باعتقال رئيس الوزراء الأسبق «محمود الزعبي» الذي قيل إنه انتحر عندما جاءت دورية الأمن للقبض عليه، وبحسب تقديرات أخرى أنه نُحِر.

(المحرر: على سبيل التنكيت قالوا إن محمود الزعبي انتحر مستخدماً مشطين من الرصاص)!

شخصية حافظ الأسد- *(رواها: سمير سعيفان)*

قال لي ذات مرة المحامي المرحوم «سميح عطية» عن حافظ الأسد، وقد عرفه شخصياً على مدار عدة سنوات كان فيها وزيراً للمواصلات في النصف الثاني من ستينات القرن العشرين، بينما كان حافظ وزيراً للدفاع:

كان حافظ الأسد يتسم بالهدوء وعدم رد الفعل الفوري، ولكنه يتسم باللؤم الشديد، ويضمر الانتقام، ولا يسامح أبداً، ولا يقبل مَنْ لا يقف معه بدون تحفظ، وهو يؤجل انتقامه إلى الوقت المناسب. وفي النصف الثاني من ستينيات القرن العشرين، حين كان قائداً للقوى الجوية، أو بعد أن أصبح وزيراً للدفاع، سعى لكسب كبار ضباط الجيش عبر تلبية طلباتهم الشخصية، وكانت بسيطة مثل فرز سيارة خدمة للبيت، أو فرز عسكري ليخدم في بيت الضابط، أو يعطيهم مساعدة من صندوق المساعدة العسكرية، أو يدافع عن أخطائهم ومخالفاتهم وتعدياتهم أياً كانت.. فربح المعركة ضد صلاح جديد وحسمها بانقلابه في تشرين الثاني ١٩٧٠.

الأسد.. خط الأحمر- *(رواها: خطيب بدلة)*

في سنة ١٩٩١، حينما كان «حافظ الأسد» ذاهباً بقوات سورية رمزية، تحت إمرة أمريكا، (أمريكا وليس سواها!) لمحاربة قُطْر عربي شقيق، مناضل، لا يقل «مناضَلَةً» عن قُطرنا، بقيادة قائد لا يقل «صموداً»، و«عظمة»، و«تاريخية»، و«إلهاماً»، عن قائدنا، وبينما كان الإعلام السوري يصل الليل بالنهار وهو يضخ إبداعاته والتماعاته القائلة بأن حافظ الأسد لو لم يكن عظيماً جداً لما رضي بالذهاب إلى الغزو تحت هذه الراية الأميركية!.. في تلك الأيام شرعَ بعضُ السوريين، وبالأخص أولئك

المتشبعون بالفكر القومي العروبي، يتململون في مجالسهم، ويتهامسون قائلين:

-يا ساتر.. إن هذا الإعلام الحقير يصور «خيانة» حافظ الأسد للقضية القومية العربية على أنها «بطولة»!.. لقد بلغ السيل الزبى!

وبدأت التقارير تنهمر على الأفرع الأمنية المنتشرة في الجسد السوري وكأنها الشرايين والأوردة.. وبدأ الناس يُسحبون من بيوتهم مثلما تسحب الشعرة من العجين.

يومها.. كَتَبَ أحدُ المخبرين تقريراً أكبر من الشرشف «السبعاوي» بحق اثنين من المثقفين البعثيين، يتضمن أنهما انتقدا السيد الرئيس حافظ الأسد وقالا بحقه كلاماً يدل على حقارتهما وصَغَارهما أولاً، ويدل على عظمته هو، ثانياً.

الإجراء الأولي السريع: اعْتُقِلَ الرجلان، من قبل فرع الأمن العسكري، (مع أنهما ليسا عسكريين، بل إن أحدهما معفى من الخدمة لكونه وحيداً لأبويه!)، وأهينا بالكلام والسباب على نسائهما، وضُرِبَا لا كما تُضرب الحمير، بل أشد وأقسى،.. تلا ذلك (سَوْقُهما) إلى تدمر، حيث السجن الرهيب الشهير، وَوُضع كل منهما في «منفردة» مساحتها أربعة أمتار مربعة، لمدة سنة، ومع انتهاء السنة سيقا إلى سجن صيدنايا الجميل، فأمضيا هناك سنة أخرى.. ثم خرجا.. وكل أرض شربت ماءها.

تسعيرة الحد الأدنى- *(رواها: خطيب بدلة)*

حينما علم الشيخ المتنفذ «نون نون» بأن ابنه «عين» مطلوب لشعبة المخابرات العامة بدمشق، سارع إلى عقد اجتماع عائلي أجرى فيه تحقيقاً مصغراً مع ابنه، ليعرف ما عسى أن تكون تهمته.. ولكن الفتى لم يستطع أن يتذكر أنه ارتكب فعلة يمكن أن يؤاخَذ عليها أمنياً.

قال الشيخ: حسناً.

وقرر أن يختفي «عين» تحت طقاطيق الأرض لا يخرج منها حتى يعود هو من جولته.

يدخل الشيخ «نون نون»، عادةً، إلى أي فرع، أو هيئة، أو مبنى، تابع للنظام مباشرة، ومن دون تفتيش أو سؤال عن الجهة التيْ يقصدها.. وقد بدأ جولته في مدينة إدلب، فروع المخابرات المتوفرة مع فرع الحزب، ثم تابع طريقه إلى الشام، زار معظم الشُّعَب والفروع، والتقى عدداً كبيراً من الضباط الذين عليهم القيمة، ومن هناك سافر إلى القرداحة، ثم إلى الشام، ثم إلى إدلب، ثم إلى القرية..

خلال غيابه كانت قلوب امرأته ووالدته وحماته وأولاده وإخوته وأخواته كلها على نار، وكانوا يُجرون اتصالات مع معارفهم هنا وهناك، وتصلهم أخبار متضاربة تنص على أن تهمة «عين» خطيرة جداً، وممكن يروح فيها عشر سنين أو خمس عشرة سنة في تدمر، أو ربما- لا سمح الله- ياخد إعدام!..

في لحظة وصول الشيخ «نون نون» القرية كانت عائلته كلها محتشدة أمام الباب، وبمجرد ما وصلت سيارته تحركوا نحوها متلهفين.. سدوا أمامه الطريق وقالوا له:

- بَشِّرْ!

قال: بسيطة. حضرة ابننا المحترم «عين» حاكي لرفاقه نكتة بايخة عن السيد الرئيس حافظ الأسد. والشباب كاتبين فيه تقرير. والتقرير لو كان من الورق كنا شقيناه واعتبرنا أن الله ما خلقه، ولكن المشكلة أن المخبر حويط، مسجل النكتة على المسجلة، والرئيس نفسه، تخيلوا، سمع التسجيل بنفسه!!.

- أي. وأيش بدنا نساوي؟ (قالوا بصوت واحد).

قال: بسيطة. أخذنا له حكم بالحد الأدنى. غداً أصحبه إلى فرع أمن الدولة بإدلب وأسلمهم إياه.. ينفذون به الحكم، ثم يعود.

قالوا له: والحد الأدنى أيش يعني؟

قال: ستة أشهر في المنفردة. وهذه التسعيرة لا تعطى إلا لمن كان محسوباً عليهم، مثلي!

هنا انفرجت أسارير الجميع.. وأخت الفتى المطلوب، من دون أن تدري، وجدت نفسها تزغرد!

سوريا لمين؟- *(رواها: عبد الناصر شيخ محمد)*

آثار التعذيب كانت واضحة على جسد «نعيم» وكلماته.. أكثر ما لفت انتباهي هو تغيرُ لهجته من شخص محايد إلى شخص ثائر.. فنعيم عضو عامل في حزب البعث ومن القياديين أيضاً..

حكى لنا نعيم حكايات كثيرة ومرعبة مما شاهده في معتقله، منها:

في آخر جلسة تحقيق- وكان يديرها شخص يدعى أبو حيدر- أشبعوني ضرباً ورفساً وشحطاً.. إلى أن خطرت لي فكرة، فاستجمعتُ قواي وقلت لأبي حيدر بصوت منخفض: والله يا سيدي إنتوا هيك عبتغلطوا، لأنو عم تعاقبوا الناس المؤيدين إلكم.

صرخ أبو حيدر: شو قصدك ولاه؟

قلت له: يا سيدي أنا بعثي عضو عامل وأمين فرقة سابق..

هنا جن جنونه، ورفسني بالبوط العسكري على وجهي عدة رفسات متتالية، وبعدها جلس على الطاولة وهو يلهث وقال: في سوريا ما في شي اسمه حزب البعث يا عرص.. ما في شي اسمه جبهة وطنية يا خنزير.. ما في شي اسمه شبيبة الثورة يا كر.. ما في شي اسمه طلائع البعث يا

ديوث.. في سوريا في شي اسمه بيت الأسد.. فهمت ولا لأ ولاه منيوك؟

قائد يحب الأطفال - *(رواها: وائل زيدان)*

أذكر، بعد استضافة محافظة حماه لمهرجان طلائع البعث السنوي، أصرّ عبد الكريم المعّاط عضو مجلس الشعب أن يزجّ قريته النائية /أم العمد/ في هذه الاحتفالية. فطلى الصخور ورجومَ الحجارة على مداخلها بالأبيض، وكان ثمة سور طيني بارتفاع أقل من متر يطل على الشارع الرئيسي للقرية وهو بالأساس سور لإسطبل غنم. برز منه يومها وجهُ طفل يستندُ بكلتا يديه وهو شارد بشيء ما، فيما الذباب يحطّ على وجههِ دون أن يكشّه. المفارقة كانت هي اشتراك وجه الطفل البائس مع ما هو مكتوب بعناية على سور الإسطبل في مشهد واحد. حيث وبخط الرقعة كُتِبَ:

- الْعَبُوا مع الأطفال وغنّوا معهم، تعلّموا منهم وعلّموهم- من أقوال القائد الخالد حافظ الأسد!

قصة من (دويرينة)- *(رواها: الطبيب سين بن صاد)*

خلال زيارتي لمشفى الأمراض العقلية بقرية «دويرينة» الواقعة إلى الشرق من حلب قبل حوالي ١٥ سنة، لزيارة ابن عمي المريض نفسياً، وقعت لي حكاية مُعْجِبة:

سَمَحَتْ لي إدارةُ المشفى، من منطلق الزمالة في مهنة الطب، بلقاء المرضى والتحدث إليهم بحرية. لفت نظري أحدُهم من مدينة «أعزاز». كان ذا ثقافة عالية، ومقدرة استثنائية على الحوار، حتى لقد خلتُه فيلسوفاً، أو مفكراً كبيراً، ودهشتُ لوجوده في «الدويرينة»، وقلت لنفسي إن هذا مكانه في الجامعة، أو على رأس إدارة مؤسسة أكاديمية، أو شيء من هذا القبيل.

المهم.. تركته وذهبت إلى مدير المشفى، وهو طبيب مختص بهذا

النوع من الأمراض، وسألته عن حال المريض، وسبب وضعه في الدويرينة..

لم يجب المدير بأي كلام. بل أمر بإحضار المريض. وحينما مثل أمامنا قال له:

- يا فلان. إذا خرجت من هنا، ماذا ستعمل؟

قال: سأقتل حافظ الأسد وأصبح رئيساً لسوريا!

قال له المدير: شكراً.

وأمر بإعادته إلى القاووش..

تبادلنا أنا والمدير نظرة تحتانية، وبعد قليل استأذنت وخرجت.

بين رفعت الأسد وعز الدين ناصر - *(رواها: عدنان عبد الرزاق)*

كان حافظُ الأسد يستخدم أخاه الشقيق رفعت «أبا دريد» كذراع فتاك، وكانت مجالات استخدام هذا الذراع متعددة، منها إيقاع الرعب في نفوس السوريين من خلال ممارسات عصابته التي عُرفت باسم «سرايا الدفاع»،.. وإبادة سجناء تدمر، وتدمير أحياء كاملة من مدينة حماة، وتهديد معارضي سياسته، أو الاعتداء عليهم.

وفي إحدى المرات، كان حافظ منزعجاً من عضو القيادة القطرية لحزب البعث المدعو «عز الدين ناصر». وفي اجتماع القيادة القطرية للحزب وقعت الحادثة التالية:

طرحَ القائد حافظ الأسد موضوعاً إشكالياً يتعلق بمكتب العمال الذي يرئسه الرفيق «عز الدين ناصر»، وقال له: ما رأيك يا رفيق عز الدين؟

فما إن بدأ «عز الدين» بالكلام حتى بدأ رفعت يشاكسه، ويقاطعه، ويقول له: مو صحيح هالحكي.

حاول الرفيق «عز الدين» أن يرد، أن يدافع عن رأيه خوفاً من لوم القائد حافظ له، ورفعت مستمر في تكذيبه وتسخيف رأيه. وبعد قليل علا صوت رفعت، وبدأ بإطلاق الشتائم والسباب فيه وجهه.. ثم لكمه، وضربه بالكرسي..

وقف الجميع مبهوتين، واتجهت الأنظار نحو الأمين القطري.

وقف حافظ الأسد بكل هدوء، وثقة، وقد أدرك أن رسالته وصلت لعز الدين ناصر وغيره من أعضاء القيادة القطرية، وقال لرفعت:

- أتضربه؟ وأمامي؟ حسابي معك بعدين.

وغادر المكان.

(وانتهت الحكاية هنا بالطبع).

قائد فذ- *(قصة فنية رواها: خطيب بدلة)*

في سنة من السنين، وبينما كانت القيادة القطرية لحزب البعث العربي الاشتراكي تقيم مهرجاناً خطابياً بمناسبة الذكرى الـ (ما بعرف كام) لانطلاق الحركة التصحيحية المباركة، حصل الأمر التالي:

كان القائد حافظ الأسد «شخصياً» يحضر المهرجان، وكان الخطباءُ- وهم رؤساء الأحزاب المُعَارِضَة أو مندوبوهم!-.. يتقدمون من المنصة، وكل واحد منهم «يستلُّ» ورقة أكبر من الحصيرة التسعاوية ذات السجف، ويفردها، ويشرع بقراءة المدائح المطولة لهذا القائد التاريخي، وكانوا، جميعاً (باستثناء صفوان قدسي المنافق المُفَوَّه) يرتكبون من الأخطاء اللغوية «النحوية والبلاغية» ما يشيبُ لهوله الولدان! وكان واحدُهم، حينما ينتبه للخطأ الذي اقترفه، يرتبك، ويتظاهر بأنه متماسك، ويقول (عفواً.. لقد أخطأت!.. ويصحح الخطأ بخطأ أكبر وأدق رقبة!).. والكل يضحكون حينما يرون أن القائد «عَزَّ نَصْرُهُ» قد ضحك!!..

وربما كان حافظ الأسد هو الوحيد الذي انتبه إلى التناقض الكبير المُعَبَّر عنه في هذا المهرجان، وهو أن الخطباء، كلهم، قوميون، عروبيون، اشتراكيون، تقدميون، يَدْعُون إلى الاستماتة في سبيل الحفاظ على لغة الأجداد بوصفها من العوامل الرئيسية للوحدة العربية! بينما هم- في الواقع- يتحدثون مثل مواطنينا السوريين الأعزاء المنحدرين من أصل أرمني!

يومها لم نسمع، نحن المواطنين السوريين أي تعليق من القائد، ولكننا شاهدنا، بعد أيام قليلة، كهلاً متعصباً للغة العربية يُدْعى يوسف الصيداوي، يطل علينا من الشاشة، وقد خصصت له القناةُ الرئيسية برنامجاً يومياً لتصحيح اللغة، وربما لتعليم الخطباء- والناس الذين قد يصبحون في يوم من الأيام خطباء- كيف تكون الخطابات على أصولها!

وسمعنا عشاق القائد وهم يشفطون أرياقهم من شدة التأثر، ويقولون باستمتاع:

- هذا قائد عظيم أكثر من الحد المحمول!.. يا رجل!.. حتى اللغة العربية لم تسلم من إنجازاته وعطاءاته!

لقاء مع حافظ الأسد- *(رواها إياد جميل محفوظ نقلاً عن المربي الفاضل د. فاخر عاقل).*

د. فاخر عاقل: في يوم من الأيام.. تلقيت اتصالاً هاتفياً من القصر الجمهوري وطلب مني محدثي ألا أغادر المدينة إطلاقاً في الأيام القليلة القادمة لأنه يوجد لدي مقابلة مع الرئيس «حافظ الأسد».

وفعلاً أبلغوني، في اتصال لاحق، أن موعد اللقاء يوم كذا عند الساعة الثانية عشرة ظهراً وفي القصر الجمهوري طبعاً.

قبعتُ في غرفة السكرتارية أنتظر قبل نصف ساعة من الموعد المحدد لي.. تلقيت خلالها تعليمات تفيد بأن الزمن المقرر لزيارتي هو ربع ساعة

فقط.. ولكن عندما بدأت مقابلتي معه لم تنته إلا بعد خمس وتسعين دقيقة.

- ما رأيك بالجامعات السورية؟

كان ذلك السؤال الأول الذي طرحه علي الأسد بعد أن رحب بي بعبارات غاية في اللطافة.

أجبته فوراً دون تردد:

- لا تنفع.

هتف بتعجب: ماذا تقول؟

كررتُ بلهجة حاسمة: نعم سيدي الرئيس.. لا تنفع.

ولكن التقارير المتوافرة لدي تفيد بأنها تمضي قدماً نحو التقدم والازدهار.

هتفت بكلمات صادقة: إنهم يغشونك!!

طفا علي عينيه مزيج من استياء ودهشة وهو يتساءل: كيف؟

قلت: يا سيادة الرئيس اسمح لي أن أشرح لك.. فالأمر يعود للأسباب التالية:

أولاً: الموفدون للدراسات العليا لا يتم اختيارهم تبعاً لكفاءتهم وتفوقهم بل تبعاً لمقاييس ومعايير تحددها القيادة السياسية المسؤولة عن التعليم العالي، وبهذا تُمنح الفرص لمن لا يستحقونها.

ثانياً: معظم الطلاب الذين يجري اختيارُهم يُبعثون إلى جامعات الدول الاشتراكية الصديقة، ويعودون بعد سنوات قليلة بشهادات فارغة، تُمنح لهم دون أدنى جهد أو تعب.

ثالثاً: هؤلاء الخريجون لهم الحق كله، بعد عودتهم، في العمل بصفة

أساتذة جامعيين في كليات الجامعات السورية ولمدة أربعين سنة.

فإذا رغبنا في البدء بعملية الإصلاح، بنيّة صادقة، منذ هذه اللحظة، فنحن بحاجة لأربعين عاماً من العمل الجاد لتصحيح مسار التعليم في الجامعات السورية.

لستُ أدري لِمَ قلت هذا الكلام لـ (حافظ الأسد).. كان لدي إحساس بأن هذا الكلام يجب أن يُقال له.. حتى ولو كان شعاره هو (لا حياة لمن تنادي)، أو بالأحرى: (لا تنادِ لمن لا حياة له).

نهج الوالد- *(رواها: سمير سعيفان)*

كانت أشهر الصفقات صفقة الهاتف الخليوي عام ٢٠٠٠ و ٢٠٠١ حيث مُنِحَتْ الرخصتان الوحيدتان لشركتين غير مؤهلتين، الأولى «سيريا تيل» لرامي مخلوف والثانية لـ «إنفستكوم» التي يملكها اللبناني نجيب ميقاتي، وأعطي نصفها لرامي مخلوف على نحو غير معلن.

كانت هذه الصفقة هي السبب الرئيس وراء اعتقال عشرة شخصيات في أيلول ٢٠٠١. فقد اعتقل عشرة من نشطاء ربيع دمشق اعتقالاً تعسفياً وحُكم عليهم بالسجن لمدد بين سنتين ونصف وعشرة أعوام. وعشرة أعوام على البروفيسور عارف دليلة، وخمسة أعوام على عضو مجلس الشعب السابق ورجل الأعمال رياض سيف، وخمسة أعوام على عضو مجلس الشعب محمد مأمون الحمصي، مع التجريد من عضوية مجلس الشعب ومن الحقوق المدنية، وخمسة أعوام على المهندس فواز تللو، وثلاثة أعوام على الطبيب كمال اللبواني، وثلاث سنوات على المحامي حبيب عيسى وثلاث سنوات على حبيب صالح وعامين ونصف على المحامي رياض الترك، وعامين على المدرس المتقاعد حسن سعدون، ولم يكن ثمة ذَنْب لهؤلاء سوى أن طالبوا بالإصلاح السياسي وبمزيد من الحريات العامة بما فيها حرية التعبير والتنظيم ومكافحة الفساد، خاصة وأن صفقة امتيازيّ

الموبايل كانت جارية في تلك الشهور. وقد سلط هؤلاء العشرة الكثير من الأضواء عليها، وأصدر رياض سيف تقريراً مفصلاً عن هذه الصفقة الفاسدة، ويقال بأن البروفيسور عارف دليلة قد أعد له التقرير.

لقد كانت هذه الاعتقالات الوثيقةَ الرسميةَ التي أظهرت زيف الوعود الغامضة التي قدمها بشار الأسد حول التغيير والانفتاح في خطاب القسم في ١٧ تموز ٢٠٠٠ بعد ترتيبات وراثة الحكم عن والده المتوفى في ١٠ حزيران ٢٠٠٠، وبينت أن أسس السلطة التي أرساها حافظ الأسد لم ولن تتغير.

الى الأبد- *(رواها: هشام الواوي)*

كان جميعُ الضباط في الكلية العسكرية يرددون أن الاجتماع مقدس، (يقصدون الاجتماع الصباحي).

عند ترديد الشعار وإجراء التفقد اليومي كان التشديد على «المقدس» مفرطاً والالتزام به كذلك. كنا ندخل إلى الساحة بطقوس عسكرية محلية الصنع قوامُها الهتاف بأعلى صوت ممكن، ثم ننغرس مثل العصي الجرداء في الساحة المعبدة.

يقترب اللواء مدير الكلية بفمه إلى مكبر الصوت حتى يكاد يبتلعه ويصرخ بقوة الرئتين المنتفختين: «قائدنا الى الأبد»؟

نردد بتلقائية اللازمة المضبوطة بالوزن والقافية «الأمين حافظ الأسد»!

يتكرر النداء ثلاث مرات بالضبط، وكأن الرقم مأخوذ من لاهوت فيثاغورث الرياضي الذي يقدس الأرقام الأولية ويعتقد أن فيها سراً من أسرار الخلود.

الترديد الثلاثي للشعار الأبدي عند الصباح لم يكن ترديداً فارغاً وإجرائياً، لأنه تحول إلى هَمّ وطني شامل ذي طبيعة مؤسساتية لها «حباشات»

وتفريعات، منها التماثيل، والهتافات، والخطابات، والملصقات، والتجمعات، والمسيرات، والمحاضرات، وأيام العمل الطوعي.. وما ذاك إلا لتأكيد مفهوم «الأبدية» وتعميمه.

تحت وطأة هذا الإصرار أصبحت التماثيل أكبرَ، وبوضعيات أكثر خطورة وجدية. واستطالت قصائدُ نجم الدين الصالح، وزاد عددُ أبياتها، وتواجُدُ الصفاتِ النبيلة للرئيس فيها أكثر.. واستنفر صفوان بهلوان طاقاتِه الموسيقيةَ كلَّها في خدمة صوت ميادة حناوي لإبداع قصائد المديح التأبيدية، بتناغم طبيعي، وكأنه عملية «حفر وتنزيل» وجودية.

كلمتا «الأسد» و«الأبد» جاءتا، على الوزن والقافية، لتبرهنا أن الأبدية «صيرورة» لا مفر منها.

إن مبتكر هذه الفكرة لم تعجبه منتجات عصر التحجر إذ ابتكرت عقليةُ القيادة القطرية في المؤتمر القطري «العادي» الخامس شعار «قائد المسيرة».

لقد كان المؤتمر عادياً، ولكن الشعار لم يكن كذلك؛ فقد التفَّ (بحسب نتائج المؤتمر) الشعبُ حول القائد ونفحه هذا المنصب الرفيع الذي يبدو سياسياً واجتماعياً ويحمل مضامين كهنوتية أيضاً تجعل حاملَه مرجعاً لكل كبيرة وصغيرة في البلاد. ولكن عيبه أنه بقي بعيداً عن فكرة الأبدية التي جاءت لاحقاً على يد المُنَظِّرين الجدد الذين قرؤوا تاريخ الإقليم، واطّلعوا على مسيرة جلجامش لاكتساب الخلود، وقرروا أن هذا الرئيس «يبز» جلجامش بمراحل ومراحل.. لذلك سيطوي الزمن كما يطوي منديله ويضعه في جيبه الصغير.

الأبدية أو الروزنامة التي لا تنتهي وريقاتها أصبحت منهاج عمل موظفياً للدولة، تسمو على كل شيء، وتمد لسانها للدستور، وتسخر من السنوات السبع القابلة للتجديد.

الدستور، بالذات، هو من أكثر مؤسسات الدولة التي تعرضت للإهانة والاحتقار. شعار الأبدية كُتب بالدهان «الزيّاتي» ذي الجودة العالية على منصة الكلية العسكرية بطول خمسين متراً، يجلس تحته عريف حفل التخرج والراعي الرسمي والحضور ويقف بمواجهته الطلاب العسكريون ولا يتوقفون عن قراءة الشعار المرة بعد المرة هرباً من مراسيم حفلات التخرج المملة.

في اليوم التالي لوفاة حافظ الأسد كان الشعار في مكانه يتربع على طول الخمسين متراً. عندما التأم الاجتماع «المقدس» في موعده بالضبط، دخلنا إلى الساحة منكسي الرؤوس. وكالعادة اقترب مدير الكلية من مكبر الصوت حتى كاد أن يبتلعه، وتحركت الكتل الدهنية المتجمعة تحت ذقنه وصاح:

«قائدنا الى الأبد»؟

لم يتمالك المدير العاطفي أعصابَه فأجهش بالبكاء، واستمع الى نشيجه الحار كل أهالي منطقة الوعر الحمصية. ولكننا وكالعصي الجرداء تماماً. رددنا اللازمة:

- الأمين حافظ الأسد.

وكما فعل مديرُنا العاطفي أجهشنا، وبشكل جماعي، بالبكاء، ما عدا البعض الذين كانوا يتسلون بقراءة الشعار المكتوب بالدهان الزيّاتي وبطول خمسين متراً ريثما تنتهي طقوس الحزن الرسمية.

مات الأبد- *(روتها: هالا محمد)*

في صباح العاشر من حزيران عام ٢٠٠٠ رنّ جرس هاتف بيتي. صديق عزيز سألني بجدّية، وبصوت مستقرّ كي لا أخاف، وبطرف رجاء في رنّة الصّوت كي لا أسأل أيّ سؤال على الهاتف:

- هالا وين إبنكْ؟!

قلت: في المدرسةْ.

قال: طيّب. لازم يجي فوراً إلى البيت.

شعرتُ أنني يجب ألّا أسأل أيّ سؤالْ.

قلت بسؤال غير مباشر: سأخرج فوراً وأعيده !

قال: لا. أنا أبعت لك شوفوري. يوصلكِ ويرجعكْ ...يتصل بكِ مجرّد وصوله.

خلال عشر دقائق... كنتُ في السّيارة.

في الطريق: أبو رمانة، ثمّ في منطقة المالكي... كان ذلك يوم الحشر. ضباط، وصف ضباط، وعسكر، ينهمرون في الشوارع والساحات. يتراكمون يتراصّون ويشكلون على الأرصفة خطّاً متّصلاً لا يمكن اختراقُه من قبل المُشاةْ. كانوا ينصبّون بغزارة في الطريق المؤدي من القصر الجمهوري إلى الشوارع ....

لاحظتُ أنّ ضبّاط شرطة المرور هم من يدير حركة المرور وليس العسكر.

أوقفونا. قال ضابط مدجّج: وين؟

رد عليه السائق: ابنها للمدام مريض، خبروها من المدرسة، بودنا ناخده إسعاف.

أعطانا إشارة:.. روحوا.

وصلنا باب المدرسة ...

سيارات «المارسيدس» كانت لاطئة على الإسفلت أمام المدرسة.. لكي تعيد أبناء المسؤولين إلى بيوتهم.

الرعب كان على الوجوه.

لم أتحدّث بحرف مع السائق احتراماً لصديقي. قلت لنفسي! كان بوسعه أن يرسل لي معه رسالة شفهية أو مكتوبة. شي أتطمن.

نزل السائق وطلب ابني بالإسم ...

اندهش أولاد المسؤولين والحارس، من أنني أنا أيضاً عندي واسطة.

حضر ابني بعد لحظات، كان مفتوناً بأمّه التي استطاعت أن تعطيه هو أيضاً هذا «البريستيج»، لو مرّة في العمر!

في السّيارة، نطق السّائق للمرة الأولى: ان شاء الله نوصل البيت قبل ما يقطعوا الطريق. راح تنقطع الطرقات كلها.

قلت له: والأولاد الباقون في المدرسة؟!

قال: شو دخلنا فيهم؟ إذا سمحتِ مدام..

نظر إليّ ابني بحذر وفي عينيه السر.

نظرت إليه.

قال بمرح غريب، لا يتناسب مع الحالة: ماما... بتعرفي مين ماتْ اليوم؟..

قال السائق: عمّو. هس. هون ما في حكي .

صمتنا... والتصقتُ بابني.

صار ابني يرسم بإصبعه أحرفاً على يدهِ الصغيرة، ولكنني قرّرت ألا أقرأ.

الطريق كان خانقاً، تضاعفتْ أعدادُ العسكر، كتلة صمّاء مرعبةْ مسلّحة. وصلنا باب بيتنا.

تمنيّتُ للسائقَ السّلامةْ ...

صعدنا الدرج.

أغلقنا البابْ. أقفله ابني بالمفتاحْ ...

أخذني إلى غرفة في عمق البيتْ. بعيدة عن الباب وعن العين السحرّية فيه... وقال، وقد استعاد مرحه: ماما مات حافظ الأسد!

انسطلتْ... انذهلتْ... وقالت لي نفسي في اللاوعي كي لا يسمعنا أحد:

ماتَ الأبدْ؟!

نظرتُ لابني... وسألتهُ: مين خبرك !

قال: ماما رنّوا جرس الإنذار بالمدرسة، فكّرنا غارة إسرائيلية!!.. بعدين، بيت عبد الحليم خدّام إجوا عالمدرسة... أخدوا ولادهم على بكّير، قالوا لنا إن جدّهم عبد الحليم خدّام هوّة رفيق حافظ الأسد، هنّن خبّروا المدرسة. أكيد بتعرفي مين عبد الحليم خدّام ماما.

قلت له: سمعانة فيه، واحد عنده مطاعم ومقاهي وسياراتْ وبيوت كثيرة في الشّامْ.. وعنده كمان شركة إنتاج تلفزيوني... بس مو هادا المهم هلأ ابني.

اقترب مني، ونظر إلي نظرة ولد لم يكن يعرف أمه على حقيقتها من قبل. وهمس: لكان شو المهم؟

قلت له: ماتَ الأبد..

الفصل السابع- كوميديا الاستفتاء الرئاسي

ملاحظة: مع أن «حافظ الأسد» هو أكبر عدو للإسلام والمسلمين فإن إعلامَه كان يصرُّ على استخدام المصطلح الإسلامي بمناسبة الاستفتاء عليه: «تجديد البيعة»..

المادة ٨٤ من الدستور السوري لعام ١٩٧٣ (المعروف باسم دستور حافظ الأسد).

١. يَصدر الترشيح لمنصب رئاسة الجمهورية عن مجلس الشعب بناء على اقتراح القيادة القطرية لحزب البعث العربي الاشتراكي ويُعْرَضُ الترشيح على المواطنين لاستفتائهم فيه.

٢. يجري الاستفتاء بدعوة من رئيس مجلس الشعب.

٣. يتم انتخاب الرئيس الجديد قبل انتهاء ولاية الرئيس القائم في مدة لا تقل عن شهر واحد ولا تزيد عن ستة أشهر.

٤. يصبح المرشح رئيساً للجمهورية بحصوله على الأكثرية المطلقة لمجموع أصوات المقترعين فإن لم يحصل على هذه الأكثرية رشح المجلسُ (غيرَه)! وتُتَّبَعُ بشأن ترشيحه وانتخابه الإجراءاتُ نفسها على أن يتم ذلك خلال شهر واحد من تاريخ إعلان نتائج الاستفتاء الأول!

يوم الاستفتاء- *(روتها: شذى بركات)*

كانت الدوائر الحكومية وغير الحكومية معطلة في ذلك اليوم العظيم. حملتُ طفلي ذا العامين، فالروضة معطّلة، ولا بد أن آخذه معي إلى

الشغل. قلت لنفسي: مؤكد أنني سأستطيع تدبر أمره داخل الصف، فهو لطيف ويألف الآخرين، وأظنه سيبقى ساكتاً ريثما أنهي دروسي.

عبرت بنا الحافلة «ساحة الشيخ رسلان» حيث دُفنت خولة بنت الأزور شهيدة على أسوار دمشق، وإلى يسار الطريق بأمتار قليلة قبرُ أخيها ضرار بن الأزور الذي استشهد على أبواب دمشق.

السور صامت، والقبور صامتة، والشارع يكاد أن يفرغ من المارة، إن الحدث جلل.. ثم ما لبثنا أن عبرنا «باب شرقي» حيث تدلّى بطرس أحد حواريّي عيسى عليه السلام من نافذة البرج وهرب من جحيم السجن والكفر والجنون.. عبرنا ساحة المطار التي تحمل اسم «ساحة حسن الخرّاط».

كلّ ما حولي ينطق، لكن الناس صامتون، تنظر في عيونهم في صبيحة هذا اليوم فتجد أنها تعبر إليك من فراغ بعيد.. أياد خشنة معقودة في الحجور.. ونظرات تائهة تحدّق في الفراغ.

أظنّها نسيت الكلام...

لكن الصخب يصل إلى مسامعنا عبر ذلك النسيم البارد الصباحي، وكلما اقتربنا من المدرسة ازداد الضجيج ارتفاعاً. عبرت الشارع مسرعة وأنا أحمل طفلي، أكاد أرى الطبل والدبيكة، وما أكثرهم!!..

ينظر إليّ طفلي بعينيه الجميلتين مستغرباً، بل متسائلاً، ويلتفت إلى مصدر الموسيقا الهادر، إنها باحة مدارس أبناء الشهداء. السور الحديدي يكشف ما بداخله.. حلقة دبكة من العاملين والعاملات في المدارس، يتوسطهم رجل قصير أصلع يسند الطبل على كرشه الضخم.. ويضرب بقوة وهو يتمايل على أنغام طبله، كم تمنيت لو أملك كاميرا تصور ذلك المشهد الخرافي: (سوريا بلدنا، حافظ يا أسدنا)! (سوريا بلدنا، أبو باسل قايدنا).

ضحكت في نفسي، كيف يحمل الطبل على كرشه الكروي ويقرعه ولا يصيب كرشه؟؟ حقاً، إنه حاذق.

تسمرت قدماي عندما لمحتُ رئيس الهيئة «اللواء محمد الرفاعي غنيم»، ذا الهيبة المنقطعة النظير، يترأس حلقة الدبكة ويلوّح بسبحته في الهواء فرحاً.. بينما يمسك بذراعه مديرُ الثانوية «أسامة حيدر» بوجهه الترابي وبسمته الصفراء، وتليهما «رولا»... وما أدراك ما رولا! ضاربة الآلة الكاتبة تلتصق بجسد المدير النحيل، بينما تهتز بجسدها الممتلئ.. يمسك ذراعها «حيدر» مسؤول الوحدات السكنية، يا سلام... تناغم يجعل أعضاء العاملين والعاملات تهتز بتناسق وفرح ليس له مثيل... حقاً لو كنت أستطيع الخروج عن وقاري لكتبت شيئاً مطابقاً للمهزلة التي تدبك اليوم..

تابعت المشي بذهول وأنا أحضن طفلي الخائف بشدة، وعبرت الممر، علي أن أتجاوز أعضاءَ الهيئة التعليمية الذين سبقوني إلى الدبكة.

رجال ونساء، ضباط وصف ضباط وعساكر... وموظفون وموظفات يصفقون ويضحكون..

على فكرة، من أعاجيب هذه المدارس أن عدد الطلاب آنذاك ٢٦٧ طالب وطالبة موزعين على ثلاث مدارس في حلب ودمشق، بينما بلغ عدد العاملين على خدمتهم وسرقة أقواتهم (٢٤٠٠) موظفاً وموظفة!!... فلماذا لا يدبكون؟!

عبرت الممر الأخير في الحديقة لأجتاز الباحة الأولى، إلى قسم «الثانوي» حيث أعمل.. كنت أخشى أن يسحبني أحدُهم إلى حلقة الدبكة مع البقية، ويدقني الحماس، و... سأكون نكتة الموسم!

تنفستُ الصعداء حين ولجت المبنى، وصعدتُ مسرعة إلى الطابق الثاني، الحمد لله. رن الجرس وأنا في المدرسة. دخلتُ غرفة المدرسين

مع طفلي، واستقريت في صفي قبيل دخول الطلاب. وحين بدأ الطلاب بالدخول تعالت أصوات الدهشة وبدت السعادة على وجوههم حين رأوا طفلي الصغير يجلس على الطاولة.

- آنسة هادا ابنك؟

- شو اسمو؟؟

- قديش عمره؟؟

تحلّق حولي الطلاب فرحين وهم يطرحون الكثير من الأسئلة ويلمسون ابني بأيديهم ويضحكون لرؤيته. ثم استقرّ النظام في الدرس وشرعت بإعطاء الدرس. ولكن، ما لبث أن قطع الاسترسال في الشرح دخول أحد الموجهين ليقول لي:

- آنسة... يمكنك أن تذهبي للاستفتاء، وأنا سأبقى في الصف لحين عودتك.

شعرت بالارتباك الشديد للحظات. ظننت أن الأمر دبكة وهزّ كروش وأرداف فقط.. لكن الآمر بالنسبة لي طلع أكبر. سألته:

بحسن أترك ابني عندك في الصف؟ ترى عاقل ما بيبكي..

قال: طبعاً طبعاً.

غادرت الصف مسرعة ونزلت الدرج. هل أدخل إلى الحمام ثم أعود وأقول له استفتيت؟؟ لا يمكن، لأن علي أن أخرج خارج المبنى والجميع يراقب، وبعض المعلمين يسيرون خلفي.

الله يلعنكم. هلق صوتي الانتخابي صار بيقدم وبيأخر؟ النتيجة معروفة، تسعة وتسعينات بالمية، مبينة. هل يوجد مرشّح آخر؟ طبعاً ما في. مستحيل. من بيسترجي ينافس الأب القائد الرمز الملهم الضرورة؟؟ هادا القائد إلى الأبد، شوبنا؟

وجدتُ قدميَّ تقودانني خارج المبنى لأتجه إلى الحديقة الأمامية حيث الاحتفال والطبل، وما يزال المطرب الثوري يصدح بقوله:

حافظٌ. إذا صرخ الشرفُ العربي بنخوته.. إعصارْ

حافظٌ... أحبّ اللهَ والحريةَ والأحرارْ

وقال إني حارسٌ، أحرسُ فجراً عربياً.. وأحمي نهارْ

يخرب بيتك من أين جئت بكل هذه الصفات يا منافق؟

ما شاء الله كان. ما زال الشباب يدبكون، والتصفيق والجنون.. دلفت إلى صالة الاستقبال الكبيرة التي تجلس في صدرها موظفة أمامها طاولة يجثم فوقها صندوق الاقتراع الرهيب. كان أمامي شاب وشابة، جرحا إصبعيهما بالدم، وختما على ورقة الانتخاب نعم بالدم.. نعم بالدم..

تقدمت باتجاهها واصطنعت ابتسامة. أخرجت هويتي الشخصية من حقيبتي بيديّ المرتجفتين. عمري تجاوز الثامنة والعشرين، وهذه أول مرّة أدلي بها بصوتي في الاستفتاء.

هذا يوم الاستفتاء العظيم..

قلت بصوت لطيف للموظفة: أنا شذى، وهذه هويتي..

لكنها لم تسمعني لشدّة الضجيج الدابك المطبّل حولنا. فصاحت:

- شو قلتي؟

فصحت: أنا.. أنا شذى.. بدي أدلي بصوتي.

- مين؟ شذى؟ أي روحي.. انتخبنا عنك...

كادت عيناي تدمعان وهي تقول:

- شذى لا تاكلي هم. عم قلك انتخبنا عنك!

الصم البكم- *(نقلاً عن أحمد فؤاد نجم)*

باللهجة المصرية: سكنت في دمشق، قدام معهد الصم والبكم، وكان وقتها الاستفتاء على حافظ الأسد، فبَصّيت لقيتهم كاتبين يافطة: الصم البكم (يقولون) نعم للقائد حافظ الأسد!

طب دُول (قالوها) ازَّاي؟

نبايعك بالدم- *(رواها: خطيب بدلة)*

ذات استفتاء، وأنا أعبر الشارع القريب من صيدلية الإبري في مدينة ادلب، جنوباً باتجاه البنك العقاري واتحاد الحرفيين، شاهدتُ لافتة كتبت عليها هذه العبارة:

(نبايعك بالدم- إدارة نقل الدم)!

كيف تقول (لا) لحافظ الأسد- *(رواها: خطيب بدلة)*

كانت عملية الاستفتاء على رئيس الجمهورية العربية السورية شيئاً يستحق التفكُّر، ويبعث على الدهشة، وأحياناً يبعث على السرور.

فالسوريون الذين كانوا يذهبون إلى مراكز الاستفتاء في طول الأراضي السورية وعرضها كانوا «يَتَفَنَّنُون» في إعلان براءتهم من قولة (لا) التي لو ثبتَ على شخص قولُها، أو اشْتُبِهَ بأنه أدلى بها في صندوق الاستفتاء، تؤدي إلى سَجْنه خمساً وعشرين سنة تعادلُ، إذا كان وسطيُّ الأعمار خمساً وسبعين سنة، ثلثَ عمره، في سجون لا تصلح- كما هو معروف- لسكنى البهائم.

ومن فنونهم في هذا المجال أن الواحد منهم كان، حينما يصل إلى المركز، ويسمع صوت قرع الطبول وترغلة المزامير، يمسك بالورقة المكتوب عليها «نعم للأب القائد»، ويدبك بها، صاعداً، في الهواء، إلى أقصى ما

تسمحُ له رشاقة جسمه بالصعود، وإبان نزوله إلى الأرض في مرحلة «النَخّ» يُسْقِطُ الورقةَ في الصندوق، فتنطربُ الورقةُ نفسها وتتهادى وتنزل إلى القاع وكأن شهيتها، هي الأخرى، انفتحت على الرقص.

وكانت قيادة منظمة «اتحاد شبيبة الثورة» قد أعطت توجيهاً واضحاً للرفاق الشبان، والرفيقات الشابات، بأن يقولوا «نعم» بالدم. لذلك كانت اللجان الانتخابية تضع الدبابيس على طاولة الاستفتاء بجوار القوائم والأختام والأقلام!.. والشباب يجرحون أصابعهم الرقيقة، ويكتبون، بالدم:

نعم للقائد التاريخي حافظ الأسد!

في بداية تمَكُّن ذلك القائد التاريخي المجرم من اغتصاب السلطة السورية كانت دوائر النفوس في المحافظات السورية تعد قوائم بأسماء الأشخاص الذين يحق لهم قول «نعم» للقائد، وكان الموظفون المشرفون على عملية الاستفتاء يشطبون اسم المواطن المستفتى من الجداول، دواليك حتى ينتهي النهار، فيغلقُ الموظفون على أنفسهم الباب، ويستفتون بـ «نعم» نيابة عن كل الأشخاص الذين لم يحضروا عامدين، أو لم تسمح لهم ظروفُهم بالحضور إلى المركز! وعندما يحين وقت الفرز لا يكترث أحد للأوراق الموجودة في الصناديق، سواءً أكان المكتوب فيها (نعم) أو (لا)!... فالقيادات الأمنية العليا التي تقود البلاد كانت تطلب من وزارة الداخلية أن تجعل النسبة في المحصلة ٩٧٫٢٢٪، مثلاً، فتعلن الأرقام التي لو جُمِعت وطُرحت وضُربت وقسمت لأعطت نسبة ٩٧٫٢٢٪ بدقة..

إن الأشخاص الذين عهدت إليهم القيادة بتنفيذ هذه العملية المباركة، أعني «الاستفتاء»، لم يقفوا مكتوفي الأيدي أمام متطلبات التطور في العصر الحديث، فما كان منهم إلا أن اخترعوا شيئاً ظريفاً أطلقوا عليه اسم «البطاقة الانتخابية»، فصار المواطن السوري يمتلك مطلقَ الحرية في أن يستفتي بـ «نعم» في أي مركز استفتائي، في أي صندوق، في أية مدينة، أو

بلدة، أو قرية، أو مزرعة، أو كفر، أو دسكر، أو «خربة»، ولا يحق لأخي أخته أن يسأله إن كان قد استفتى في مكان آخر، عدداً كبيراً من المرات، أم لا..

موقف استفتائي *(رواها: خطيب بدلة)*

في إحدى النواحي التابعة لمحافظة إدلب كان ثمة شخص يمتلك فائضاً من حس الفكاهة اسمه «محمد علي». ذهب مرة إلى مركز الاستفتاء ووقف أمام رئيس اللجنة وقال له:

أنا وأمي وأبي وامرأتي وأولادي مجموعُنا إثنا عشر شخصاً، زكاة عافيتك حط لنا إثنتي عشرة ورقة «نعم» للقائد التاريخي حافظ الأسد!

لم يكن رئيس اللجنة يقل ظرفاً وخفة ظل عن محمد علي، فقال له وهو مبتسم:

- على علمي أن والدك متوفى من زمان؟!

كز محمد علي على شفته وقال معاتباً:

- نعم، هو ميت، ولكن أريد أن أسألك: لو كان حياً هل يعقل أن يقول «لا»، مثلاً؟

فضحك رئيس اللجنة وقال: معك حق. وأنا إكراماً لروحه سأضع له خمس ورقات زيادة. تكرم!

وهذا ما كان.

انتخابات نزيهة- *(رواها: خطيب بدلة)*

معروفٌ للقاصي والداني أن الحكام الديكتاتوريين الطغاة يحيطون أنفسهم بدرجات متفاوتة من القداسة، من أجل أن يُغلقوا كافة الطرق المؤدية إلى تشكيل حالة معارضة لحكمهم بين أفراد الشعب.

ففي سنة ٢٠٠٣ انتابت الديكتاتور صدام حسين حالةٌ هستيرية في

مجال الشراهة إلى القداسة جعلته يأمر زبانيته بأن يُوصلوا نسبة نجاحه في الاستفتاء إلى ١٠٠٪!!!... وقتها وجهتُ إلى أحد أقربائي، وهو متعاطف مع الديكتاتور صدام حسين، السؤالَ التالي:

على حد علمك هل يوجد شيوعيون في العراق أم لا؟

قال: بلى، يوجد شيوعيون كثيرون.

سألتُه: وهل يؤمنُ الشيوعيون بوجود الله تعالى؟

قال: لا.

قلت له: هذا يعني أنه يوجد أناس في العراق يعارضون الله تعالى، ولكن لا يوجد أخو حفيانة واحد يعارض صدام حسين!

وأما نحن السوريين فلم نكن نندهش من ارتفاع نسبة محبي حافظ الأسد (ثم وريثه بشار) إلى ٩٧٪ أو ٩٩٪، بل كنا، بصراحة، نفكر في الأشخاص الشجعان الذين تجرؤوا فكتبوا في الورقة المخصصة لـ (نعم)، حرفَ النفي الفظيع (لا) فأنزلوا النسبة عن الـ ١٠٠٪.

ههنا أجد من المناسب أن أوضح أن عناصر الجيش وقوى الأمن الداخلي لا يحق لهم التصويت في الانتخابات المتعلقة بمجلس الشعب والمجالس المحلية، ولكنهم يشاركون في الاستفتاء على رئيس الجمهورية (فقط). وكانت نسبة التصويت المعتادة في هذين القطاعين لا تتزحزح عن الـ ١٠٠٪.

ولكن، ذات مرة، في إحدى الكليات العسكرية الموجودة في المنطقة الوسطى (حمص وما حولها) تَعَرَّضَ قائدُ إحدى الكتائب إلى مشكلة عويصة، تلخصتْ في أن لجنة فرز الأصوات القادمة من أعلى قيادة أمنية وعسكرية في دمشق، عثرتْ، في صندوق الاستفتاء الخاص بكتيبته، على ورقة شاذة للغاية كُتِبَتْ عليها، بشكل لا لبس فيه، كلمةُ: (لا)!!

استنفرت القيادةُ العامة للجيش والقوات المسلحة في المنطقة الوسطى، استنفاراً يشبه الاستنفار الحربي، واستدعي قائدُ الكتيبة (المنكوبة) إلى مقر القيادة الأمنية للمنطقة الوسطى على عجل. ويحكى أن العناصر الذين أخذوه، مع أنهم أدنى من مرؤوسيه، جرجروه وبهدلوه، و«لَكْوَزُوه» في صدغيه، وبصقوا في وجهه، بسبب استهتاره، وسماحه لمجند كلب، واطئ، حقير، أن يتطاول على سيده حافظ الأسد ويقول له (لا).. بكل هذه الصفاقة!

المهم. طلبَ قائدُ الكتيبة المسكين (الذي بهدله عساكُره ومرؤوسوه على الطريق) من المحققين إعطاءه مهلة ٢٤ ساعة، ليأتيهم بالـ (فاعل) موجوداً.. مقابل أن يعفوه من عقوبة التجريد من الرتبة العسكرية، وإرساله إلى سرية التأديب في تدمر.. فوافقوا على إعطائه المهلة، ربما بدافع الفضول لاعتقادهم بأن العثور على (الجاني) أصعب من العثور على إبرة في بيدر من القش.

ذهب الضابط إلى كتيبته، وألقى في الجنود محاضرة طويلة عريضة مفادُها أن الاستفتاء على السيد الرئيس حافظ الأسد بشكل علني لا يعطي نتائج حقيقية. وأضاف شارحاً:

- إذ لربما قال أحدُكم (نعم) أو (لا) من باب الخوف أو المسايرة أو اللامبالاة.. لذلك أنا قررتُ أن أعيد الاستفتاء الآن بالاعتماد على الغرفة السرية! فَلْيُحَكِّم كلٌّ منكم ضميره ويستفتِ قلبَه!

أدرك جلُّ الحاضرين بأن هذه (الحركة) ليست نظيفة وخالصة لوجه الله تعالى، وأنَّ فيها- كما يقول النحاةُ- (إنَّ).. ولذلك فقد دخلوا إلى الغرفة السرية واحداً وراء الآخر، وقالوا (نعم) التي يجبرهم الخوفُ على قولها بدلاً من الـ (لا) التي ترضي ضمائر معظمهم.

قائد الكتيبة، خلال خمس دقائق فقط، عَرَف مَنْ يكون العنصر. قبض عليه، وشحطه من الكتيبة إلى قيادة المنطقة الوسطى. سلمهم إياه، واختفى العنصر، ولم يظهر بعد ذلك قط.

وأما كيف حصل ذلك؟ فلقد تبين أن قائد الكتيبة وضع على الوجه الخلفي للورقات الاستفتائية، بقلم الرصاص الفاهي الذي لا يُرى بالعين، أرقاماً متسلسلة غير مرئية، وأدخل عناصره إلى الغرفة السرية، بالتسلسل، من (١) إلى آخر رقم في تعداد الكتيبة. وبعد انتهاء العملية قرأ رقم الورقة المكتوب عليها (لا) من قفا الورقة، فعرف مَنْ هو ذلك الشخص الغريب الأطوار الذي قالها.

استفتاء بالجملة: *(رواها: خطيب بدلة)*

في استفتاء سنة ١٩٧٨، كنت أؤدي خدمتي العسكرية في كلية المدرعات بحمص.

صبيحة يوم الاستفتاء أحضروا إلى ساحة التفقد صندوقاً كبيراً. وكان ثمة لجنة مشرفة على العملية تتألف من ضابط برتبة عقيد ومجموعة من الضباط الأدنى، وبضعة صف ضباط برتبة «مساعد أول».

لأول مرة يحضر اللواء قائد المدرسة الاجتماع الصباحي. وكذلك الضباط الكبار من رتبة عميد وعقيد.. إلخ.

نفذت عملية الاستفتاء على النحو التالي.

قائد دورتنا العميد فلان قدمَ الصف لسيادة اللواء، ضرب قدمه بالأرض وصاح:

- دورة «قائد بي م بي»، ١١٧، موافق.

(اللجنة تعد مئة وسبع عشرة ورقة مكتوباً عليها «نعم» وتُسقطها في الصندوق)..

وتتكرر العملية مع دورة قائد دبابة، وسائق دبابة، ورامي دبابة، ورامي بي إم بي، وسائق بي تي إر)..

تنتهي العملية بأسرع ما يتوقع أحد في التاريخ.

فجأة.. الطبول تقرع والمزامير تترغل.

ولأول مرة، منذ التحقنا بهذه المدرسة، تحصل هذه الفوضى: تركنا نحن التلاميذ الصف دون إيعاز من الضباط، وانخرطنا في الدبكة. والضباط وصف الضباط بمختلف أشكالهم وحجومهم نزلوا معنا، وأمسكوا أيدينا بكثير من المودة.

صديقي هزاع الذي كان يكره حافظ الأسد كثيراً.. وقف متردداً. تقدم خطوتين، تراجع خطوة، ثم تأبط ذراعي وهو يهمس لي:

- سأدبك.. حباً بالدبكة!

فانتازيا- *(رواها: خطيب بدلة)*

ذات مرة، في فترة الاستفتاء على حافظ الأسد، التقيت بأحد أصدقائي في دمشق.. وروى لي الحادثة التالية:

إن سيارةً محملةً بمحبي حافظ الأسد، أُفرِغَتْ حمولتُها في ساحة الأمويين. عَبَّرَ هؤلاء المحبون عن مشاعر الفرح التي انتابتهم إزاء موافقة القائد التاريخي حافظ الأسد على قيادة البلاد لمدة سبع سنوات قادمة.. ومن فرط ما هتفوا وصاحوا، «نبقت لهم فتاقات من تحت!»، فحضرت سيارات الإسعاف على الفور، ونقلتهم- وهي تصيح وي وي- إلى مشفى المواساة، وعلى الفور أدخلوهم إلى غرف العمليات، وأجروا لهم عمليات «استئصال الفتاق»، ثم عبؤوهم في سيارتهم.. ونقلوهم إلى ساحة المرجة، وأفرغوهم هناك ليتابعوا ممارسة واجبهم الوطني الذي يتلخص بحب الأب القائد..

ولكنهم، في المرة التالية، احتاطوا للأمر.. إذ أرسلوا مجموعة من سيارات الإسعاف معهم، انتظرتهم حتى انفتقوا، فحملتهم- وهي تصيح وي وي- لتخاط فتاقاتُهم، ويُحْمَلُوا إلى ساحة أخرى، ويعبروا عن فرحتهم بموافقة القائد التاريخي حافظ الأسد على قيادة البلاد لمدة سبع سنوات قادمة..

الفصل الثامن- باسل الأسد

حكاية مقتل باسل

قُتل «باسل الأسد» في حادث سير بتاريخ ٢١ كانون الثاني ١٩٩٤ إذ كان يقود سيارته بسرعة كبيرة جداً متجهاً إلى مطار دمشق الدولي، فانقلبت السيارة وقتل، وقد كان معه في السيارة ابن خاله «حافظ مخلوف» الذي نجا من الموت. ولم تُنشر أية تحقيقات أو تفصيلات عن مقتله وكيف جرى، وهذا من تقاليد التكتم التي اتسمت بها عائلةُ الأسد والغموض الذي يلف كل ما يتعلق بهذه العائلة، مما ترك تكهنات بأن الحادث مدبر.

أشارت بعض الأصابع بالاتهام إلى عمه «رفعت الأسد»، ولكن دون أية أدلة، سوى أن أنيسة والدة باسل مَنَعَت رفعت الأسد من الوقوف مع بيت الأسد لاستقبال المعزين في وفاة حافظ الأسد، رغم أنه حضر إلى قصر الشعب لهذه الغاية، ولكنها اندفعت لتصرخ بوجهه وتطرده، بحسب ما روت لي إحدى الحاضرات. وقد يفسر هذا بكونها خشيت من أن يؤدي ظهوره لأن يصبح هو الوريث بدلاً من ولدها الثاني بشار.

حكاية علي حيدر وباسل الأسد

أبدى اللواء «علي حيدر» قائد القوات الخاصة في سوريا امتعاضه من سلسلة الإجراءات الرامية إلى تحضير باسل الأسد لوراثة والده، وعَبَّرَ عن ذلك بقوة في إحدى المرات، ورفض تلقي تعليمات من الشاب المدلل باسل عام ١٩٩٤، فما كان من حافظ الأسد إلا أن أمر باعتقاله لبضع

ساعات، وإهانته. ثم أصدر قراراً بتسريحه من الجيش، رغم أن علي حيدر هو القائد العسكري الأبرز في حرب تشرين الأول «أكتوبر» عام ١٩٧٣، فهو قائد القوات الخاصة التي نفذت عملية احتلال مرصد جبل الشيخ، إضافة إلى كونه أحد أركان انقلاب ١٦ تشرين الثاني «نوفمبر» ١٩٧٠ الذي جاء بحافظ الأسد إلى السلطة، وهو الرجل الذي لعب دوراً كبير إلى جانب حافظ الأسد في صراعه مع أخيه رفعت.

كانت الرسالة واضحة للجميع وهي أن لا أحد يقف في وجه بيت الأسد، وأن بيت الأسد للأبد.

سينتصر الأسد.. وسيحرق البلد- *(قصة فنية رواها: هشام الواوي)*

عندما تخرج «باسل الأسد» من كلية الهندسة المدنية، ظهر مطرب ذو صوت جهوري، مرتفع الهامة كأنه «تريلا» محملة بالصخور، يدعى «علي حليحل» غنى نشيداً وطنياً يقول مطلعه:

أبو باسل قائدنا يا بو الجبين العالي.. تسلم وتصون بلدنا من غدرات الليالي.

أصيبتْ النخبة السياسية بالوجوم، بشكل مؤقت، بسبب التغير المباشر في طريقة مخاطبة القائد. وقد اعتادت تلك النخبة على نداء تراثي مزركش بفولكلور وطني يردد: «أبو سليمان»!

ولكن، سرعان ما استعادت النخبة جأشَها الفارط عندما استوعبت المحتويات الشبابية الكامنة في نداء «أبو باسل»، التي تُبرز راهناً طازجاً، قوياً، قادراً على فتح ثغرة في الواقع المصاب بتخثر شديد.

هُضمت هذه الإزاحة من أبي سليمان إلى أبي باسل واكْتُشِفَتْ مضامينُها الثورية، وتُرجم ذلك الفهم إلى «مهرجان الباسل» و«بطولة

الباسل للفروسية» و«فرن الباسل للمعجنات الشامية» و«سد الباسل» و«نهر الباسل» و«صالة الباسل للأفراح».. إلى أن فقدنا الباسل في حادث سير غادر.

أغنية علي حليحل أظهرت ميولاً «ميتا- طائفية» عند حافظ الأسد تقفز فوق الجماعة المذهبية، وتحط عند طموحات مَلَكية تتبنى مفهوم السلالة منهجاً للحكم، السلالة بمعناها العمودي وليس الأفقي، وقد كان حافظ الأسد حاسماً في عشقه للطريقة العامودية في نقل الإرث.

كانت أغنية حليحل الشهيرة «أبو باسل» مفترقاً مهماً، ونقطة علام بارزة تدل على انتهاء مرحلة «ديروا الميه عالطاحون- حافظ أسد ما بيخون» و«ديروا الميه عالكاسة- حافظ أسد ألماسة» وابتداء مرحلة «أبو باسل الأسد رمز الثورة العربية»، في تكريس لا يعرف الكلل ولا الملل لأبي باسل وابنه باسل على حد سواء.

ولكن الوزن الشعري «السجعي» لم يكن يسمح- فيما بعد- بتبديل العبارة من «أبو باسل قائدنا» إلى «أبو بشار قائدنا».. للأسف، ومع ذلك تمددت المخيلة الشعرية لمنتجي الشعار، وأخرجت حزمة شعارية جديدة ذات طيف واسع ومعنى كثيف يتلخص في كلمة وحيدة عاشقة مكتوبة بخط رقعي محمر وتنبثق من خارطة الجغرافيا السورية التي تنقص لواء اسكندرون وهضبة الجولان (فقط) تقول بإحساس مُتَيَّم: «منحبك»!!

هذه الكلمة غيرت مفهوم العلاقة بين القائد والجماهير، فقد كانت العلاقة- في السابق- لا تعدو أن تكون علاقة جمهور يراقب قائده الذي يجترح المعجزات، الواحدةَ «ورا» الأخرى، ليحقق التنمية والتحرر للشعب.. أما في ظل «منحبك» فأصبحت العلاقة «عشقية» لا ينتظر فيها العاشق شيئاً من محبوبه إلا البقاء أمامه متخذاً وضعيات «سكسية»!.. لتدوم حالة الهيام والدنف!

°تضمنت كل الشعارات، رغم تبدلها وتطورها، كلمات من قبيل الوطن والحرية والثورة إلى جانب كلمة القائد أو الأسد بنسختيه (الأب والابن) ولم تُبَالِ تلك الشعارات بتبديل اسم حافظ على وزن فاعل إلى بشار على وزن «فَعَّال» لأنها قبست من كلمة «أسد» أو «الأسد» التي رافقت الاسمين المعاني والقوافي الكثيرة المبتكرة مثل: قائدنا إلى الأبد.. حافظ (أو بشار) الأسد!

هذا الشعار، بالذات، كان فائق الذكاء، لأنه نقل إلى السوريين رسالة مُحْبِطَة مفادُها «لا حدا يعذب حاله.. ما في فَكّة».

أخيراً.. عندما نَحَتَت الجماهير شعارها الخاص بمعزل عن التأثيرات الأسدية، وابتكرت هتاف (الله- سورية- حرية- وبس).. لم تحتمل ماكينة إنتاج الشعارات الأسدية الوضع، فانتفضت مزمجرة، ضاربة عرض الحائط بكل محتويات الوطنية في شعاراتها السابقة، وأبقت على المادة الخام فيه وهي عائلة الأسد، مستفيدةً، مرة أخرى، من تسهيلات القافية في اللغة وصرخت:

الأسد.. أو نحرق البلد!

وهذا ما كان.

مذيع حزايني- *(رواها: خطيب بدلة)*

يوم ٢١ كانون الثاني (يناير) ١٩٩٤، ظهر على شاشة التلفزيون مذيع وسيم، كان يشتغل سابقاً في الشؤون الثقافية.. وَضَعَ وجهه في وجه الكاميرا- بلقطة جبهية- وقرأ علينا خبر استشهاد الرائد الركن، المظلي، الفارس الذهبي، المغوار، شبل الأسد، «باسل حافظ الأسد»، بحادث سيارة «مؤسف».. وما إن أنهى ذلكم المذيع قراءةَ السطر الأول، ونصف السطر الثاني من الورقة التي أمامه، حتى انفلت بالبكاء، وصار يشوح،

وينوح، ويمسح دموعه بكم جاكيته، ويتنهد حزناً وحسراتٍ وتفجعاً على هذا الشاب الذي كان مرشحاً لحكم سوريا، والدعس على رقاب شعبها الصامد، ولكن مشيئة رب العالمين رفضت ذلك!..

ما مضى على هذه الحادثة إلا أيام قليلة.. وإذا بقيادات «التروست العائلي الأسدي» وقيادات الشُّعَب الأمنية العليا التي تمتاز بالحكمة والألمعية، تُقَدِّرُ دموعَه حقَّ قدرها، وتوعز لوزير الإعلام بأن يصدر قراراً تاريخياً استراتيجياً يقضي بتعيين هذا المذيع (الحزايني- البَكَّاء) بوظيفة «المدير العام للهيئة العامة للإذاعة والتلفزيون»!!.. هكذا، خبطاً لزقاً، ومن دون أية مراعاة للمنطق، أو للمؤهلات، أو لتسلسل الترفيعات، فبرأي تلك القيادة أن تلك الدموع الطاهرة التي ذرفها الرجلُ على وجنتيه من شأنها أن تُقْحِمَ «الذي يسوى والذي لا يسواش»!

أبو مقص: وفيما بعد،.. حينما أصبح صاحبُنا المذيع مديراً عاماً للهيئة، ونشفت مآقي الحزينين والحزانى على الشهيد الغالي الباسل الأسد في طول البلاد وعرضِها، صار يُعرف في مبنى الهيئة العامة للإذاعة والتلفزيون بلقب: «أبو مقص»!

تبين، خلال الفترة التي أدار فيها «أبو مقص الحزايني» دفة الإعلام السوري، أنه مقامرٌ على مستوى عال، إذ كان يسافر، على نحو شبه يومي، إلى بيروت، ويقامر في كازينو لبنان العريق الذي أُسِّسَ ورُخِّصَ سنة ١٩٥٤..

وكان مرتشياً متميزاً بين المرتشين التقليديين، فعلى زمانه ما عاد في مقدور أي فريق تلفزيوني أن يغادر المبنى لمباشرة العمل والتصوير دون أن يمر «مُديرُ إنتاج العمل» بمكتبه، ويضع على طاولته مغلفاً محشواً بالمال، تكبرُ كمية النقود الموجودة في المغلف أو تصغر بحسب طبيعة العمل الذي سيجري تصويره، بدءاً من البرنامج الدرامي المنوع الذي لا تتجاوز مدته نصف الساعة، مروراً بالأعمال التلفزيونية القصيرة، كـ «فيلم

السهرة»، و«الثلاثية» و«السباعية»، وصولاً إلى المسلسلات الطويلة ذات الحلقات الثلاثين..

وكان مديرو الإنتاج يُحْضِرُون لصاحبنا، عدا عن المغلفات المحشوة بالنقود، كمياتٍ متفاوتةً هي الأخرى من السكائر الأميركانية ذات النيكوتين القليل من ماركة «MERIT»- وهي سكائرُه المفضلة، فمن يريد أن يصور فيلم سهرة يُحضر له بضعة «كروزات ميريت»، وأما جماعة المسلسل الطويل فيخجلون أن يُحضروا له أقل من «كرتونة» تحتوي على خمسين «كروز» من هذه السكائر الغالية الثمن، فـ «لكل مقام مقال»!

إن الشيء الذي كان «يشقُّ» موظفي المبنى غيظاً، أن هذا المدير العام، المنحدر من أصل «مذيع حزايني»- ورغم الكميات الكبيرة من كروزات «MERIT» المكومة بجوار مكتبه، وما لا يقل عنها ضخامة نَقَلَها سائقُه الخاص إلى بيته- كانت له عادة ذميمة.. وهي أنه كان يراقب زواره المدخنين، فما إن يُخْرِج أحدُهم علبةَ سكائره ليسحب منها واحدة، حتى يمد له يده اليمنى فاتحاً الوسطى والسبابة على هيئة «مقص»!.. فيكون من واجب الشخص الآخر أن يضع له سيكارة ضمن المقص، يَقْبَلُها ويدخنها بشراهة، حتى ولو كانت من أردأ أنواع السكائر..

الفصل التاسع- صور حافظ الأسد وتماثيله

احتضان- *(قصة فنية رواها: هشام الواوي)*

الطريق من «شارع الثورة» إلى «البرامكة» كان، بالنسبة لي، مشوارَ المشي شبه اليومي: من «جسر فكتوريا» عند «شارع شكري القوتلي» وبمواجهة «مشروع يلبغا».

هذا المشروع المزمن عَرَّفني على السيد «يلبغا» وزملائه المماليك الذين حَكَموا دمشق، وقد أطلقوا عليه، بعدما اكتمل، اسم «مجمع الشهيد باسل الأسد»!!

يمتد الطريق بموازاة جسر فكتوريا، ثم ينعطف تحته ليبدأ تسلق جسر معدني يقطع «شارع الجمهورية»، يليه آخر متعامد معه يقطع «شارع سعد الله الجابري»، ثم «فندق سمير أميس» فأشاهد كسوته الفريدة من قطع البورسلان الرخيص.. ثم أتابع باتجاه «سوق المهن اليدوية»، و«التكية السليمانية»، خروجاً لأصبح في مواجهة المتحف الوطني وسوره المعدني..

كثيراً ما كنت أشاهد الشاعر ممدوح عدوان جالساً في الحديقة بجوار تمثال مقطوع الرأس، ثم أسفل جسر الرئيس (المقصود جسر الرئيس حافظ الأسد طبعاً، إذ لا يوجد لدينا رؤساء غيره في هذه الحقبة التاريخية!)، حيث تتجمع «ميكروباصات» لا حصر لها، وبسطات طويلة عريضة للكتب المستعملة، هي التي عرفتني على مجلة «الوحدة» وأمية بن أبي الصلت..

كانت الرحلة تنتهي عند الخروج من مبنى كلية العلوم بعد الدخول

بما يشبه الرحلة التاريخية إلى كلية الحقوق القديمة، فالمرور تحت اللوحة التذكارية «ثأر وقعة ميسلون».

المشي اليومي الطويل يحفز لديك حس المراقبة وتفحص الشارع، كنت أعدُّ أعمدة الكهرباء، والفنادق، والجسور، والسيارات الصفراء، ودخلت في المحرمات فأحصيت صور الرئيس حافظ الأسد بحسب ألوانها وأحجامها ووضعياتها والكلمات التي تصفه تحتها.

بعض التوصيفات كانت متواضعة، بالفعل، كعبارة بسيطة تقول (الرئيس حافظ الأسد)، وهي صورة عادية تشبة الصور الشخصية، صور أخرى تصفة بـ «الفريق»، وأخرى بـ «الرفيق المناضل».

خمنتُ أن ملكية الصور تعود إلى جهات متعددة كـ «الإدارة السياسية للجيش والقوات المسلحة»، وهذه تقول بأنه «الفريق»، وبعضها للقيادة القطرية لحزب البعث، وهذه تقول عنه «الرفيق المناضل»، وصور شتى تُنتجها النقابات. وهذه هي الأكثر طرافة، لأنها تقول بأنه «المعلم الأول!- أيْ قبل أرسطو»، أو «الأب القائد»!! ومنها ما يُكْتَبُ بعبارة جَرَّارة توضع حول الصورة وتحتها، تعطيه صفات أقرب إلى صفات «الإسكندر المقدوني» أو «سقراط».

من بين الصور التي كانت تعترضني يومياً لفتت نظري واحدة مرسومة على لوحة معدنية ومثبتة خلف كشك يبيع الجرائد فوق أحد الجسور المقامة على بردى بمواجهة التكية السليمانية. كانت الصورة تمثل حافظ الأسد فاتحاً يديه على اتساعهما، ضامَّاً مجموعة صغيرة من الأطفال. كان الرسم غير متقن، فبدت يدا الرئيس كبيرتين جداً بالقياس إلى رأسه وجسده. وظهر في الصورة كأنه يريد ضَم كل ما في الشارع من بشر وسيارات وحجارة وقد ارتسمت على شفتيه ابتسامة رضا.

كان صديقي «نايف» يعلق كلما رأى هذه الصّورة ونحن في طريق العودة قائلاً:

شوبو الأخ؟ كأنو بدو يْكَوِّشْ بأيديه على كل شي!

(يكوش: يستولي ويصادر ويغتصب- المحرر).

اكتسبت كلمات نايف وجاهة وصدقاً مع طول معايشتنا لهذه الصورة، فقد ثبتت في مكانها وبنفس الوضعية ردحاً طويلاً من الزمان، وتحدت الكثير من هجمات الطقس وصولات الرياح حتى أيقنَّا بأنها جزء من المكان، وأن من حق الرجل الذي «يفغر» يديه بشدة يريد التهام المكان أن يفعل ذلك.

كان شتاءً قاسياً. السماء تبرق يومياً وترعد، وتمطر، كأننا نعيش أجواء واحد من أفلام «الهالوين» حينما يبدأ القاتل الغامض بمباشرة مهامه في الحال.

فاض «بردى» وارتفع منسوبُه فوق الجسر بأكثر من متر. ولم تنفع أكياس الرمل التي وضعت لتخفيف التدفق، والرياح العاتية اقتلعت الكشك من جذوره وألقت به بعيداً عن مكانه الأصلي.. واختفت جميع محتوياته، وتكسر عدد كبير من الأشجار الضخمة التي تحف بتكية سليمان القانوني، ومال سور المتحف الوطني.

كان يوماً من أيام الغضب الحقيقي. الطبيعة زفرت ركامها كله، ولم تُبق شيئاً في مكانه، وكأنها تنتقم.

المشهد كان يشبه ساحة معركة بعد أن انهزمت الجيوش، وتركت خلفها الحطام. المياه تسير بسرعة، جارفةً في طريقها أكياسَ الرمل، حاملةً معها كلَّ ما تجده في الطريق: حطامَ أشجار وأثاثاً ومقاعدَ حدائق.

وحدها صورة حافظ الأسد التي تُظهره فاتحاً يديه يريد أن يضم كل شيء إلى صدره بقيت صامدة، وكأن العاصفة دارت خلفها ولم تمسسها بسوء.

وقف عندها صديقي نايف وساقاه تخوضان في الوحل حتى الركبة وقال بثقة:

- هادا الزلمة غير الله ما بيشلو!

(المحرر: هذه العبارة الشعبية تدل على استحالة التخلص من حافظ الأسد).

أذُن سيادة الرئيس- *(رواها: وائل زيدان)*

مرّة في الثكنة العسكرية، أثناء تأديتي للخدمة الإلزامية، قررتُ وزملائي إزالَةَ كل الجرائد والصور الصفراء عن جدران المهجع بهدف طلائه، لكن سرعان ما اكتشفنا صعوبة هذا الأمر، لأن مرور زمن طويل عليها جعل تلك الجرائد والصور جزءاً من الحيطان ولا يمكن فصلها عنه إلاّ بمكشط!. والصورة التي أربكتنا، دوناً عن غيرها، كانت لحافظ الأسد، فاستخدام المكشط معهُ سيشوههُ وسيُدخلنا في سين وجيم. لذلك أضفينا حناناً زائداً أثناء كشط الأنف والعينين ومارسنا عشرات الحِيل من ضمنها النقعُ بالماء لقبع الشارب والفم. وفي النهاية يئسنا من أذنهِ الكبيرة لأنها متّحدة تماماً مع الحائط، ثم إن أحداً لن يشكّ أن تلك الأذن هي للقائد الخالد، وجَزَمنا أن الطلاء سيتكفل بتغييبها.

لكن في كل مناوبة كانت أذن كبيرة تتراءى لنا من الحائط كلما أردنا السخرية من حماقات الضباط، لتفرض علينا موضوعاً واحداً أوحدَ للحديث لا ثاني له، ألا وهو موضوع السيكس والنساء وآخر شيفرة مُسرّبة لقناة بلاي بوي!.

وكانت ساحة الاجتماع في الثكنة مائلة باتجاه الشمال. وذات مرة رَكَنَ أحدُ السائقين سيارة «الزيل» في الساحة وغادرها مستعجلاً. وفجأة ارتخى

فرام اليد في تلك السيارة الروسية القديمة الطراز وأخذت تكرّ رجوعاً إلى الوراء مُحطِّمةً وجه القائد الخالد. وأيضاً تشاء المصادفة العجيبة أن لا يبقى عالقاً من الوجه في تلك اللوحة الإعلانية إلاّ أذن سيادته الكبيرة!.

صورة القائـد في مضافة الشـيخ- *(قصة فنية رواها: خطيب بدلة)*

في الثمانينيات من القرن الماضي، تعاملَ «الحاج أحمد»، وهو صاحبُ مقلع للحجارة في منطقة «أريحا»، مع أحد زعماء شبيحة الجبال الساحلية.. كان يُوَرِّدُ له حجارة فخمة ليبني بها قَصْرَهُ على تلة مرتفعة في قريته الجبلية.

الحاج أحمد، بعد أن وَرَّدَ لزعيم الشبيحة الذي يسمي نفسه- زوراً- «الشيخ» عدة طلبيات، دون أن يقبض من ثمنها شيئاً، ركب سيارته «المازدا ٩٢٩» وذهب ليُحَصّل ثمن حجارته.. ذهب وهو متوجس خيفةً، ليقينه بأن «الشيخ» رجل مستبد، و«مُبْطِل» لا يحب دفع ما عليه من حقوق.

استقبل «الشيخُ» ضيفَه الريحاوي في مضافته الكبيرة التي يخصصها لأعماله الإدارية المتنوعة، كالسلب، والنهب، والتشبيح، وعَقْد الصفقات. أولم له، وبعد الغداء غصت المائدة بالفواكه والحلويات والموالح، والفستق الحلبي الأخضر الذي أحضره الحاج أحمد معه من أريحا هدية للشيخ..

في المكان مجموعة من عمال الشيخ ومرافقيه. إنهم فتية تتراوح أعمارُهم بين الثامنة عشرة والثامنة والعشرين، يرتدون القمصان «المُشَلَّحَة» التي تُبرز زنودهم الثخينة العامرة بالعضلات الفولاذية والوشم. مَن يَرَهم لأول مرة يلاحظ على وجوههم الغباء المُرَكَّز، ويستشف وجود استعداد تام لديهم للعدوان على مَنْ يرتئي الشيخ ضرورةَ العدوان عليه، في الزمان والمكان اللذين يُحددهما.

«الشيخ» يحب هؤلاء الفتية كثيراً، ويُدَلِّعُهم مستخدماً كلمات تبدو

فجة، من قبيل: «كر»، و«جحش»، و«حيوان».. وهم يفرحون حينما يخاطبهم بهذه المفردات، لأنها تنطوي على نوع من «التباسُط» و«الخصوصية» التي لا يمنحُها لغيرهم.

التفت نحوهم وصاح بهم بنبرة تَقَصَّدَ أن يُضَمِّنَها شيئاً من اللؤم:

- ولاه حواوين.. تعالوا هنَّا..

مثلوا أمامه، فقال لهم: لا تحطوا «عَرَق» على الطاولة اليوم، ضيفنا الحاج أحمد ترى مو شريب كاس!

قالوا له: أمرك معلم.

ونفذوا الأوامر بحذافيرها.

ساد الصمت على الجلسة بعد الغداء. والحاج أحمد همَّ بالكلام أكثر من مرة، محاولاً البحث عن صيغة أمينة للمطالبة بحقه، ولكن نظرات «الشيخ» كانت تتحول عنه إلى صورة لـ «حافظ الأسد» معلقة في صدر المضافة، كأنه يطلب منه أن يشاركه النظر إليها، والإعجاب بها.

فجأة قال الشيخ: شو رأيك بصورة هالقائد العظيم يا حاج أحمد؟

الصورة، في الواقع، عبارة عن نسخة من مئات الألوف من النسخ التي طبعها اتحادُ الفلاحين، في أحد مؤتمراته السنوية، وفيها حافظ الأسد، يرتدي الزي العربي، ويعتمر بالحطاطة والعقال، وتحتها كتبت عبارة «الفلاح الأول».

قال الحاج أحمد مجاملاً، خائفاً:

- صراحة؟ رائعة..

قال الشيخ: هه. قلت لي صورة هالقائد العظيم رائعة؟ أي وشو كمان؟

الحاج أحمد، في الواقع، ثقافتُه على قدها، فهو لم يصل إلى الصف

التاسع إلا بشق النفس وطلوع الروح.. ولكن لديه بعض الثقافة العامة.. لذلك وجد نفسه يقول للشيخ:

- والله إنها تحفة فنية زائعة، و.. و.. ومُعَبِّرَة.. يعني هي تضاهي بجمالها «الموناليزا».

قال الشيخ: ليك.. والله أنا مو سمعان بهاي «الليزا» اللي قلت عليها. بس أكيد هيي شغلة كيسة.. يعني، على قولتك، قديش بتسوى صورة هالقائد العظيم؟

هنا أسقط في يد الحاج أحمد، وقد فاجأه السؤال، وحار بماذا يجيب. ففي الأحوال العادية، لو كان الحاج أحمد جالساً يشرب الشاي مع عماله، في غرفة المقلع الجوانية، ونط واحد من العمال وقال له: «قديش بتسوى هالصورة؟».. يمكن أن يتجرأ ويقول له: بتسوى ضرطة!!.. ولكن، هنا، في حضرة هذا الشبيح الكبير، يجب توخي الحيطة والحذر.. لذلك قال:

- تسوى كثير يا شيخ.. مئات الألوف من الليرات السورية والله.

قال الشيخ بتركيز كبير: مئات الألوف؟ يعني قديش؟

قال الحاج: يعني مو أقل من مليون ليرة سورية.

قال الشيخ: وأكتر. على كل حال ولا يهمك.

وقال لأحد شبيحته: تعال أنت ولاه كر. لف صورة هالقائد لعمك الحجي!

قال الشبيح: حاضر شيخ.

وقال لآخر: تعال ولاه، الجحش الكبير أنت. هات الدفتر، شوف قديش حساب الحاج أحمد، اخصم عليه مليون ليرة حق صورة القائد حافظ الأسد، وإذا حسابه أكثر من مليون، ادفع له الفرق، وإذا أقل من مليون سامحناه بالفرق. يللا ابني يللا..

وقال لثالث: تعال أنت ولا ابن القحبة. اتصل بالجمعية الفلاحية خلي يبعتوا لنا صورة للقائد حافظ الأسد.. ولك ما هي كيسة بحقنا، أن يدخل حدا على هالمضافة وما يشوف بصدرها صورة هالقائد الكبير!

الأب القائد- *(رواها: مروان علي)*

ثمة صورة كبيرة للأب القائد حافظ الأسد كانت معلقة على واجهة بناء كبير قرب المؤسسة العامة الاستهلاكية في «القامشلي» حيث مفرق «عامودا» و«الحسكة».

في النهار كانت رائحة البول تفوح من طرف الصورة، خصوصاً في الصيف. لم يبق أحد في الحارة الغربية إلا وتبول قربها، أو عليها، بينما ظل الأب القائد يلوح بيده للمتبولين بسعادة غامرة!

تمثال خائف *(قصة فنية، رواها مروان علي)*

بالقرب من «فرع المخابرات العسكرية» و«جامع زين العابدين» و«كافيتيريا الموعد» و«المصرف التجاري السوري» و«محطة محروقات قديمة» و«مبنى البريد» وفي أهم مثلث في «القامشلي» يقف تمثال خائف لحافظ الأسد، كلما مرّ أحد قربه يخبئ رأسه بين يديه ويغمض عينيه كأنما لكيلا يرى ما يحدث حوله.

اختفت صور «حافظ» و«باسل» و«بشار» و«حسن نصر الله» وشعارات الإصلاح والتحديث والعبارة الشهيرة (الأكراد في سورية مكون أساسي وعريق من الشعب السوري) التي اقتطفت من حوار لبشار الأسد مع قناة «الجزيرة» بعد انتفاضة القامشلي ٢٠٠٤.

اختفت دوريات الأمن وسيارات «البيجو ستيشن» والعبارة التي كنتَ تسمعها في شوارع كثيرة (اعرف مع مين عم بتحكي ولاك!). لم تعد تُسمع حركة السيارات التي كانت تدخل يومياً وبالعشرات إلى فرع الأمن

العسكري وفرع أمن الدولة بعده بقليل أو فرع الأمن السياسي قبله.

ثمة أعلام جديدة ترفرف عالياً، وصورة جديدة تحتل واجهة المحلات والبيوت.. أعلام كردية وصورة «عبد الله أوجلان» الزعيم الكردي المعتقل في «إيمرالي» والأب الروحي لحزب الاتحاد الديمقراطي «PYD» الذي يسيطر على القامشلي ومناطق شاسعة من محافظة الحسكة.

لم تتضح الصورة بعد. تمر دوريات «الأمن الكردي» التابعة لحزب الاتحاد الديمقراطي قرب مطار القامشلي حيث معقل المخابرات الجوية السورية. في عامودا دوريات مشتركة للأسايش، ومجاهدون بسيارات نُصبت فوقها رشاشات أوتوماتيكية كبيرة مضادة للطائرات وأعلامٌ سوداء ترفرف عالياً. لا أحد يعرف هويتها غير أن الكلمة البيضاء في منتصف الراية «الله أكبر» واضحة جداً.

بين عامودا والقامشلي طريق إسفلتي قديم، مليء بالمطبات، على أطرافه تتناثر قرى كردية وقرى عربية كانت نموذجية بُنيت على عجل في إطار الحزام العربي. حاجز ديموغرافي بين كردستان تركيا والمناطق الكردية في الجزيرة. تعرف ذلك من البيوت الإسمنتية المتشابهة وأعلام البعث وصور الرفيق القائد.. التي بهتت بسبب طول الإهمال. نوافذ تطل على نوافذ، وأبواب مغلقة تماماً، وغرباء في كل مكان. «كرد» لا يجيدون من العربية غير اللهجة البدوية ويحبون خبز الصاج و(الحميس) وبَدْوٌ يتحدثون الكردية بلكنة عربية ويفضلون التبغ الكردي المهرب من «ماردين».

هناك قلق وخوف وتوجس.. لا أحد يستطيع أن يتكهن بالقادم. الصورة ليست واضحة أبداً. الواضح فقط أن التمثال الخائف في قلب القامشلي سيسقط قريباً جداً لا أحد يعرف كيف.. ربما خوفاً، أو مللاً، أو بضربة من قبضة متظاهر كردي أو عربي لا فرق.

على الزجاج- *(رواها: سمير سعيفان)*

حدثني «دانيال نعمة» عضو المكتب السياسي للحزب الشيوعي السوري وعضو الجبهة الوطنية التقدمية، أن أحد أعضاء الحزب الشيوعي، وكان مديراً في وزارة المواصلات، انتبه إلى أن إحدى الموظفات ألصقت صورة لحافظ الأسد على الزجاج الفاصل بين غرفته والكوريدور، كيلا يشاهدهم ماذا يفعلون، أو لا ينتبه لهم إن غابوا لبعض الوقت، فقام بنزعها، ووضعها في مكان آخر، فأبلغت الموظفةُ أحدَ الأجهزة الأمنية بما حصل، فاعتقلوه، ولم تنفع الشروحات والتوضيحات ولا تدخلات دانيال نعمة من أجله، وبقي في السجن ثمانية عشر شهراً بالتمام والكمال.

ثامر وقدما الرئيس الأسد- *(قصة فنية رواها: هشام الواوي)*

تعرفت إلى «ثامر»- بالثاء وليس بالسين- عندما كنت في «العسكرية». إنه رجل ذو بشرة شديدة السمرة، ملامحُه متجهمة مقطبه، وشارباه يشبهان، إلى حد بعيد، شاربي «صدام حسين».

لا يجلس «ثامر» إلا شابكاً قدميه ببعضهما البعض كأنه تمثال بوذا، وإذا جلس بهذه الوضعية وأسند ظهره للجدار فيمكنه أن يستمر كذلك ساعات وربما أياماً وهو يتكلم بشكل متدفق، حارّ، فيسيل كلامُه كنهر غني صاف، وما إن ينتهي من أول حديث حتى تُنْسى تعابيرُه العابسة المقطبة، وتتحول شَعْراتُ شاربيه إلى خيوط متراقصة على وقع كلماته الضاحكة وحديثه المسلي المكتظ بالهزل.. وهو يحتفظ بذات الوجه في كل الظروف، صباحاً ومساءً.. وكان ينبطح، أثناء العقوبات الجماعية والفردية، ويستلقي بهدوء، ويتلقى «سطول» الماء الباردة بذات القسمات المحايدة، ويبقى الشاربان «الصَدّامِيَّان» ثابتين في مكانهما لا يتزحزحان.

حينما جاء قائد الدورة وسأل عن «مجندين» يُحْسِنون النحت فوجئتُ كثيراً برفع ثامر يده. كنت متأكداً أن ثامر أبعد ما يكون عن «الفنون

الجميلة». لكنه سرعان ما خرج من الصف ووقف بمواجهة قائد الدورة مثل نحات قارح، ثم بدأ يشوِّح بيديه ورأسه كما لو أنه يشرح له شيئاً مهماً.

مضى وقت الاستراحة بطيئاً مملاً. افتقدنا جلسة ثامر الطريفة، وبدأ الفضول يأكلنا لمعرفة مكانه، وماذا طلب منه قائد الدورة، وعلاقة كل ذلك بالنحت! خمنّا أشياء كثيرة. قلنا: لعل قائد الدورة يريد تركيب ديكورات «جبصين» في صالونه، أو مكتبه، أو يريد مَن يسكب تمثالاً نصفياً لزوجته، وكنا اعتدنا على طلبات قريبة من هذه، فقد جمعنا «القائد» ذات يوم بشكل مفاجئ ليسأل عمن يملك زمرة دم «بي سلبي»، لأن خالته في المستشفى تحتاج إلى هذا النوع النادر من الدم.

اخترق عريف الدورة غيمة الملل التي ظللت رؤوسنا، ونادى بصوت عال باسمي: هشام الواوي.. سيادة قائد الدورة يريدك.

تحركتُ مسرعاً إلى مكتب قائد الدورة. أدخلني الحاجب إلى مبنى القيادة ثم انحرف بي إلى صالة جانبية كان قائد الدورة يقفُ في وسطها وبجانبه ثامر وهو يحدثه كصديق قديم.

شاهدني ثامر فأومأ بيده نحوي، وتحدث مع قائد الدورة قائلاً :هذا هو يا سيدي «الفنان» الذي حدثتُك عنه، المتخصص بالنحت والموازييك والحفر على الخشب، مستحيل تلاقي متله بكل الدورة.

لم يلتفت قائد الدورة نحوي، بل وجه كلامه إلى ثامر: حسناً.. أنجزوا العمل بسرعة فليس لدينا وقت..

ثم خرج من القاعة.

نظرت إلى ثامر بتوجس وريبة، وقلت له: شو القصة ثامر؟؟ لا تورطني. أنا ماني قد فوتاتك...

لم يتخلَّ ثامر عن الحزم المزروع على جبهته، فوضع يده على كتفي

وأشار بيده الأخرى إلى تمثال لحافظ الأسد موضوع في صدر القاعة لم أكن منتبهاً لوجوده إلا بعد أن أشار إليه ثامر. كان تمثالاً بالحجم الطبيعي مصنوعاً من مادة صفراء اللون. كان حافظ في «التمثال» يرفع جبهته بشمم، ويشير بأنفه إلى صدور أعدائه، ويعقد كفيه أمام بطنه آخذاً أقصى درجات الجدية، والنصف الأسفل من التمثال مغطى بقطعة قماش كبيرة تلفه لفاً وكأنها «تنورة».

نظرت إلى ثامر بفم مفتوح من الدهشة والخوف مستفسراً، فابتسم لي ثم أجاب بهدوئه المعهود: أقدام السيد الرئيس كبيرة شوية بدنا نصلحها.

حل ثامر الإزار الذي يغطي القسم السفلي من تمثال الرئيس ووضعه جانباً، بدا القسم الأسفل وكأنه لا ينتمي إلى القسم الأعلى، ساقاه قصيرتان ومنتفختان وكأنهما مصابتان بالدوالي، قدماه ضخمتان متورمتان كمن تَلَقَّى لتوه ضرباً شديداً عليهما، «بالفلق»!! رُكْبَتَا التمثال كانتا منحنيتين وكأن الرئيس مستعد «ليقرفص» وكأن شيئاً متكلساً في ركبتيه يمنعه عن «القرفصة»!

كان التمثال شديد التناقض، ويمكن التخمين أن «الفنان» الذي نحت القسم الأعلى يختلف عن الشخص الذي «نَجَّرَ» القسم السفلي! كان المشهد مضحكاً، والمفارقة صارخة، بمقارنة حضور الرئيس المهيب وهذا التمثال «المسخ» المستعد للقرفصة!

نظرتُ إلى ثامر وشعور بالخوف يجتاحني، بعد أن ضحكت قليلاً. ولكن الشعور بالخوف كنس كل أثر للضحك. ملامح ثامر المتحجرة لم يطرأ عليها أي تغير، وحافظتْ كلُّ خطوط وجهه على وضعها التقليدي. غالبتُ شعور الحيرة والخوف وسألته بلهفة:

- شو نعمل؟؟ وشلون بدنا نصلح هالخريطة؟؟

نظر إلي وقال: بسيطة... نضربه على رجليه حتى يستقيم!

غالبتُ ضحكة كادت أن تنفلت مني، وأشرت له بيدي أن يخفض صوته، ولكنه لم يلتفت إلي واقترب إلى أقرب نقطة من التمثال وأشار إلى وسطه وتابع نظريته في إصلاح التمثال:

- نقطع هذه الزيادة.. من هنا... ونكسر قليلاً من رجليه.. وقد يحتاج الأمر أن نخلع حذاءه ونضع له واحداً جديداً..

أعاد ثامر جميع عباراته أمام قائد الدورة، وتمادى إلى حدود أعمق عندما بدأ يشرح له وضعية القرفصة التي يعيشها تمثال الرئيس، وضخامة ساقيه، وتورم قدميه، والحالة المزرية لركبتيه، وبدا في أقصى حدود الجدية وهو يتابع شرح الخطوات التي سيقوم بها لإصلاحه.

اتخذ ثامر وضعية الفنان بعد أن يتقمصه شيطان النحت، واستخدم يديه بأقصى اتساعهما وتابع شرحه قائلاً:

- هذه الخامة من «الغرانيت» الهش سريع التفتت وقليل القدرة على الثبات أمام عوامل الطبيعة، لذا من المحتمل أن تؤثر مياه الأمطار على التمثال، ودرجات الحرارة المنخفضة ستحفر فيه أنفاقاً صغيرة تجعله عرضة لبيوض الحشرات والهوام، لذلك يُفَضَّلُ طَلْيُه بمواد خاصة ليصبح أكثر قدرة على المقاومة، ويجب رشه برائحة خاصة تجعل الطيور تهرب منه، أما القسم الأسفل فسنجرب المبرد لنأكل بعض قدميه، ولا مهرب من تكسير شيء من ساقيه، وترقيعه بمادة مساعدة.

كان قائد الدورة يستمع إلى سيل العمليات التي ستجرى على التمثال بكثير من الانتباه وهو لا يقوى على النظر في عيني ثامر مباشرة. كان يرمق التمثال ويقيسه من أعلى إلى أسفل بعينيه ويتشاغل بجس جسد الرئيس وهو يهز رأسه موافقاً على كل ما يقوله ثامر، بينما كنت أحاول تقمص دور الفنان الذي سيساعد ثامر في «منح» الرئيس شكله الجديد.

كتب ثامر لائحة بالمواد التي يجب تأمينُها وسلمها إلى قائد الدورة فصرف القائدُ مبلغاً كبيراً من المال لثامر وأعطاه مطلق الصلاحية في الدخول والخروج إلى مركز التدريب ساعة يشاء حتى الانتهاء من التمثال.

أصبحنا ندخل ونخرج من الباب الرئيسي لمركز التدريب بكل حرية ولا يتطلب الأمر أكثر من كلمة «تمثال» فما إن يسمعها الحرس حتى يأذنوا لنا بالدخول، وبعد أيام قلائل أصبحنا زبونين مداومين نخرج صباحاً ولا نأتي إلا في ساعات المساء.

مضى الوقت بسرعة ونحن نأكل ونشرب على حساب التمثال، وثامر لم يلمس التمثال إلا في المرة الأولى عندما فك تنورته. كنت أحس بالتوتر والخوف وأنا أتناول المشاوي والكبب في مطعم المدينة، وكانت أعصابي تلتهب كلما وقع ناظري على التمثال وهو «يقرفص» منتظراً مبضع ثامر. كان هدوء ثامر والثقة التي تطل من عينيه يسريَّان عني فأغرق في صحون التبولة والبابا غنوج.. وكلمات ثامر الممتلئة بالقوة ترن في أذني:

- لك كول هلق.. التمثال مين سائل عنه؟؟

تغيرت نظرية ثامر في آخر يوم من أيام المهلة الممنوحة فقطب حاجبيه ومط شفتيه ودخل إلى مكتب قائد الدورة بخطوة المنتصر في الحرب، أمضى بعض الوقت في الداخل ثم خرج ومعه قائد الدورة وعلى وجهه ابتسامة نصر. صافح ثامر بحرارة وعاد إلى مكتبه.

عدنا إلى صالة التمثال، ساعدت ثامر في بطحه على وجهه، ثم استل منشاراً كهربائياً وقطع التمثال إلى قطعتين متساويتين، استعمل قائد الدورة القسم السفلي كطاولة لأكواب القهوة والشاي، ونقل القسم العلوي إلى مدخل قاعة الشرف حيث نصبه على «برميل».. مطلي بأعلام الوطن!

الفصل العاشر-عسكر الثورة والتصحيح

اغتيال سـياسي *(قصة فنية رواها: الكاتب العالمي رفيق شامي)*

حدث ذلك في الثالث من نيسان ٢٠١٠. دخل المقهى رجلُ مخابرات وأطلق النار بكل برود وكأنه «روبوت»، أو أنه فَقَدَ- عبر مخدر- آخرَ ذرة للوعي الإنساني. أصابت الرصاصاتُ مقتلَ الضحية وقد قام أحدُهم بتصوير الجريمة بجواله خلسة،.. ولم يدر أن رجلين آخرين يراقبان المقهى من الرصيف المحاذي.

بعد أن غادر القاتل المقهى بشكل «نظامي»، والنظامي تعني أنه تابع «للنظام»، واستقل سيارة سوداء بلا نمرة، دخل رجلان كل منهما كاف لوحده لسد الباب والهواء على الحاضرين، فانقبضت أنفاسُ رواد المقهى واصفرَّتْ وجوههم وسقطوا في حالة «ذهول يلجم الحواس».

وقف أولُهما، المفتول العضلات، على الباب ليمنع دخول مزيد من الهواء وخروج أي من الشهود، وتوجه حفيدُ الغوريلا الثاني للرجل صاحب الجوال ورفعه من رقبته وكأنه دجاجة، فَلَعْبَطَ الرجلُ وصرخ دون أن يسمع أحد صوته لأن رقبته أحاطها كاتم الصوت.. ولأن الحضور انهاروا للمرحلة الثانية «فقدان حاسة السمع والبصر».

«هات الجوال يا إبن الأحْبة»! قال الغوريلا بلهجة دمشقية. الرجل المعلق برقبته حاول أن يصل بقدميه الأرض ليشعر بدورانها بعد هذا العذاب كرائد فضاء، لكنه لم يفلح. مد يده اليمنى وأشار إلى جيبه

فدخلت مجرفة بشرية على شكل يد إلى جيب البنطال وأخرجت الجهاز. كل هذا واليد الأخرى لا تزال تحمل الرجل من رقبته رغم احتقان وجهه. ألقى الغوريلا الجوال على الأرض وداس عليه دوسة قدم بقياس خمسين وببسطار عسكري مجهز بمسامير حديدية لكي لا يتزحلق أمثال هذا المناضل المغوار عندما يلاحق ورفاقُه فلولَ الجيش الإسرائيلي المنهزمةَ في الجولان!

صرخت الإلكترونات بصوت خافت، ودخلت شظايا الغلاف إلى قلب الجهاز فأحالته إلى مزبلة. أعاد الغوريلا الهرس والدعس حتى تحول الجوال لبيتزا معدنية بلاستيكية ثم ألقى بالمغضوب عليه فوق ركامه وصاح بزميله:

تعال، أبو الهول، شو واقفلي مثل خيال صحرا؟ تعال فهمه لهالحيوان لحتى ما يعيدها.

- شو خيال صحرا أبو ساطور؟! أنا واقف أحرس الباب لحتى ما يطلع حدا.

- لك تعا، وبدي شوف مين إبن الشرموطة اللي بدو يطلع قبل ما يشوف الحفلة لآخرها.

صرخ الغوريلا وحدق بعيون تظنها عيون تمساح بالحاضرين الذين سقطوا في ما يسمى في الطب الحديث «غيبوبة آنية» وهي المرحلة الثالثة للمرض المنتشر في كل البلدان المحكومة من ديكتاتور.

هجم حفيدا الغوريلا على المسكين المبطوح أرضاً وتناوب كلاهما في ضربه وركله حتى لم يبق مساحة بحجم جواله بدون لكمة أو رفسة. ويقال إن الرجل صاح: «وامعتصماه» لكنه أخطأ عبر فقدان رشده بالقَرْن الذي يعيش فيه. فالمعتصم صارت عظامه «مكاحل» كما نقول في دمشق عمن مات منذ دهور.

نفض الرجلان يديهما بعدها، وصاح ذاك الغوريلا وهو يلهث باحثاً عن أكسجين بعد هذا التدريب الرياضي:

«شفتوا شي يا عرصات؟»

لم يجب أحد. وغادر الأسدان ساحة السيرك وهما يقهقهان ضحكاً.

فهيم- *(رواها: خطيب بدلة)*

محقق كبير، قال لمثقف معتقل، أثناء التحقيق:

- ولاه حيوان، أنتم المثقفين، لا يعجبكم شي يعني؟ ولاه نحن ندعس على رؤوسكم، ولاك أنا..

قاطعه المثقف قائلاً: عفواً، لدي تصحيح صغير.. أنا مو مثقف..

فتهلل وجه المحقق، وشقرق، وقال له: على راسي ربك والله.. يعني أنت كيس وفهيم مثلنا.. ما هيك؟!

جلسات «سَقَافِيّة»- *(رواها: هشام الواوي)*

لم أتوقع أن يكون قائد اللواء، العميد «أبو حيدر» بهذا الشكل. إنه نحيف جداً، وكأنه مصاب بسوء التغذية. رأسُه كبير، وثمة جحوظ خفيف في عينيه. ولعل أكثر ما يميزه شعر رأسه الكثيف مثل «سياج الدخل»، الخشن مثل كيس الخيش.

نبهني عناصرُ العميد «أبو حيدر» ومرافقوه إلى أنه رجل محترم جداً، ويحب «المُسَقَّفين»! لذلك فهو يحرص، شخصياً، على مقابلة كل الدكاترة والمهندسين الذين يتم فرزهم إلى لوائه، يمازحهم ويجالسهم ويستأنس بآرائهم.

نهض العميد أبو حيدر، حينما زرتُه أول مرة، واقفاً، ورد تحيتي برصانة عسكرية، ودعاني للجلوس، وجلس إلى جواري. ضحك، وهز رأسه، تحدث

إلي باهتمام وهو يهرش «الدغل» المتلبد فوق رأسه. وعندما انصرفت وقف على قدميه مجدداً، معبراً عن احترامه إياي.

تقاسمت الغرفة مع طبيب مستوصف اللواء الدكتور «أيمن». إنه شاب نحيل كأنه قفز من أحد أفلام الكرتون. طويل. كل شيء فيه طويل، حاجباه مقفولان بشدة على شكل طائر متأهب للطيران. هيئته لا توحي بالثقة رغم لقب الدكتور الذي يسبق اسمه. يتحرك بخجل ويتكلم بصوت هامس، يخيل لك أنه يمشي على رؤوس أصابعه، ورأسه عبارة عن مخزن كبير للكتب التي مرت معه كلها منذ الصف الأول الابتدائي. ولدى تخرجه من كلية الطب بقيت الكتب الجامعية منقوشة في ذاكرته بأرقام صفحاتها، ورسومها، وكل تفاصيلها المهمة، وحتى التافهة.

كنتُ والدكتور «أيمن» نَجْمَي جلسات «السَّقَافة» التي كان يعقدها العميد أبو حيدر في مناوباته الليلية. كانت، غالباً، تقتصر علينا نحن الثلاثة. ففي عُرف أبو حيدر أن «المُسَقَّفين» هم الأطباء والمهندسون فقط، وأما غيرهم من حَمَلة الإجازات في العلوم أو الآداب فلا ينطبق عليهم هذا الوصف.. وكان يعاملهم بطريقة مختلفة، عن معاملة «المُسَقَّفين» الكبار أمثالنا.

كنا نمارس «السَّقَافة» مع أبي حيدر على طريقته.. فقد كان هو يتكلم ونحن نصغي إليه، ونهز رؤوسنا المحشوة بال (سَقَافة) كالحمير!.. كان، على ما يبدو، يقرأ شيئاً في النهار، ويردده على مسامعنا في المساء لكي نعرف أي «مُسَقَّف» هو!

كانت الجلسات السقافية تبدأ حين يطلبنا أبو حيدر، وتنتهي حين يقول لنا «يا الله، قوموا بقا.. نعسنا».

كان أبو حيدر، «كما قال لنا في إحدى الجلسات» من ألد أعداء الفكر

الطائفي، ويكره الأسماء ذات الدلالات الطائفية كـ عُمَر، وخالد، ولكي يسمو بنفسه فوق هذه «السفاسف» فقد أسمى أولاده: سومر، ومنال، ويعرب.

لم يكن العميد أبو حيدر يستعمل يده بالضرب، لأنه- كما قيل لنا- قوي جداً وممكن أن يسبب لمن يضربه عاهة دائمة! كانت عقوباته تقتصر على الحلاقة (على الصفر)، وفي هذه لم يكن يوفر كبيراً ولا صغيراً. ففجأة يصرخ بأعلى صوته:

- عدنان!

وتجحظ عيناه بشدة، ويتطاير اللعاب من فمه، فيما عدنان يهرع مسرعاً وفي يده ماكينة حلاقة صينية مصنوعة من الستانلس ستيل، وزيت الزيتون يقطر منها.

كان أبو حيدر يحب مراقبة طقس الحلاقة. يتفرج على المجند المعاقَب وهو يركع أمام مكتب قائد اللواء وتتحرك في رأسه ماكينة الحلاقة بسرعة. كان يبتلع ريقه مراراً بتلذذ وهو يشاهد خصلات الشعر تسقط على الأرض، ويشعل حماس الحلاق عدنان عندما يردد بنهم:

- آخ خ خ خ.. عالصفر عدنان، عالصفر. بدي ياها تلمع!

وما إن تنتهي الحلاقة حتى يصيح أبو حيدر صيحة انتصار مخاطباً حلاقَهُ:

- الله يسلم هالديات ولك عدنان!

كان الدكتور أيمن يجهز نفسه للخروج عندما دخلتُ إلى الغرفة، وفاجأني بقوله:

- ما بدك تروح؟

- لوين بدي روح؟

- العميد أبو حيدر ما طلبك؟

- لا.... ما طلبني. العميد، بالعادة، يطلبنا ليلاً، لأجل سهراته «السقافية». ولكن لماذا يطلبنا الآن؟

سقط الدكتور أيمن على الكرسي، وزاغ بصره، وتمتم بحيل مقطوع:

- ولي. لكان شو بدو مني لحالي؟

دفعتُ الدكتور أيمن دفعاً ليذهب إلى مكتب العميد. لم يتأخر خروجه وهو جاحظ العينين أكثر من العميد نفسه، كاد حاجباه يرفرفان من شدة الذعر. وحينما عاد، ومن دون أن أسأله عن أي شيء، قال، وكأنه يستحضر روح ميت غائبة:

- العميد أبو حيدر معه «تعلبة»!

مططتُ رقبتي لأستفهم أكثر، فعاد الدكتور أيمن يتمتم جملته ذاتها:

- العميد أبو حيدر معو تعلبة في رأسه.. أنا شو بدي ساوي؟

استوعبت الفكرة، وجاءني سؤاله كوحي السماء، فأجبته بسرعة و دون وعي:

- احلق له، على النمرة صفر!

أخذ الدكتور أيمن وقتاً طويلاً حتى استطاع أن يستوعب الفكرة.

ثم خرج مسرعاً باتجاه مكتب العميد. وحينما وقف أمامه بدأ يشرح له فوائد حلاقة الشعر على الصفر في حال وجود «التعلبة»:

- لأنها، يا سيدي، إذا لم يُحلق الشعر، ممكن تمتد بسرعة، ووقتها ستحرق ما يحيط بها، وسوف يعم التصحر رأس سيادتك.

جلس العميد أبو حيدر على كرسي في وسط مكتبه. وضع له الحلاق «عدنان» الفوطة الناصعة البيضاء حول رقبته. دس عدنان ماكينته في شعر العميد الكث، وأخذت «كتل» الشعر السوداء تتساقط على كتفي

العميد، وتنهمر على الأرض كالأبنية المتداعية. لعلها أسرع حلاقة في تاريخ هذا الحلاق، فسرعان ما خلا رأسُ العميد من الشعر تماماً.

أنا شخصياً لم أستطع مقاومة جملة انطلقت على لساني:

- الله يسلم هالديات يا عدنان!

برافو سيدي- *(رواها: إياد جميل محفوظ)*

في السنوات الأولى لانقلاب الحركة التصحيحية ١٩٧٠، ظهرت في سورية شخصيات جديدة نافذة.. امتلكت ميزات وسلطات متفردة، جعلتها تتبوأ درجة عالية لا يدانيها قانون، ولا يقاربها أي نوع من أنواع المساءلة.. ومن هؤلاء اللواء «علي حيدر» قائد القوات الخاصة الذي كبرت شخصيته أكثر بعد حرب تشرين ١٩٧٣..

عُرف عن اللواء علي حيدر حُبُّه للرياضة وولعُه بممارستها.. وهذا شيء عادي، بل هي خصلة محمودة.. ولكن أن تُغْلَقَ أبوابُ مدينة «تشرين» الرياضية بمنطقة البرامكة في دمشق يومياً من الساعة السابعة إلى التاسعة صباحاً، وتُحجز المدينة له وحده، فهذا أمر محير وغريب.. وأن يُساق العديد من نجوم المنتخبات السورية بكرة السلة، وكرة الطائرة، والسباحة، للخدمة في القوات الخاصة، ويُفَرَّغُوا للَّعِب معه في تلك الفترة الصباحية دون أن يقوموا بأي فعل آخر ذي فائدة في بقية ساعات النهار.. رغم أن أغلبهم كان يحمل شهادات علمية عالية.. فهذا أمر مثير للتعجب والدهش.

على أن الذي بات يجري في الكواليس كان أدهى وأمر.. إذ استغل أحدُ مساعديه- وهو المقدم «ح . ج»- حبَّ «علي حيدر» للرياضة، واستفاد من أن كلمته لا تُرَدُّ، ولا يجرؤ أحدٌ على رفض رغباته، في سحب العديد من العساكر «غير الرياضيين» إلى الوحدات الخاصة، وفرزهم إلى الصالة

الرياضية بحجة تأمين العدد الكافي من اللاعبين ليؤدوا واجبهم الوطني تجاهه، وذلك مقابل مبلغ من المال يتراوح بين عشرة آلاف، وخمسة عشر ألف ليرة سورية.. وأنا لا يسعني الجزم، أين كانت تذهب تلك الأموال، إلا أنني على يقين تام أن كثيراً من أولئك المجندين خدموا عسكريتهم في منازلهم، وليس في الصالة الرياضية، وربما لم يتعرفوا عليها إطلاقاً.

... ومن الحوادث الطريفة التي أذكرها، تلك التي جرت معنا خلال استعدادات المنتخب الوطني لكرة السلة لإحدى الاستحقاقات في العام «١٩٨٢».

فبينما كنا نقوم بأداء التمرين في إحدى صالات الاتحاد العسكري بمنطقة المزرعة في دمشق، تحت إشراف المدرب الوطني الكبير المرحوم «أحمد صادق»، وإذ باللواء «علي حيدر» يفاجئنا بالدخول إلى الصالة،.. فما كان من أغلب اللاعبين إلا أن توقفوا عن اللعب، وتوافدوا إليه مرحبين به ومؤهلين.. إذ كان معظمهم قد خدم عسكريته بترييضه وتسليته في صالة تشرين الرياضية.. وطلبوا منه الانضمام إلينا.. فدبت الحماسة فيه، واندفع نحونا وفي عينيه يلمع بريق يشي بنيته على إظهار مهاراته بكرة السلة.. واختار أن يقوم برمي الكرة من منتصف الملعب إلى السلة على طريقة لاعبي أمريكا المحترفين.. وتوالت المحاولات وسط هتاف اللاعبين بالعبارات التشجيعية التي دأبوا على ترديدها سابقاً، ويعرفون أنه يحبها، وتلقى الرضا لديه «برافو سيدي، طيبة سيدي، يا الله سيدي»، ولا أعرف في تلك اللحظات فيما إذا كانوا بهذه الهتافات يضحكون عليه، أم أنه كان بسلوكه هذا يستهزئ بنا جميعاً.

وبما أن الكرة لم تعرف طريقها إلى السلة.. فقد تقاطرنا واحد تلو الآخر على شكل طابور حاملين كراتنا لتأمين استمرارية تسديده إلى السلة مرة بعد مرة.. وعلى إثر ذلك توقف التمرين نهائياً حوالي عشرين دقيقة.. وسط

ذهول المدرب الذي تنحى جانباً لإخفاء امتعاضه وغضبه الشديدين..

غادرنا «علي حيدر» ممتعضاً ساخطاً دون سلام أو كلام.. في حين كانت الغصة تضج في نفوس لاعبي المنتخب السوري.. إذ لم يتمكنوا من إدخال البهجة والسرور إلى صدر هذا الرجل المهم جداً، جداً، جداً.

حافظ الأسد حقير، ولكن وجهه وجه الخير- *(قصة فنية روتها: فاطمة ياسين)*

ثمة خطأ- أُرَجِّحُ أنه غير مقصود- ارتكبه كابتن طائرة الميغ ٢١ في ذلك اليوم. فبدلاً من أن يُلقي حمولة طائرته على الهدف الذي تسميه القنوات الحكومية «تجمعات الإرهابيين»، أفرغها على مقبرة المدينة، وأصابت إحدى القذائف قبر الصيدلاني «سين، صاد»، فلم يعد للقبر ولا لرفات المرحوم وجود، بل إنه تحول إلى حفرة لا يقل عمقها عن ستة أمتار..

حصل «سين، صاد» على شهادة الصيدلة من الاتحاد السوفيتي، موفَداً من قبل القيادة القطرية لحزب البعث العربي الاشتراكي، وعاد إلى سوريا في أواخر شهر تشرين الأول من سنة ١٩٨٣، فكان محظوظاً إذ «لحَّقَ» المشاركة في احتفال الشعب بالذكرى العاشرة للانتصار التاريخي على العدو الصهيوني، ثم في الذكرى الثالثة عشرة لقيام الحركة التصحيحية، وكان ما يزال شاباً، لذلك لم يكن يتعب من السير في مسيرات التأييد للرئيس البطل والدبكة في مواقع إلقاء الخطابات والتدشين..

حصل على معادلة شهادته بالشهادة السورية، بسهولة بالغة، وافتتح صيدلية كان حرياً به أن يكتب عليها «من منجزات الحركة التصحيحية»!

المهم أن «سين، صاد» كان رجلاً جشعاً ويحب المال حباً جماً، حتى كان يقال- على سبيل التنكيت- إنه كان يُصَلّي، يومياً، ركعتين يسميهما «ركعتي الرزق»، وفيهما يطيل السجود، ويمرغ جبهته بالأرض، وهو يتضرع

إلى الله بذل وانكسار سائلاً إياه أن يُكثر ماله، ويقلل مصروفه، ويؤخر جوعه وجوع عياله عن مواعيد الوجبات، ويجعل الناس الكرماء يأتون في طريقه، ويُبعد عنه البخلاء والنصابين والجشعين والذين يحسبون الأمور على الديزم.

ورغم أن مهنته مصنفة- عالمياً- على أنها مهنة إنسانية، ولا يتخرج منها أحدٌ إلا إذا أدى قَسَماً مغلظاً على أن يلتزم بأخلاقياتها ويحافظ على سمعتها، ويُقيمها مقام الوالد الجليل والوالدة الحنون، كان صاحبنا لا يتوانى عن تزوير الوصفات الطبية، فيضيف علبة من كل نوع مكتوب، ويضع خاتم الصيدلية لبعض الموظفين الغشاشين الذين يقبضون ثمن الأدوية من مؤسساتهم ودوائرهم الحكومية بناء على خَاتمَهِ، لقاء عمولات صغيرة، وأحياناً يُعطي أدوية غير مناسبة للحالات التي يستشار فيها، لسبب بسيط هو أنها أدوية كاسدة، ونسبة الربح على مبيعاتها مرتفعة، وغالباً ما كان يبيع للناس أدوية منتهية الصلاحية!

في إحدى المرات راجعه مريض يحمل في يده علبة دواء ابتاعها من عنده وقال له:

- تفضّل هادا الدوا منتهية صلاحيته..

فنظر في العلبة، وقلبها على وجوهها المتوازية، ثم رفع نظره إلى الرجل وقال له:

- أنت تسب على حافظ الأسد ولاك حيوان!.. وتقول إن على زمان هادا القائد التاريخي العظيم تُباع أدوية مغشوشة ومنتهية الصلاحية؟؟..

ذُعر الرجل من شدة الخوف، وترك علبة الدواء على طاولة الصيدلاني، وهرب وهو يتلفت وراءه.

جدير بالذكر أن «سين صاد» كان، وكرد جميل على البعثة التي أرسلته فيها القيادة الحكيمة، التي، على أثرها، حصل على شهادة الصيدلة، يقوم بكتابة التقارير بحق زملائه الصيادلة ويحكي عنهم (شي كان وشي ما كان).. والشيء المضحك هو أن صيادلة المدينة، وحتى صيادلة المناطق الريفية، كانوا يغلقون صيدلياتهم في أوقات الدوام الرسمي ويزورون أفرع الأمن المختلفة، كل واحد بحسب طبيعة التقرير الذي سطره بحقه (سين، صاد)، ونوع التهمة التي نسبها إليه.

والأغرب من هذا كله، هو أن هذا الصيدلاني المخبر لم يكن يخجل من مهنته الثانية التي تنطوي على كتابة التقارير بالصيادلة.. بل كان زملاؤه يرون التقارير الموقعة منه، باسمه الصريح، في أفرع الأمن بأعينهم، وفي كل مرة يلتقون عند مكاتب الاستعلامات، فيسلمون على بعضهم البعض بحرارة، فهم يشعرون بشيء من الزمالة التي عُرفت باسم (زمالة التقارير السين صادية)، وهي أقوى من زمالة العمل، وأكثر حميمية.

وكانت حكاياتهم عنه، وشتائمهم له، تصل إليه بطرق مختلفة، ولكنه لا يهتم، ولا يهتز، وقد روت عنه زوجته، بعدما مات، أنه كان يسر لهاتيك الشتائم، لأنها تعني أن تقاريره تفعل فعلها في «الخصوم»!..

الطريف في الأمر أن الزوجة، وفي جلسة صفا بينها وبين إحدى جاراتها، همست لها بأنه كان يكره حافظ الأسد كثيراً.. ولكنه يَكُنُّ له شيئاً من الاحترام، ويقول لها:

- حافظ الأسد حقير، أي والله، لكن والله وجهه وجه رزق!

بعد ذلك اليوم، تخلصت زوجته من ذلك الواجب الثقيل الذي يقضي بزيارة قبر الميت والترحم عليه، فطائرة الميغ ٢١ أخفت كل أثر لرفاته عندما قصفت المقبرة!..

أبو قدري الذي شَحَطَتْهُ الفئة الباغية: *(رواها: ماهر حميد)*

وجد أبو قدري، بعد سهرة عامرة، طريقة مثلى لدفن الفقر بعد أن عجز عن دفنه بواسطة وظيفته في مؤسسات الدولة. فبجوار قريته يقع مضيق «العكيرشي» حيث وقعت معركة صفين، والإيرانيون يروحون ويجيئون إلى مدينة «الرقة» لترميم قبر الصحابي الجليل عمار بن ياسر (الذي قتلته الفئةُ الباغية) ويصرفون الكثير من النقود هناك.

ولأن أبا قدري يعتبر الإيرانيين هم الفئة الباغية فقد قرر أن يكسب من نقودهم كسباً حلالاً. نقر كأسه بكأس نديمه وقال له:

- اسمع أيش بدي أقلك. بدي افتح خمارة عند مضيق العكيرشي.
- خمارة؟!! أعوذ بالله، ووظيفتك؟
- رح استقيل وآخذ التقاعدية تبعي. قضيت هالعمر في الوظيفة، وطلعت بالأخير زملُّوطي(١). ما إلك علي يمين، المدير مقاسمنا بكل ليرة تطلع لنا، ما يشبع هالابن الكلب.
- طيب ليش بدك تفتحها بالعكيرشي؟
- تجيك الأخبار.

وبعد السَّكْرة ذهب أبو قدري وعاين المكان واختار موقع خمارته. ولم يُضِعْ وقته، فنصب (عرزيلته) وافتتح «خمارة المضيق»!.. وكان يتندر باسمها فيقول (ما بعد المَضيق إلا الفَرَج).

كانت خطته أن الإيرانيين سوف يعز عليهم افتتاح خمارة في موقع معركة «صفين»، وسيرسلون مندوباً عنهم يفاوضه على إغلاقها، وسيقوم هو بالتمنُّع حتى يحصل على مبلغ محترم يوسع به على نفسه وعلى أولاده.

تأخر الإيرانيون بالحضور، فأرسل بعض أصحابه (من تحت لتحت) لينشروا الخبر بينهم. لكن دون جدوى.

ومرت الأيام ولم يصل غير سائقي الشاحنات وبعض أبناء المنطقة، وأخيراً زاره مندوبٌ من الأمن السياسي.

- مرحبا أبو قدري.

- أهلين أبو سليمان. يا حي الله. شرفتونا.

وعاجَلَه أبو قدري بكأس مع مازتها.

- لك ما عم نشوف منك شي أبو قدري.

- إنتوا بس شرفونا وأحلى طاولة تخدم شواربكم سيدنا.

- لك لاء، لاء... مو هاذا يلي بدنا اياه.

- نحن بالخدمة سيدنا.

بدنا إياك تخدم الوطن وتبلغنا أول بأول عن هالشوفيرية العرصات (٢) شو عم يحكوا لما يسْكَرُوا... وكمان أولاد المنطقة يلي يجوا يسهروا عندك، لأنه مثل ما تعرف السكران ما يخبي شي.

وهكذا ورغم أنفه أصبح أبو قدري خادماً للوطن بأن أصبح مسؤولاً عن ملف السكارى الأمني.. نعم، صار أبو قدري (الذي كان ضئيل الجسم سريع النكتة ونديماً جيداً وشريب كاس يبرد القلب) مُخْبراً.

كان بعض الزبائن يحلفون عليه بشرب كأس معهم، وهو لا يكسر يمينهم، يشرب كأساً وكأسين وثلاثاً ويشرب ويشرب حتى يسلطن ويصبح كمن يبيع العرق ويسكر عليه.

واحد من الزبائن، بعدما سكر معه سكرة ثقيلة. بلش يسأله:

- ما قلتلي شلون الشغل معك؟

- زفت.

- له له. ليش بقى؟

- أولاد الصرامي الإيرانية ما أجوا ولا بعثوا مندوب عنهم. وحتى تكمل معانا أجونا أولاد الكلب وقال بدك تخدم البلد يا أبو قدري وتكتب تقارير.

- تقارير؟

- أي، ورحمة أبوي تقارير. هم نهبوا البلد وبدهم أبو قدري هو يخدم البلد.

- أي والله، صدقت، قصة الآثار يلي نهبوها كل العالم سمعانة بيها ولا هم سائلين.

- هي وقفت على الآثار؟

وتابع أبو قدري يفضفض لنديمه، وما ترك ستراً مغطى على حدا، المحافظ وأمين الفرع وأعضاء الفرع وأمين الشعبة والأمن والحكومة.. لك لا تقلي ولا آني أقول لك. يلعن أبو الزين بيناتهم من كبيرهم لصغيرهم.

وفي اليوم الثاني جاءت سيارة الأمن الحمرا واعتقلوا المومأ إليه أبو قدري الخائن وصادروا البضاعة وهدموا عرزيلته وشحطوه شحطاً إلى السيارة.

(**مفردات**. العرزيلة: مكان بسيط يشبه الخيمة- زملوطي: فقير جداً- الشوفيرية العرصات: السائقون القوادون).

جيرة- *(رواها: سمير سعيفان)*

أذكر أنني، في عام ١٩٩٥، ذهبتُ لزيارة «فخري كريم» عضو المكتب السياسي للحزب الشيوعي العراقي ورئيس تحرير مجلة «النهج» التي كانت تصدر في دمشق آنذاك بموافقة السلطة ولكن بدون ترخيص، وكان

يسكن في مساكن برزة مسبقة الصنع في الدور الأخير في إحدى البنايات، وعندما دخلت البناية فوجئت بعسكري مسلح يسألني (إلى أين؟) فأخبرته بوجهتي، فتركني وشأني، وصعدت الدرج ولكني طرقت- بالخطأ- باب البيت في الطابق الذي يقع تحت بيت فخري كريم، وشعرت فوراً أنني ارتكبت خطأ، لملاحظتي أن أحدهم ينظر من المنظار الصغير أو «العين الساحرة» كما نسميه، دون أن يفتح الباب ثم سمعته يتحدث بالهاتف، ثم سمعت خبطات العسكري المسلح تصعد الدرج مسرعة، فقابلته في منتصف الدرج، وبدا لي مرعوباً، فقد اتصل به الشخص الذي طرقت بابه بالخطأ وقرّعه على هذا الخطأ، ولامه لأنه لم يرافقني إلى باب شقة فخري كريم. ثم عدت وصعدت ثانية إلى شقة فخري كريم الذي أخبرني أن القاطن في هذه الشقة هو ضابط صغير اسمه «عاطف نجيب» ابن خالة بشار الأسد، وقد أحضر معه نحو ٢٠ عنصر مرافقة، فاحتلوا قبو البناية (مع أنه مُلْكٌ لجميع أهالي البناية) وفرض رقابة مزعجة على كل من يدخل ويخرج للبناية وعلى تصرفات السكان في الحارة كلها ولا أحد يستطيع أن يفعل له شيئاً، وينتظر السكان مغادرته للحي بفارغ الصبر.

موقع إلكتروني محلي- *(رواها: محمود نحلاوي)*

كان لدي موقع الكتروني ذو طبيعة اجتماعية اسمه «إدلب الخضراء».. استدعوني، ذات مرة، إلى فرع الأمن السياسي بإدلب، بتهمة الإقدام على نشر دليل هاتف مدينة إدلب على الموقع!

قال لي الضباط المحقق، وهو برتبة رائد: أنت كيف تسمح لنفسك أن تنشر هواتف الناس على الإنترنت؟ بترضاها رقم بيتك ينتشر؟

قلت: ولكن رقم بيتي موجود، ورقم أهلي وبيت حماي.

اندهش، وقال لي: وهيك، كل الناس بتشوف الرقم؟

استغليت فكرة أن الضابط أميٌّ في مجال الانترنت فقلت له:

- ولكن هذا الموقع لا يراه إلا أهل إدلب!!!

انفرجت أساريره وقال لي: إذا هيك، يعني الشغلة بين بعضنا، ما هي مشكلة!

عبد الرؤوف الكسم- *(رواها- خطيب بدلة)*

في يوم ربيعي.. أواسط الثمانينات، استدعانا مديرُ الدائرة الحكومية التي كنتُ موظفاً فيها إلى مكتبه، وأبلغنا، بكثير من الذوق والكياسة، أن الرفيق المناضل حافظ الأسد، القائد التاريخي المعطاء، أوفدَ رئيسَ الحكومة الدكتور «عبد الرؤوف الكسم» إلى محافظة إدلب، وفاءً منه لكل شبر من أرض الجمهورية العربية السورية، وحباً من سيادته لكل فرد من أفراد الشعب العربي السوري (المحظوظ بقيادته)!

سأله واحدٌ من الموظفين القدامى، بطريقة مُلَغَّزة، وعلى وجهه ابتسامةٌ غَلَّابة:

- ومين هذا «الكسم» بلا صغرة؟

كان الاستعمال الوحيد لكلمة «الكسم» في سوريا، آنذاك، هو قول الناس لأحد ما، من قبيل التوبيخ: تضرب في ها «الكسم» ولاك حيوان!..

انتبه المدير لعنصر التلغيز، فسارع يوضح لنا أن السيد عبد الرؤوف الكسم ليس من عامة الناس- كما تظنون- فهو دكتورٌ في الهندسة على سن الرمح، وكان عميداً لكلية العمارة والفنون الجميلة.. وليكن معلوماً لديكم أن حكمة القائد الأسد التي تبلغ حدود «الإلهام» هي التي جعلته يختار هذا الرجلَ لقيادة الحكومة في هذه المرحلة البالغة التعقيد من عمر سوريا الأسد!..

ومع أن مديرنا مشهودٌ له في مجال الغباء والسطحية، إلا أنه تمكن من

نقل فكرة إلينا مفادُها أن الدكتور «الكسم» إنما هو رئيس وزارة من النوع «التكنوقراط».. وشرح لنا معناها قائلاً: يعني مو شرط التعيين أنه بعثي، أو محسوب على عائلة الأسد، .. ولكن لأنه خبير، وفهيم، ومحترم!

واختصاراً للأخذ والرد، فقد «أعطانا» المدير «من الآخر»، وقال إن العقل والمنطق السليمين يتطلبان منا أن نَهُبَّ، الآن، هَبَّة الرجل الواحد، ونترك الدوام، «ملعون أبو الدوام!»، والشغل، والأضابير، ونخرج، ونسير باتجاه شارع القصور، لنحتفي بالدكتور عبد الرؤوف الكسم، ليس إكراماً له، بل لقائدنا التاريخي على أقل تقدير!..

وأضاف مُنْهِياً الاجتماع بنوع من الوعيد: آمل الالتزام. وفي المحصلة كل إنسان يُسأَل عن عمله!

نفذنا أمرَ مديرنا، كما ينبغي لموظفين عاقلين أن يفعلوا، وخرجنا عابرين «شارع الجلاء»، جنوباً، باتجاه شارع القصور، فوجدنا مجموعة من الرجال قادمين من جهة فرع الحزب، وكان في انتظارهم، عند إشارة المرور، قدام مجلس المدينة، خمسون رجلاً على وجه التقريب، ومعهم طَبَّال «مخضرم»، وزَمَّار «أخو حَفيانة»، وحينما شارف الطرفان على الالتحام، بدؤوا يغنون ويهتفون «بالروح بالدم- نفديك يا حافظ».. ونحن اندمجنا بهم فازداد العدد..

فرح الشباب القادمون من الفرع، في لحظة الالتحام، وتهللت وجوههم، ودب فيهم الحماس، ودخلوا في الحالة.

وفجأة تقدم أحد أعضاء الفرع، وهو «إنسان مُطَعَّم على كديش»، من رجل أسمر، نحيف، ينقط منه القبح، ودحش رأسه بين ساقيه، ورفعه إلى الأعلى ومشى به..

خاف الرجل الدميم من أن يوقعه الرفيقُ الشبيه بالكديش على الأرض، فتَمَسَّكَ برقبته مثل «العلّيق»، وتقلقل بعض الشيء، وحينما اطمأن

إلى سلامة «الهودج»، دخل في الحالة، و«أخذه الحال» مثل «دراويش الملاخانة»، وشرع يصيح ملوحاً بيديه:

بالروح بالدم- نفديك يا حافظ.. قائدنا للأبد- الأمين حافظ الأسد.

وقالوا لنا، لحظتئذ، إن هذا هو الدكتور المهندس «التكنوقراطي» عبد الرؤوف الكسم!

عيد الفسفس- *(قصة فنية، رواها: هشام الواوي)*

كان الدخول إلى الكلية الحربية أمراً مرعباً. البوابة الواسعة يحرسها مدفعان قديمان على الجانبين، وثمة جنود بملابس رسمية نظيفة وقبعات حمراء، مدججون بالسلاح.

كنت أحمل حقيبتي وألوذ بزملائي بوجل خجول، وأتصنع ابتسامة لا مبالاة على طريقة الأطفال الذين دلقوا الطناجر في المطبخ ثم اختفوا خلف نظرة بريئة قد تخفف من غضب الأمهات.

عبرتُ المدخل بعد تدقيق الهويات.

خلف حاجز الباب الرئيسي بخطوة زعق فينا صوت فتي آمر:

- يلا لشوف اصطفوا رتلاً ثنائياً!

وكقطار مثخن، تحرك رتلُنا الثنائي، والتَهَمنا البابُ الضخم.

قطعنا المسافة الفاصلة بين باب الكلية الحربية والمبنى الإداري، (تبلغ خمسمئة متر تقريباً) وما إن أصبحنا في الداخل حتى أطلقوا علينا لقب «طلاب ضباط مجندين».

لم أشعر أنني في «كلية». بل شعرت بأنني معتقل، أشهق عندما أرى وجوهاً لا أعرفها، وأتصنع أكبر قدر من اللطف، وأحاول أن تكون ابتسامتي كالوحمة التي لا تزول.

تقاضى الحلاق أجراً عن جز شعري ع «الزيرو»، وفاجأني بقوله «نعيماً».

غسلتُه بابتسامة معاتبة، وتحركت في الرتل الذي أصبحتُ إحدى عرباته.

لم نكن قد استلمنا الألبسة الرسمية بعد. والتقاليد السارية هنا أن الأوامر العسكرية لن تصب فوق رؤوسنا إلا بعد أن نتسربل بالأزياء «الكاكية».

كان بعضٌ من زملائنا قد سبقونا في الالتحاق بالدورة. كنا نراهم يتراكضون في الممرات، ويتلقون إيعازات بالانبطاح والاستلقاء بطاعة عمياء.

شاهدتُ «محمد باسل» وهو الأول على دفعتي بمعدل سبعة وتسعين بالمئة، يهرول بنشاط، وعلى وجهه نظرة بلهاء. جاءه إيعاز «جاثياً»!.. فانهار، مثل كيس البطاطا، على ركبيته، واضعاً كلتا يديه خلف رأسه فأصبح كالأسير. قهقه طالب الضابط الذي أعطاه الأمر منتصراً، ووجه كلامه إلينا:

- هيك بدي ياكون تصيروا.. يا طراطير.

الوقت هو العدو الرئيسي في الكلية الحربية قبل الاستعمار، وقبل الصهيونية، وحتى قبل الرجعية. لا تريد عقارب الساعات أن تتخلى عن أمكنتها، وكأنها جيش يائس يتمسك بمواقعه حفاظاً على حياته.

ابتكرنا أشكالاً غريبة من الروزنامات والتقاويم التي تعرض استهلاك الوقت بالشهر والأسبوع واليوم وحتى بالثانية. نمارس الرياضة العسكرية ونحن نحسب الوقت، التدريب.. الاجتماعات.. العقوبات.. كل ما فعلناه في الكلية الحربية كان طريقة «فنية» لتسريع الوقت، والوقت كائن سافل يعرف كيف يتحكم بضحاياه يعصرها، يفرمها، يفتت أكبادها قبل أن يستهلك ثانية واحدة.. دواليكَ حتى ظهر الكائن اللطيف المعشر الأحمر اللون الذي يعشش في الحشايا والحنايا ويتغذى على الدماء فقط.

لقد ظهر «الفسفس» في سرايانا.

عقدت قيادة الكلية اجتماعاً فوق العادة لإقرار خطة لمواجهة هجوم الفسفس، واتخذت، بعد اجتماعها، قراراً تاريخياً بالضرب بيد من حديد على الفسفس و«بَخِّه» بالأسلحة الكيماوية!.. وبما أن المواد القاتلة للفسفس ضارة بالبشر، فقد تقرر إعطاءنا نحن الطلاب إجازة مدتها ثلاثة أيام خلال فترة «البخ»!

سرى قرار الإجازة كالنار في الهشيم، وتداولناه كأحد النصوص المقدسة. كنا نمر أمامه في لوحة الإعلانات، ونؤدي له التحية العسكرية!!

كان فرحنا عارماً، وفياضاً. وكان يوم إعلان القرار عيداً وطنياً تبادلنا فيه التهنئة، ولم ننس الفسفس تلك الحشرة الوديعة التي تدس خرطومها بمهارة تحت الجلد و تشفط ما لذَّ لها من الدماء وطاب. حرصنا على توفير وسائد مريحة لها وكنا نتحاشى «فعسها»، واعتراض طريقها، ومنعها من التكاثر براحة.

أخيراً. أطلقنا على أيام العطلة الثلاثة: «عيد الفسفس».

لم نكن نعرف بطبيعة الحال متى سيحل «عيد الفسفس» لأن تنفيذ قرار التطهير «الفسفسي» بحاجة إلى مضخات رش وإلى أدوية ومحاليل فعالة. كما أنها بحاجة إلى خبراء بخ، وتحضير كل ذلك بحاجة إلى وقت واجتماعات وقرارات لا تقل خطورة عن قرار «البخ» بحد ذاته!

وقبعنا ننتظر، ضارعين، حلول العيد. كانت الشائعات كثيرة وكبيرة ومتناقضة:

شي قالوا: المضخات والبخاخين أجوا ولسه ما وصل الدوا.

وشي قالوا: لأ، الدوا موجود، والمضخات والبخاخين كلو موجود، بس ناقص «برابيش» البخ.. وهاي بدا استيراد من إسبانيا.

رجحنا الرأي القائل بنقص في «البرابيش» باعتبار أن تأمين البرابيش أسهل من تأمين الأدوية واليد العاملة اللازمة للبخ. وانتشرنا في زوايا الكلية الحربية وتكاياها نتحدث عن الفسفس والبخ والأدوية ونحن نهرش جلودنا المحمرة من تأثير العض.

جاءت الأدوية والأجهزة وكل مستلزمات المعالجة، ولكن عيد الفسفس جاء متوافقا بطريقة «مؤامراتية» مع الحركة التصحيحية! فدمجوا العيدين معاً، ولم نغادر الكلية لنقضي إجازاتنا قبل أن نرفع أصواتنا بالهتاف.

لم يكن الهتاف، بأي حال، للفسفس!

زوجة المعلم- *(قصة فنية- رواها: خطيب بدلة)*

كانت لأحد قضاة محاكم أمن الدولة زوجةٌ صغيرة، جميلة، دلوعة،.. كثيرة التدخل والاشتباك في حياة زوجها المهنية.. اسمها «فضة».. وكانت تُعرف في الوسط الاجتماعي الذي تعيش فيه باسم «فرفر»..

كثيراً ما كانت «فرفر» تدعو صويحباتها بنات القرية «أو المنطقة» التي أتين منها، وهن زوجات ضباط كبار في الجيش والمخابرات، وزوجات مسؤولين رفيعي المستوى في مفاصل الدولة الحساسة، إلى الفيلا الخاصة بها، أو إلى أحد الفنادق ذات الـ خمس نجوم..

وبينما يكون الخدمُ والندلُ منشغلين بتقديم أفخر أنواع الأطعمة والمشروبات للضيفات لا تتوقف «فرفر» عن الكلام وهي تتحدث عن إنجازات زوجها الذي تناديه باسمه مجرداً من الألقاب، أو تكني عنه بكلمة «حبيبي»، بينما يناديه الآخرون: «المعلم»،.. وهو «معلم» فعلاً في مجال سَجْن المعارضين لنظام الحكم، وإعدامهم، أو- كما كانت تقول وهي تضحك- مَنْحِهم شرف الشهادة وإرسالهم معطرين ممسكين إلى الجنة، أو إلى المنتجعات الصيفية في شاليهات تدمر!

وكانت تتوقف، أحياناً، عن الكلام، وهي في أوج تدفقها، وتسعى إلى جذب انتباه الزميلات، وجعلهن يركزن على القصة الطريفة التي جاءت في سياق حديثها اللذيذ، فتقول:

- خصيمكن الله، يا صبايا، إذا ما بتسمعوا هالنهفة.. (النهفة: الطرفة).

وحينما تتأكد من أنهن انجذبن على الآخر، تباشر برواية نهفتها متمهلة، متلذذة، متمطقة في الكلام.

روت «فرفر» للسيدات الجميلات الأنيقات، فيما روت، أن زوجها «حبيبها» كان يشرف على تدريب اثنين من القضاة الصغار الذين يحتاج الواحد منهما إلى عُمْرين، أو ثلاثة أعمار، حتى يكتسب المهارة، والحنكة، والذكاء، والألمعية، والمعلمية التي يمتلكها زوجها..

وفي ذات يوم أعطاهما إضبارة خاصة بمجموعة من المتهمين «الإسلاميين»، وطلب منهما أن يدرساها، ويَبُتَّا فيها، ثم يعرضا الحكم عليه لكي يقوم بتصديقه.

وسرعان ما دب الخلاف بين القاضيين المتدربين المسكينين، فحضرا عند زوجها في الفيلا، وشرعا يتخاصمان، ويتناحران، وكل واحد منهما يريد أن يثبت أنه على صواب وزميله على خطأ..

وقالت:

- وبالمصادفة كان «حبيبي» مشغول البال بقضية مطلوبة منه للقصر الجمهوري، لذلك لم يستطع التركيز على الكلام الذي تبادله القاضيان أمامه.. فما كان منه إلا أن أسكتهما بإشارة من يده وقال:

- فهموني شو القصة.. باختصار!

فقال القاضي الأول: يا سيدي.. لقد توصلتُ، من خلال التحقيق، إلى أن المتهمين في القضية التي كلفتنا بدراستها بريئون مما نُسب إليهم

من تهم، وأما الزميل فلان فيرى أنهم مذنبون ويطالب بأن نحكم عليهم بالإعدام.. وأنت تعرف يا سيدي..

فقاطعه «حبيبي»، الله يطول لي عمره، شو بحبو، وقال له:

- خلص خلص.. اعدموا النص، واطلقوا سراح النص التاني!

قال القاضي الثاني: ولكن الرقم مفرد سيدي.. تسعة..

قال: ما في مشكلة.. اعدموا خمسة.. وافلتوا أربعة.. واعتمدوا على «القُرعة» في اختيارهم.

وقتها، يا صبايا، لم أتمالك نفسي من قوة الفرح والإعجاب، فأطلقت زغرودة طويلة!

دكتور وعسكري- *(رواها: إياد خضر)*

مر دكتور جامعي بحاجز أمني. استوقفه عنصر الأمن وطلب هويته، وإذا به قد نسيها في البيت، العنصر اتصل بمعلمه على «القبضة»، وسمعه الدكتور يقول:

- سيدي وقفنا رجَّال كبير ما معه هوية.. كيف سيدي؟ أي سيدي يمكن عمره شي خمسين سنة. أوصافه؟ والله يا سيدي ما في شي مميز بخلقتو، بس هيئته أجدب!!.. وأنا هيك قلت لحالي سيدي.. أي شو ناقصنا ناس جدبان؟ أي رايح فلتو. بتؤمر سيدي.

مكتبة- *(رواها: خطيب بدلة)*

أثناء تفتيش منزل الناشط «سين عين» في مدينة حلب من قبل دورية خاصة من «الأمن الجوي»، كان رئيس الدورية ممسكاً باللاسلكي «القبضة»، ويبلغ رئيسه «المعلم» عن مجريات التفتيش خطوة خطوة..

وحينما وصلوا إلى غرفة المكتبة دهش رئيس الدورية، وفتح القبضة وقال:

- احترامي معلم.. هادا «الحيوان» لقينا عنده مكتبة..!!

كردستان الصومال- *(رواها: مروان علي)*

ظل «محمد منصورة»، لأربعة عقود من الزمن، رئيساً لمحافظة الحسكة، بكل ما تحملُه كلمة «رئيس» من معانٍ.

عينه حافظُ الأسد رئيساً لفرع المخابرات العسكرية في «القامشلي»، لكن سلطاته كانت تمتد على مساحة المحافظة كاملة، وأحياناً إلى المحافظات الأخرى، ولا سيما حينما يتعلق الأمر بالأمن الوطني، أو القومي، أو بالإمبريالية والاستعمار والمؤامرات على النظام الوطني والتقدمي في سوريا.

عُرف عن محمد منصورة الهدوء والتروي في اتخاذ القرارات، ولم يحدث أن صفِع مواطناً أو أهان مواطناً. كان يكفي أن يشير بحاجبه لمرافقه «علي» حتى يحمل الشخص المقصود على كتفه أو يجره من شعره ورموشه أو «قشاطه» ويركض به نحو غرفة التحقيق، أو «جهنم الحمرا» حسب الجملة التي قالها محمد منصورة حرفياً لعناصره:

- ولاه، ستذهبون جميعاً إلى الجنة، لأنكم جنود الرفيق القائد حافظ الأسد، ولأن في الكون جهنم واحدة هي الموجودة عندنا في الفرع.

وقتها يصفق العناصر بحرارة للرفيق القائد الذي يفكر حتى في جنوده ومستقبلهم في الدنيا، وفي الآخرة أيضاً.

كان المواطن الذي يخرج حياً من «جهنم الحمرا المنصورية»- لا يفتح فمه بعد ذلك حتى عند طبيب الأسنان!.. وإذا حدثت معجزة وتَحَدَّثَ بعد خروجه بسنوات، فهو لا يتحدث إلا عن طيبة محمد منصورة وإنسانيته ونقائه وشفافيته، وكيف أنه علق في مكتبه لوحة كبيرة لحافظ الأسد وهو

يلوح للجنود العائدين من حرب تشرين التحريرية وخلفه شمس كبيرة جداً، رسمها المغني والرسام المعروف.. جان كارات!

وذات مرة، تجرأ حزب كردي سوري ونشر مقالةً في جريدة الحزب المركزية، كتبها الأمين العام لـ «لحزب الديمقراطي الاشتراكي التقدمي الوطني الكردي» أحد أقدم الأحزاب الكردية وأكبرها، تحدث فيها عن إنجازات الحركة التصحيحية التي أعادت الكرامة للمواطن السوري دون تمييز بين العربي والكردي والسرياني والأرمني والشركسي، وأطاحت بالمؤامرات الإمبريالية والصهيونية على سوريا الأسد قلعة الصمود والتصدي، وحررت الأرض والإنسان والحيوان.. (لأن الحيوانات السورية كانت تعاني مثل البشر من جرائم الاستعمار التي نهبت ثروات الْوَطَن وفي المقدمة الثروة العلفية!).. وفي نهاية المقالة أكد الأمين العام أن الشعب الكردي في «كردستان سوريا» هو جزء من الشعب السوري العظيم، وأنه يقف مع القيادة العظيمة التي لا تنام وهي تقود المعركة لتحرير فلسطين والجولان وجنوب لبنان.

بعد انتشار الجريدة التي توزع يدوياً.. أرسل محمد منصورة سائقه الكردي «كنعان» في طلب الأمين العام الذي حضر بسرعة وركض إلى مكتب أبو جاسم «اسم الدلع لمحمد منصورة»:

- خير سيدنا؟ ان شاء الله ما في شي؟

- لا والله ما في شي، قرد، اشتقت لك وقلت بدي قرقع متة معك، بعدين شو هاي المقالة المْطَعْوَجة؟

- أي مقالة سيدنا؟

- هاي المقالة، سوريا القلعة التي تتحطم فوقها المؤامرات!

لاحظ الأمين العام وجود الجريدة على الطاولة..

- ما عجبتكم سيدي؟ الله وكيلك، أنا والمكتب السياسي واللجنة المركزية وقسم كبير من القاعدة الشعبية لحزبنا كتبناها.. ومو بالحبر بل بدمنا.

- هي فعلاً حلوة، لولا هالكلمتين هدول: «كردستان سوريا».. شو قصدكم يا وَل؟

- ما قصدنا شي سيدي، بس كتبنا هيك.. مشان الناس تعرف أن حزبنا حزب كردي، لأن الله وكيلك القاعدة الشعبية عم تتناقص حتى أنا خايف أن ما يبقى أحد في الحزب غيري. يرضيكم أن يصير فينا هذا الشي سيدي ونتبهدل بعد خمسين سنة نضال؟

- لا والله ما برضى أنا، بس أوعى مرة تانية تجيب سيرة «كردستان سوريا» قسماً بشرفي بنزلك لتحت، مع أنك بتعرف قديش بحبك. ولك عمي حط «كردستان العراق»،.. «كردستان تركيا»،.. «كردستان الاتحاد السوفياتي»،.. «كردستان الصومال».. العمى بقلبك، شو ما في غير «كردستان سوريا»؟

كردستان دير الزور- *(قصة فنية بقلم: مروان علي)*

ظل عمي «جميلو» طوال حياته التي بلغت تسعين سنة بالتمام والكمال مشغولاً بأسعار المواشي والقمح والشعير والتبن، ومَصْدَرَاً للمعلومات الكاملة عند شراء خروف أو بقرة أو عنزة لأهالي «كرصور» والقرى المجاورة (نيف، كفر سبي، كوتيا، كرديوان، موسيسانا، قوشاني، بيرا بازن).

تزوج للمرة الثالثة في السبعين وأنجبت زوجتُه الجديدة بنتاً جميلة كالقمر... ودون تردد أسماها «كردستان»، رغم أنَّ زوجته كانت تفضل أن تسميها «بديعة» على اسم أمها التي انتحرت حرقاً لأسباب مجهولة.

سعادة عمي لا أحد يستطيع وصفها. جاءت كردستان، ركضت كردستان،

مرضت كردستان، كبرت كردستان، ذهبت كردستان إلى المدرسة، كتبت كردستان وظائفها، نجحت كردستان.

قبل أن تكبر كردستان كان يلعب معها في شوارع كرصور الترابية، ويركض خلف الكُرة التي تلعب بها وتطير مع الهواء حتى أطراف القرية، أو خلف دراجتها الملونة الجميلة.

قال شيخموس بركات لعمي: لأن ابنتك اسمها كردستان، فأنت، أولاً، لا بد أن تترك الغش في سوق المواشي، وثانياً، لا بد أن تنتسب لحزب كردي، وثالثاً يجب أن تفكر معنا.

قال عمي (قبلما يقولها المرحوم معمر القذافي): من أنتم؟

قال شيخموس بركات: نحن الشعب الكردي! كيف نحرر كردستان؟ لا يعقل أن يظل هذا الوَطَن الجميل (تخيل عمي جارتنا الشابة في قميص النوم) تحت رحمة الاستعمار والإمبريالية والإقطاعية والرجعية والشيوعية والاشتراكية.

رد عليه عمي بحزن شديد مفتعل: نعم نعم، وماذا علينا أن نفعل لنحرر كردستان؟

تابع شيخموس بركات: كل واحد منا يقدم ما يستطيع تقديمه، ويشارك حسب قدرته بدعم الثورة.

ونظر نحو الشمال حيث الجبال الكردية البعيدة وتابع:

لكن الخطوة الأولى هي أن نحدد حدود كردستان، تعرف جيداً أن الفرنساويين والإنكليز خربطوا الحدود، ولا بد لنا من إعادة رسم حدود المنطقة بعيدا عن خطط السيدين «سايكس» و«بيكو» وخرائطهما الجهنمية التي أعطت الجميع حقوقهم، إلا نحن الكرد حرمنا «أولاد الشرموطة» من حقنا.

في المساء كان عمي يرسم خريطة كردستان فهي تبدأ من «ديار بكر» مروراً بـ «مهاباد» وحتى «الموصل»، ومن ثم تكمل الخريطة طريقها إلى حلب وتعود أدراجها إلى «القامشلي» مروراً بـ «دير الزور» و«الرقة» حتى «ماردين».. ثم تصل بأمان إلى «ديار بكر».

احتياطاً رسم عمي الخريطة مستخدماً قلم الرصاص. وكان يقدم الحدود أو يؤخرها ويضيف مدناً وقرى حسب مزاجه!! إذا كانت زوجته قد طبخت له البرغل ولحم الخروف.. يضيف إليها مدناً جديدة، وأحياناً تصل حتى حدود روسيا، أما إذا كان أحدهم لم يسدد له ديونه، أو أن زوجته أدارت له ظهرها في الليل، أو أزعجه أحدُهم بكلمة، أو خسر في صفقة صغيرة، فإنه يحذف منها مدناً وقرى حتى تصبح صغيرة ولا تضم غير «كرصور»!

لكن شيخموس بركات الذي أدمن السياسة وكان يتنقل من حزب كردي إلى آخر، كل ذلك من أجل الشعب الكردي حتى استقر في «حزب الكادحين الكرد» هذا الحزب الذي يتحدث عن بناء كردستان ديمقراطية شعبية اشتراكية عظمى في بياناته، ولكنه يشارك في كل احتفالات حزب البعث وفي كلماته التي يلقيها يؤكد على أن سوريا قلب العروبة النابض! وحين يعود إلى البيت يتحدث عن كردستان الكبرى!! حتى إن زوجته «فهيمة» قالت له:

- يا رجل، أصبحت مثل الدجاجة التي ستبيض بعد قليل! لماذا لا تستقر على موقف واحد؟

رد بهدوء مفتعل: السياسة فن الخداع والكذب ولا مكان للأخلاق فيها يا حبيبتي، هل تريدين مني أمضي عمري في سجن تدمر أو صيدنايا؟؟

بعد وضع اللمسات الأخيرة على «خريطة كردستان» انطلق عمي نحو قرية «علي فرُّو» المعروفة بمواقفها الكردستانية الحديدية، لعرض الخريطة

على حجي كردستان (واسمه حجي لندن من شدة تعلقه بهذه الإذاعة ولا أحد يتذكر اسمه الحقيقي «جعفر») الذي لا يترك أي أمر يتعلق بالأمن القومي الكردستاني إلا ويشرف عليه. وقبل أن يصل عمي إلى بيته، كانت دورية الأمن العسكري له بالمرصاد.

حاول عمي أن يهرب لكن كرشه منعه من ذلك خصوصاً أنه كان قد التهم طنجرة كاملة من البرغل بمناسبة الانتهاء من وضع الحدود النهائية لدولة «كردستان».

في مفرزة الأمن العسكري في القامشلي، وبعد حفلة الضرب ضمن الدولاب الأول، اعترف عمي بكل شيء، ووعدَ المساعد «أبا علي» بمبلغ من المال، وكبش، وتنكة سمنة، إذا مشى له الأمر هذه المرة، ولن يعود أبداً إلى مثل هذه الأمور التافهة مستقبلاً، وأنه سيظل وطنياً شريفاً مخلصاً، وسيزرع صور الأب القائد حافظ الأسد في كل مكان من بيته!.. في الصالون وغرفة الضيوف وحتى وفي المطبخ.

قال أبو علي: يا جميل، نحن في سوريا نقف مع حقوق الشعوب وخاصة الشعب الكردي، ونحن مع دولة كردستان حرة مستقلة، لكن، أن تصل حدود هذه الدولة إلى دير الزور فالقضية بتصير صعبة كتير! خصوصاً أن دير الزور قلب سورية والعروبة النابض، وقتها بتطلع من إيدي الشغلة، وما بعرف كيف بدي ظبط لك ياها.

قال عمي «جميلو»:

- يا سيدي، نحن رسمنا حدود كردستان بقلم الرصاص.

وأخرج من جيبه الممحاة وقال:

- تفضل أنت امحيها، وارسم حدود كردستان على كيفك!

أنا من جماعة القرضاوي- *(رواها: خطيب بدلة)*

في مطلع الثورة، وبينما أنا جالس أتفرج على التلفزيون، إذ لمحت الشيخ يوسف القرضاوي، وهو أحد أقطاب الإخوان المسلمين بالطبع، يخطب الجمعة في أحد مساجد «الدوحة»، وكان يقول ما معناه إنه يؤيد حق الشعب السوري في الحرية، والخلاص من الاستبداد، وفي أن يكف زوار الفجر «المخابرات» عن اعتقاله من دون أن يكون قد ارتكب جريمة، أو جنحة، أو مخالفة.. ثم روى قصة عنترة بن شداد الذي طلب منه أبوه أن يهب للدفاع عن قومه الذين يتعرضون للغزو، فقال له:

لا شأن لي بذلك يا أبتِ، فأنا عبد، أقوم بالأعمال التي يقوم بها العبيد، وحسبي ذلك.

فلما أعتقه أبوه من العبودية انطلقت قواه البدنية والروحية الخارقة التي كانت معطلة، وأصبح، بعد ذلك، شوكة في عين كل من يعتدي على بني عبس، قومه.

ويضيف الشيخ القرضاوي: هذا كله بفضل الحرية!

وعلى الفور، ومن دون تردد، وجهتُ تحية، عبر صفحتي على الفيسبوك، للشيخ القرضاوي!

فماذا فعل رجال المخابرات عندنا في إدلب؟

لقد سارعوا إلى إضبارتي (التي ينوء عتالٌ من أولي العزم بحملها!)، وشطبوا منها المترادفات التي تصفني بأني: اشتراكي- شيوعي- ماركسي- يساري- عَلماني- ليبرالي- ماسوني.. وكتبوا تحتها عبارة: إخوانجي من جماعة يوسف القرضاوي!!

وأصبحوا يسألون كل معتقل يحمل كنية (بدلة) عن السبب الذي

جعل قريبهم «خطيب بدلة» يعتنق فكر القرضاوي وينتمي إلى جماعته.. فيندهش ذلك المعتقل المسكين ويتساءل ببراءة:

- معقول؟ خطيب بدلة صار مع القرضاوي؟ متى حصل هذا؟! وما نوع المعجزة التي حصلت في غيابي؟!

بالسوري وبالدولار

في طريق عودة باص العمال من لبنان مروا بحاجز للشبيحة. صعد الشبيح الأكبر الى الباص. كان وشم «بشار الأسد» مرسوماً على زنده. صاح بصوت يشبه صوت الجقل:

- اسمعوا ولاه.. اللي معه «دولار» يوقف هون، واللي معه «سوري» ينزل لهون، واللي معو «دولار وسوري» يصف هناك.

وحلف براس «الكر» الأكبر، أن الشخص الذي يخربط في الصف ثمنه رصاصة في قرعة راسه.

أصيب العمال بالهلع، ومنهم مَن «عملها» في سرواله. ونفذوا الأمر بحذافيره خوفاً من القتل.

بعد أن اكتمل الصف اقترب من حاملي «السوري» وقال لهم:

- الله محييكم. إنتوا عم تدعموا العملة الوطنية. اطلعوا لمقاعدكم في الباص.

واقترب من المتورطين بحمل «الدولار»:

- انتوا كمان الله محييكم. عم تجيبوا دولارات أميركا للبلد. إذا بتحسنوا تجيبوا كل دولاراتها ترى لا تقصروا يلعن أبوها لأميركا. خليها تفلس!

وأمرهم بالرجوع إلى أماكنهم.

وقال لحاملي «الدولار والسوري»: لعنة الله عليكم إنتوا. ولاك أنا كاشفكم. خايفين ما ينزل السوري ويطلع الدولار، أو ينزل الدولار ويطلع السوري، ما هيكة؟

وصفع كلاً منهم كفين متعاكسين، وقال:

حطوا المصاري هون يا كلاب.. واطلعوا على الباص. يا الله انقلعوا من وجهي!!

في حضرة الجحشين- *(قصة فنية رواها: ماهر حميد)*

دعيت- فيمن دُعي من المهندسين- من قبل محافظ الرقة لمناقشة المخطط التنظيمي للمدينة، بحضور الوزير. كنت معتدّاً بإمكانياتي العلمية التي اعتقدتُ أنني دعيت بسببها.. ولأنني أعلم أن المخططات التنظيمية تحتاج إلى دراسات نظرية لا تقل عن خمس سنوات قبل البدء برسم المخطط فقد قلت في نفسي إننا سنكون مشغولين جداً خلال السنوات الخمس القادمة!

جلس المحافظ ومعالي الوزير إلى المنصة وفي الصفوف الأولى جلس الرفاق الذين يحضرون كل شيء يخص الهندسة والطب والتصنيع والفلاحة والسقاية والرفادة.. فهؤلاء هم الكوادر المناضلة التي تعرف كل شيء، حتى إنها تعرف ما يجول في الأنفس!..

وجلسنا نحن في الصف الثاني وما يليه كلٌّ بحسب تقييمه الأمني: العضو العامل، فالنصير، فالمؤيد، فالحيادي الإيجابي، وفي آخر الصفوف يجلس الحيادي السلبي، وأما أصحاب الأفكار الهدامة وجماعة اليمين العفن وعملاء الاستعمار فلا مكان لهم في مشروع المخطط التنظيمي الذي سيصبح واحداً من منجزات الحركة التصحيحية المجيدة.

وبينما كنا نتوقع أن يبدأ صاحب المعالي بمخاطبة المهندسين،

ويحيطهم علماً بحجم مسؤولياتهم القادمة، قام هو والمحافظ بتفجير قنبلة تنظيمية من العيار الثقيل، إذ رأيناهما، فجأة، يُرْجِعَان كرسييهما إلى الخلف، ويتوجهان إلى الستارة الخلفية ويزيحانها بتناغم ثنائي مدهش، حتى ظهر المخطط التنظيمي المرسوم والملون وفوقه تجثم صور السيد الرئيس الذي لم يكن قد أصبح خالداً بعد، وإنما ما يزال يمر بمرحلة الإلهام والبحث عن نبتة الخلود التي تليق بعظمته!

ضجت القاعة بالتصفيق، وعمت فيها الأفراح وارتفع صوت النباح البهيج، وعلت الدهشة وجوه الحاضرين بما فعل الوزير المُلْهَم والمحافظ المُلْهَم اللذان عينهما القائد المُلْهَم. لقد درسا المخطط دون الرجوع إلى أية إحصائيات أو دراسات مائية أو بيئية أو معمارية أو إنشائية أو.. أو.. ومشت الأمور كلها معهما دون عوائق أو مُحبطات أو مثبطات حتى إن الإعلان عنه تَوَافَقَ- بمحض المصادفة- مع ذكرى ميلاد الحزب القائد!

وقف أمينُ فرع الحزب وألقى كلمة. لا أرى داعياً لكي أنقل لكم كلامه، فقد سمعتموه بلا شك عدة مرات، ثم تبعه الأعضاء العاملون ثم الأنصار من المهندسين.. إلخ.

حاولت الحفاظ على الصمت. أقسم أنني حاولت، ولكنني لم أنجح في ذلك حتى النهائية. طلبت الإذن بالكلام، فأشار لي المحافظ بيده الكريمة موافقاً، فقلت:

- أنا، أستاذ، لا تعليق لدي على المخطط، ولكني سأروي لك حادثة صغيرة، ممكن؟

قال مرتاباً، فلعله لمح شيئاً خبيثاً أضمره: تفضل.

قلت: في إحدى القرى ذات التضاريس الصعبة.. كان أهالي القرية يخططون شوارع قريتهم بوضع حمار جائع في النقطة الأولى، ثم وضع

طعامه في النقطة التي يودون إيصال الطريق إليها.. يسير الحمار وهم يسيرون خلفه، ويضعون علامات مكان حوافره، ويرصفون الطريق فيما بعد حسب خط سير الحمار. وكلما أرادوا فتح طريق كانوا يعيدون العملية. سألهم أحد الفهمانين:

- يا جماعة ليش معذبين حالكم ومعذبين الجحش؟ جيبوا مهندس يخطط لكم الشوارع، وفضت يا عرب.

فرد عليه المختار: طالما في عندنا حمير لشو المهندسين؟!

لا شكر على واجب- *(رواها: خطيب بدلة)*

وقعت هذه الحادثة في يوم صيفي مشمس من أيام سني الثمانينات من القرن العشرين.

المكان: كراج العنداني بإدلب.

الوقت: تمام الساعة السابعة صباحاً..

كان عرش الجنرال حافظ الأسد، يومئذ، قد توقف عن الاهتزاز بعد المجازر المروعة التي ارتكبها هو وأخوه رفعت ورؤساء شُعَبِه وفروعه ومفارزه الأمنية الأخطبوطية، وقتلوا عشرات الألوف من السوريين.. وبدأت سورية تتحول إلى ما عُرف لاحقاً باسم «جمهورية الخوف العربية السورية».

الركاب المسافرون من إدلب إلى دمشق صعدوا إلى الباص، واتخذوا أماكنهم، والسائق التفت نحو المعاون وسأله:

- أشو أبو مراد؟ منقول «يا الله»؟

أبو مراد: قول «يا الله»..

في هذه اللحظة.. دخلت سيارة ستيشن تابعة للأمن العسكري أمام الباص فسدت عليه الطريق، ونزل بضعة عناصر مسلحين، وقف بعضهم بجوار الباص، وصعد بعضهم الآخر إلى داخله.

قال رئيس الدورية: كل واحد يشيل هويته في إيده.

نفذ الركاب الأمر، من دون أي كلام.. وبدأ رئيس الدورية، وأحد العناصر يتفحصون هويات الركاب، على التسلسل..

فجأة.. أحد عناصر الدورية، وقد لمح راكباً معيناً، اندفع من الأمام إلى الخلف، باتجاهه، وهو يصيح:

- هذا أنت يا سمير يا ابن محمد الحمودية؟.. والله لألعن أبوك يا ابن الكلب!!..

وانهال على المدعو «سمير» بالضرب واللكم.. وهو يطلق سيلاً من الشتائم.. فيقول:

- ولاك كيف تجرؤ على أنك تلاحق أختي «زكية» في زقاق الضيعة وتلطشها كلام عشق وغرام؟ ولاك نحن بيت القدري بناتنا شريفات وما حدا يدوس على طرفنا.. والله لولا أعرف أن أختي طاهرة لأقتلها وأقتلك.. يا الله ولاك كلب.. انزل من هون.. انقلع..

وشرع يركله حتى أنزله من الباص وسط دهشة الركاب وأفراد الدورية أنفسهم..

وحينما أصبح المدعو «سمير» خارج الباص نظر رئيس الدورية في هذا العنصر الثائر مستفسراً عن هذا التصرف الغريب، فقال له:

- آسف سيدي. لاكن دمي فار لما شفته. من جمعتين عم ندور على هالواطي.. بدو يبهدلنا في الضيعة وفي كل المنطقة يا سيدي.. تحارش بأختي سيدي.

بقي رئيس الدورية محتاراً فيما يفعل لدقيقتين، ثم أمر بقطع عملية التفتيش، ونزل هو وعناصر من الباص، ثم ركبوا سيارتهم وانصرفوا..

بعد سنين طويلة.. روى لي القصة نفسها واحد من قرية «كنصفرة»

بجبل الزاوية.. ولكن بطريقة مختلفة..

قال لي: هذا المدعو «سمير»، لم يكن اسمه سمير، وهو ليس من عائلة «الحمودية»، أصلاً في قريتنا لا توجد عائلة بهذا الاسم.. الرجل اسمه «محمد علي طلاع التبة».. وهو من زعماء التنظيم السري لجماعة الإخوان المسلمين.. وكان مطمئناً إلى أن الأمن لم يكشفوه بعد.. فغامر بركوب الباص والذهاب إلى دمشق، وكان ينوي أن يغادر من هناك إلى الأردن ليصبح في منأى عن عصابة حافظ الأسد..

العنصر الذي ضربه.في الباص كان من نفس القرية، وكانت الدورية التي حضرت إلى «كراج العنداني» في ذلك الصباح مزودة بعدد من أسماء المطلوبين، في مقدمتهم محمد علي طلاع التبة.. لذلك، حينما رآه، افتعل تلك المشكلة معه، ومحمد علي، بدوره، فهم اللعبة، وصار يقول له:

- والله ما لي علاقة بأختك.. والله العظيم ما لطشتها حكي.. إلخ..

وفيما بعد كان الشقيق الأصغر لمحمد علي كلما التقى بالعنصر يقول له:

- أشكرك على الضرب الذي وجهته لأخي محمد علي.. الحقيقة مو بس أنا، كل عيلتنا بتتشكرك..

فيقول العنصر: لا شكر على واجب!

ثورة لحية- *(روتها: غزالة شمسي)*

زار دائرتَنا، في أحد الأيام، وزيرُ الداخلية. تفقد بعض الغرف، وأجرى مسحاً بصرياً سلطوياً على الوجوه. وجد أحدَ الشبان مقترفاً لحية طويلة نسبياً، مشذبة بأناقة،.. فأظهر على وجهه علامة اشمئزاز ونظرة توعد مخففة.

وعلى الفور، أعلم معاونَهُ، الذي كان يمشي في ظله، أن هذه الظاهرة

خطيرة، تحتاج لعلاج إسعافي، فهي تنبئ بولادة جيل متشدد. وكان سيقرر مؤتمراً عاماً يحضره جميعُ ملتحي الوطن لولا أن وَعَدَهُ معاونُه باستئصال وباء اللحى من جذوره.

المعاون همس بشيء للمندوب الأمني الذي أمر بإحضار الحلاق- موجوداً- إلى الوزارة.

يبدو أن الوزير لم يكن يواكب العصر وإلا لما رفع القضية من أرضها. فاللحية مُنِعَتْ في زمن ولى، مثلما مَنَعَ صدام حسين حاشيته من حلاقة الشارب رمز عزتهم الخائبة! اليوم يتداولُ الشبانُ بعض هذه الممنوعات، بلا قصد ودون علم بقرار حظرها. إنها «الموضة» الدارجة، يتسابق الشباب إلى الشكل الأكثر تميزاً للحية، ينتقونها من «الكتالوج»، فتحيط الفم والذقن بأشكال هندسية بعضها ملتف وبعضها مخطط كما لو أنه رُسِمَ بالمسطرة.

فور معرفة الحلاق بأن الرجل الأمني يطلبه إلى مقر وزارة الداخلية، ارتجف قلبه وتمزق رعباً، ولم يأت إلى تصوراته حينها إلا «الرائد هشام»، وطرائق التعذيب التي سمع بها، وكان لتوه يحضر مسلسل «حكم العدالة»، ولأن لسانه يتعب من الصمت أثناء الشغل، فيمنحه الراحة بالهذر مع الزبائن، ويتطرق لجميع المواضيع حتى السياسية منها. جالت في ذهنه تصورات عدة حول احتمال وجود تقرير ما، دبجه بحقه أحدُ زبائنه ورفعه إلى الجهات المعنية. ولكن رجل الأمن الظريف، الذي كان في البدء عابساً، أطلق ضحكة مَنْ نجح بتدبير مقلب للكاميرا الخفية، فأمره بتجهيز عدة الحلاقة لمرافقته كي يجز كل لحية يزيد سمكها عن الميليمتر أطلقها صاحبُها في وجه وزارة الداخلية.

سُميت غرفة أحد المدراء التي خصصت لذلك الحدث الجلل بـ «غرفة الحلاقة»، وهناك يصطف الشبان بالدور ليصلوا إلى الكرسي المخيف. وكان التنعيم لذقونهم على الصفر.

استغل بعضهم مجانية الحلاقة فأتبعوها بقص الشعر، إلا شاباً واحداً هو «أحمد» أصر، وألح، مع إبداء مظاهر الغضب، على عدم الرضوخ لهذا الأمر الذي يتدخل- بصفاقة- في حريته الشخصية!

هنا كانت الطامة الكبرى. سيق أحمد تكلله كرامته إلى فرع الأمن السياسي للتحقيق بنواياه الخبيثة. دار بينه وبين المحقق حوار مطول، سأله بصيغة الاتهام عن ديانته، طائفته، معتقداته الدينية، وهل ينتمي إلى جماعة ما، والهدف الذي من أجله امتنع عن الحلاقة.

كانت جميع إجاباته تنفي صلة لحيته البريئة بأي معتقد ديني، وكان يتحمل الإهانات، ويصبر على الألم، لئلا يفتضح أمر علاقته بالبنت الجميلة التي تبادله الحب واعتادت أن تتغزل بلحيته لأنها تشبه لحية «مارسيل خليفة»!! ولما تنبه أكثر إلى صلة التدين بذلك التحقيق، نسي حبيبته، وأصر على حريته الشخصية!

لغات- *(رواها: خطيب بدلة)*

تعاقدت إحدى مؤسسات الدولة السورية التابعة لوزارة الدفاع مع خبير أمريكي. أرسلت إليه دعوة رسمية، عن طريق وزارة الخارجية والسفارة السورية بواشنطن، لزيارة المؤسسة والبقاء فيها لمدة شهر، وتدريب عناصرها على استخدام الأنظمة المتعاقد عليها. وسددت له- سلفاً- كافة النفقات اللازمة لوصوله الميمون إلى أرض الوطن..

وصل الرجل مساء. نزل في أحد الفنادق.. وفي الصباح استكرى سيارة عامة وقدم (الكارت) المسجل عليه عنوان المؤسسة للسائق الذي أوصله إلى العنوان الصحيح، وأنزله هناك.

بمجرد ما نزل من السيارة صاح به الحارس: قف.

فخاف الرجل ورفع يده اليسرى إلى الأعلى، وحمل الكارت باليمنى

ورفعها إلى الأعلى أيضاً، وهو يبربر بالإنكليزي.

قال الحارس: كول هوا ولاك..

ظن الخبير أن الحارس يفهم لغة أخرى، فحدثه بالفرنسية، ثم بالألمانية، ثم بالروسية، ثم باليونانية، ثم بالآرامية، ثم بالإيبلائية.. دون جدوى.. وحينما لقم الحارس البارودة (خرطش)، ذُعر وولى هارباً، وأما الحارس فانفلت بضحك رائق، صاف، طويل..

الحارس الآخر، الذي يقف داخل المبنى قال للحارس الخارجي:

- هذا الرجل يحكي سبع لغات!

ارتفعت وتيرة الضحك عند الحارس الخارجي وقال:

- يخرب بيته شو حمار! لشو يضيع عمره في تعلم اللغات؟ تصور سبع لغات وما نفعته في شغلة بسيطة، وهيي إنو يدخل إلى مبنى المؤسسة!

الفصل الحادي عشر- حواجز للتفتيش

بدهية حكائية- *(المحرر)*

سوريا هي بلد الحواجز العسكرية الأول في العالم، من دون منافس يستحق الذكر.

خلال الثورة السورية التي انطلقت في الثامن عشر من آذار مارس ٢٠١١، نصب في سوريا من الحواجز ما يستحيلُ حصرُه، أو إحصاؤه، أو تقديرُه. فحينما يتمكن الجيش من احتلال مدينة، أو منطقة، سرعان ما يبدأ بإقامة حواجز للتفتيش في أماكن متقاربة، داخل المدينة وخارجها، وحينما يحرر الجيش الحر أية مدينة أو قرية، يسارعُ إلى زرعها بالحواجز، حتى إن الأهالي، في الأماكن المحررة، أصبحوا يطالبون الثوار أن يدمجوا الحواجز مع بعضها ليقل عددها.. وأما الأهالي في مناطق جيش الاحتلال السوري فلا يجرؤون على مطالبة نظام الاحتلال بشيء من هذا القبيل.

القبعة- *(رواها: مصطفى تاج الدين الموسى)*

كنا مراهقين، سحرتْ خيالَنا الطائش وأدمتْ مشاعرَنا الهوجاء فكرةُ (قبعة الاختفاء).. وكم تمنينا الحصول عليها، لنرتديها ونتسلل- على هيئة كائنٍ لا مرئي- إلى غرفة بنت الجيران ليلاً، في شغبٍ حلوٍ، لنتأمل عن قرب أسرارها المدهشة.

الآن، وبعد أن كبرنا.. ما زلنا نحلم بـ (قبعة الاختفاء) فقط لنعبرَ، بأمان، ذلك الحاجز العسكري الحقير!!

ياسمين- *(رواها: رامي سويد)*

أنهت ياسمين ذات الخمسة والعشرين عاماً رحلتها الطويلة من «حي مساكن هنانو» في أقصى شمال شرق حلب حيث تقيم إلى «حي الكلاسة» وسط المدينة.

نزلت من ذلك السيرفيس الممتلئ بالركاب، لتدخل في غمار السيل البشري الجارف الذي ينساق يومياً باتجاه «معبر الموت». تجاوزت الطريق الموصل من ساحة الكلاسة إلى بستان القصر وصولاً إلى كراج الحجز المركزي حيث يقع المعبر. آلاف «بسطات» الخضار والمعلبات والمواد التموينية والخبز، الكثير من المسلحين، وآلاف الخارجين والداخلين إلى مناطق سيطرة النظام حيث يقضون حوائجهم في المؤسسات الحكومية.

تجاوزت ياسمين حاجز الثوار الأخير، تقدمت مع جموع المتقدمين نحو المنطقة المحايدة التي يطل عليها قناصو النظام! بدأت الخطوات بالتسارع، والقلوب بالخفقان السريع، «كالعادة»!

طلقات قليلة، سُمع أزيزُها من الجهة الغربية، كانت كفيلةً بتحويل المشي المتسارع لجموع العابرين إلى هرولة، وربما إلى ركض، وأحياناً إلى انبطاح.

وصلت ياسمين، أخيراً، إلى حاجز جيش النظام الذي يستقبل الداخلين إلى حي «المشارقة»، أوقفتها تلك الفتاة النحيلة، القصيرة، التي أوكلت إليها- اليوم- مهمة تفتيش النساء الداخلات عبر المعبر.

اقتربت منها، وطلبت حقيبتها الشخصية.

ياسمين قدمت لها الحقيبة، فبدأت الفتاة العبثَ بها. أخرجت الهاتف النقال، تفحصته على عجل، ثم رمته داخل الحقيبة. ثم قالت لياسمين المنكمشة على نفسها:

- ليش خايفة يا حلوة!! قربي خليني فتشك!

اقربت ياسمين من تلك الفتاة، انتبهت إلى المسدس الحربي الذي تضعه في خصرها. زكمت أنفها رائحة عطرها القوية. وأثار استغرابها ذلك «المكياج» الفاقع الذي تضعه على وجهها.

بدأت الفتاة بجسّ جسد ياسمين النحيل، فتشت محيط خصرها، ثم بدأت بنقل يديها إلى صدرها! أعادت المداعبة أكثر من مرة، ثم مدت يديها إلى مؤخرتها، تحسست أردافها، ثم همست في أذنها سائلةً:

- إش رأيك أعزمك ع العشا اليوم؟

ذعرت ياسمين، ودفعتها بكلتا يديها، بدأت دموعها بالسيلان.

قالت بيأس: حلي عني، أنا مو شغل هالقصص.

تراجعت الفتاة. أخرجت علبة سجائر من جيب بنطالها الخلفي. أشعلت واحدة واقتربت منها وهمست لها برجاء:

- الله يخليكي وطي صوتك. إذا ما بدك، خلص، بلا فضايح!!

سمر - *(رواها: رامي سويد)*

حلب- الملعب البلدي.. وهي منطقة يسيطر عليها النظام.

بعد أن ودع الأهلُ ابنتَهم ذات الثلاثين عاماً، التي قُتلت بقذيفةٍ سقطت على الحي، سحبَ الوالدُ «أبو قصي» ابنَهُ قصي إلى الغرفة الأخرى وانفرد به.

طلب منه أن يَثْبُت، ويتماسك، ويتصرف برجولة، لأن الضعف في موقف كهذا يميع الأمور، ويزيد المأساة ألماً وأسى.

قال له، والدموع تسيل على وجنتيه:

- يا ابني، نحن عايشين في قلب المعركة، وكل واحد يطلع من بيته

مرشح لأن ما يرجع. بقى شد حيّلك، وخلينا نفكر شلون بدنا ناخد أختك على المقبرة!! ولا تنس أن إكرام الميت دفنُه يا ابني.

قصي، وكأنه فوجئ بهذا الكلام، سأل أباه بخوف:

- صحيح حجي، وين بدنا ندفنها لسمر؟

الأب وضع يده على كتف قصي وقال له:

- بدنا ندفنها بمقبرة العائلة، في «قاضي عسكر»! لأن، هون، بمناطق النظام ما في مقابر. لما يطلع الصباح مناخدها إلى المعبر، ومن هونيك، على مقبرتنا!!..

وأضاف: طوّل بالك يا ابني، هيك الله كاتب علينا. أيش بدنا نعمل؟!

صباحاً، لفت الأم ابنتها القتيلة بكفنٍ أبيض، بعد أن تعاونت مع خالاتها على تغسيلها.. ثم وضعنها على فراشٍ إسفنجي، وغطينها بلحافٍ شتوي سميك ليسترن جسدها ويخفين معالمه، فهن يعلمن أن جثمان سمر سوف يوضع على عربةٍ من عربات بيع الخضار، وسوف تسير العربة بها عبر معبر «كراج الحجز- بستان القصر»، وهو المعبر الوحيد الذي يستطيع السكان سلوكه ليخرجوا من مناطق سيطرة النظام باتجاه المناطق التي يسيطر عليها الثوار، وبالعكس.

بعد دقائق، وصل أبو قصي ومعه العربة. بدأ الشباب من أخوة القتيلة وأبناء أختها، بحمل الفراش مع أبناء عمومتهم. نساء «من الجارات والقريبات» أطلقن الزغاريد مهنئاتٍ العائلة بابنتها الشهيدة.

وضع الفراش الإسفنجي الذي يحمل جثمان سمر، على العربة بشكل قُطري لتتسع له. شرع مالك العربة بدفعها، بينما مشى أبو قصي وابنه بقربها، وصل الجميع إلى حاجز قوات النظام الأخير قبل دخول المنطقة المحايدة التي تفصل بين الطرفين المتحاربين التي يطل عليها قناصو

جيش النظام، الجنود أوقفوا العربة، سأل أحدُهم صاحبها:

- شو محمّل ولاه؟!

- جثة شهيدة استشهدت مبارحة بالقصف ع الملعب!

الجندي: شهيدة؟! هم هم. على كل حال طيب، بدنا نفتشها.

انفعل قصي، صاح بالمجند قائلاً: إش عم تاكل هوا ولاك!! بدك تفتش جثة أختي؟!!

قاطعه والده ممسكاً بيده: طول بالك يا ابني!!

ثم وجه كلامه للجندي:

- يا ابني هي ميتة وإلها حرمة، ما بيجوز أنتوا الشباب تكشفوا عليها!

هز الجندي رأسه، وقال:

- ليك عمي أنت مبين عليك ابن حلال، هاد ابنك جاي يزعبر ع سمانا من عند الصبح. نحنا واقفين هون مشان نفتش الناس، هيك شغلتنا، بلكي مثلاً إنتوا قلتوا إنو هاي جثة، وهية بالحقيقة عبوة ناسفة؟!!

- طيب، قال أبو قصي، لاقي لنا حل الله يرضى عليك!!

التفت الجندي إلى زميله، وسأله:

- أم رائد إيمت بتجي؟!

- ع التسعة، تسعة ونص، هيك شي.

التفت الجندي إلى أبو قصي:

- من الأخير، إذا ما بدكم تخلونا نفتشها استنوا أم رائد، شي ساعة بتجي، ويللا بعدوا من الطريق، شوي تانية بيصير زحمة وبتعرقلوا حركة الناس!!

انفجر أبو قصي بالبكاء، صرخ عالياً: حسبي الله ونعم الوكيل، حسبي الله ونعم الوكيل!

طلب انتســاب- *(قصة فنية رواها: مصطفى تاج الدين الموسى)*

الزوج، وبسبب ذلك الحاجز العسكري على مقربةٍ من منزل عشيقته، ما عاد باستطاعته زيارتها وقت يشاء.

أقنع زوجته، من خلال حيل كلامية سلسة، بأن لديه اجتماعاً حزبياً خطيراً، سرياً للغاية، لدراسة الأزمة التي تمر بها البلاد، وأن عليها ألا تزعجه أثناء الاجتماع.

الزوجة، وبكثيرٍ من الخوف، والقلق عليه، هزت برأسها، بالموافقة.

تم الاجتماع الحزبي الأول بنجاح في غرفة الضيوف ذات الباب المستقل عن باب المنزل، لتتنفس زوجته الصعداء.

بعد بضعة أيام عقد الزوج اجتماعاً حزبياً آخر... ثم تسارعت الاجتماعات، حتى صارت شبه يومية، والزوجة تجلس على الأريكة في عتمة غرفة الجلوس، لتراقب الشارع من النافذة، خوفاً من مداهمة أمنية محتملة.

ثم انتبهت إلى أنه، من كثرة اجتماعاته الحزبية، أصبح ينام إلى جوارها دون أن يكترث لها، وأصبح يشخر، على خلاف عادته!

أرهقها فضولُها، تركت النافذة ومشت على رؤوس أصابعها حتى باب غرفة الضيوف، انحنت واختلست النظر من ثقب المفتاح.

شهقت مما رأت.

عندما انتهى «اجتماع» زوجها «الحزبي»، دخل عليها متعباً، وقبل أن يجلس وقفت أمامه وناولته ورقة مكتوبة، بعصبية.

التقطها وهو يسألها مستغرباً: ما هذه؟...

أجابته بغضب، وبصوت جاد: طلب انتساب!!

خلصني من هاللحية- *(قصة فنية رواها: رامي سويد)*

مر «أحمد» على بيت «سعد».. أطلق بوق السيارة. خرج سعد من منزله.. لقد مشط لحيته السوداء ولبس رداءه الباكستاني الأسود وحمل بندقيته.. ركب مع أحمد في شاحنة النقل التي يملكانها.. انطلقا في الساعة السادسة صباحاً من مدينة «الباب» بريف حلب متجهين إلى دير الزور لملء الخزان الذي قاما بتركيبه على ظهر الشاحنة بالنفط من أحد آبار النفط التي تسيطر عليها كتائب الثوار هناك..

أضحت تجارة النفط ومشتقاته المصدر الرئيسي لكسب المال بالنسبة لمالكي سيارات النقل.. فهم يشترونه من المناطق الشرقية ويجلبونه إلى المناطق الشمالية من سوريا لبيعه بربح وفير..

بعد أن تجاوزا دوار مدينة «تادف» بقليل أوقف حاجزُ الدولة الإسلامية في العراق والشام سيارتَهما.. اقترب الشاب «المقنع» من شباك السيارة الأيسر حيث يجلس سعد.. قال له، بثقة، بعد أن ألقى نظرة فاحصة على السيارة ومحتوياتها..

- السلام عليكم.. من أين أنتم؟.. وإلى أين أنتم ذاهبون..!!

أجابه سعد الجالس بجانب أحمد الممسك بمقود السيارة:

- أخي أنا أخوك المجاهد أبو عبد الله من الدولة الإسلامية.. ونحن ذاهبان إلى دير الزور لجلب النفط..!!

قال الشاب المقنع: أنتم من مجاهدي الدولة الإسلامية؟..!!

أجابه سعد: نعم أخي..

قال المقنع: أعطوني بطاقاتكم الشخصية واتركوا سلاحكم في السيارة وتفضلوا معي..!!

نزل سعد من السيارة. وسأل الرجل:

- خير أخي؟.. هل هناك من مشكلة؟..

المقنع: سنذهب معاً إلى أمير الحاجز لمقابلته.. سيسألك بعض الأسئلة وستنصرف إلى شأنك بعدها..!

نزل أحمد من السيارة أيضاً وتبعهما.. وصلا معاً إلى مكتب «أمير الحاجز».. قال المقنع:

- السلام عليكم يا شيخ.. هذا الرجل يقول إنه مجاهد تابع للدولة الإسلامية، وهو ذاهب مع صديقه هذا لجلب النفط من دير الزور. شفت أمامه في السيارة علبة دخان..!

رفع «الأمير» رأسه عن طاولته.. ترك الأوراق التي يمسكها.. وقف على رجليه.. خرج من خلف طاولته وتقدم باتجاه سعد.. قال:

- ما هي نواقض الإسلام؟!!!

ارتبك سعد.. مسح لحيته وقال:

- القتل والزنا والقذف وشرب الخمر والسرقة!!..

انفعل «الأمير»:

- توقف.. هذه التي عَدَّدْتَها تسمى الكبائر.. وهي لا تُخرج بالضرورة فاعلها عن ملة الإسلام.. نواقض الإسلام التي سألتك عنها أمر مختلف تماماً!.. ولعلمك لا يوجد أي مجاهد منتسب لصفوف الدولة الإسلامية لا يعلم ماهيتها بدقة..!! الآن أريد أن أعرف سبب ادعائك الانتساب إلى صفوف الدولة الإسلامية..!!

سيطر الذهول والصمت على سعد.. خلال ثوان تدخل أحمد قائلاً:

- شريكي ليس من عناصر الدولة الإسلامية.. إنه مجاهد في صفوف

لواء التوحيد بحلب.. ولقد قام بالتسجيل في دورة شرعية تقيمها الدولة الإسلامية في مدينة «الباب» بعد فترة من أجل الانتساب إليها..!!

«الأمير»: الحمد لله.. إذن.. لقد حصحص الحق.. وثبت أن إدعاءك الانتساب لصفوف الدولة الإسلامية كاذب..!!

سعد، مرتبكاً: يا شيخ والله إني أحبكم في الله.. ولقد أحببت أن أفاخر بحبي لكم.. فادعيت الانتماء إلى صفوفكم. وهو أمر أحب إلي من نفسي..!!

أصابتْ النشوة رأس «الأمير».. صمت برهة وقال:

- إذن سنعفو عنك.. اذهب وأكمل طريقك.. ولا تَدَّعِ الانتساب للدولة الإسلامية قبل أن تتم الدورات الشرعية اللازمة ويتم فرزك إلى إحدى ولاياتها وتقلع عن شرب الدخان المنكر!!

خرج أحمد وسعد من غرفة الأمير.. ما إن صعدا إلى السيارة وانطلقا حتى بدأ أحمد بتأنيب سعد.. وتوجيه الشتائم والكلام اللاذع إليه.. ومطالبته بعدم تكرار هذا الموقف مرة ثانية..!!

بعد ساعة ونصف.. وصل أحمد وسعد إلى مدينة الطبقة.. عند مدخل المدينة.. أوقفهما حاجز آخر للدولة الإسلامية.. اقترب أحد عناصر الحاجز من السيارة.. أشار إلى أحمد الذي يقودها بإطفاء المحرك.. وسأله:

- إلى أين أنتم ذاهبون؟..

أحمد: أخي نحن من مدينة الباب .. وخرجنا لجلب النفط من دير الزور لبيعه في أسواقها..!

وجه عنصر الحاجز كلامه إلى سعد:

- الظاهر أنك مجاهد في سبيل الله.. مع أي فصيل تعمل؟

سعد، بثقة: أنا من عناصر كتائب الفاروق..!

رجع العنصر عدة خطوات إلى الوراء.. وجه بندقيته باتجاه السيارة.. صاح:

- ضعوا أيديكم خلف رؤوسكم.. وانزلوا من السيارة فوراً!

نفذ أحمد وسعد الأوامر.. اقترب عناصر آخرون من الحاجز.. كبلوا أيدي أحمد وسعد بـ «الكلبشات» وقادوهما إلى الغرفة التي يجلس فيها «أمير» الحاجز.

العنصر، للأمير: أمسكنا هذين الرجلين.. وهما ذاهبان لشراء النفط من دير الزور وهذا الرجل يقول بأنه تابع لكتائب الفاروق.. !!

انفعل الأمير وقال: خسئت أنت وهذه الكتائب..! أنتم تابعون لهذا اللص الفاجر المسمى «البرنس» في منطقة «منبج»؟!

أحمد: لا يا شيخ مالنا علاقة به.. شريكي سعد يجاهد مع كتيبة اسمها الفاروق تابعة للواء التوحيد..

«الأمير»: وما الذي يثبت لي صحة كلامك؟

أحمد: لو كنا تابعين للبرنس لما كنا بحاجة لتحمل مشقة السفر لدير الزور من أجل جلب بعض الوقود وبيعه في ريف حلب للحصول على بعض الربح..

هز «الأمير» رأسه وقال:

- حسناً.. سنقوم بتسجيل أسمائكم والتحري عنكم. وسنقوم بتعميم أسمائكم على جميع حواجزنا.. وسيكون حسابكم عسيراً إذا ثبت كذبكم! اذهبوا الآن فلدينا ما يشغلنا عنكم..!!

خرج أحمد وسعد مهرولين من غرفة الأمير.. صعدا إلى السيارة. شغل أحمد المحرك وانطلق وهو يقول زاجراً شريكه سعد:

- يا رجل. من الآن فصاعداً.. لما تركب معي.. لا تقول لأي حاجز أن لك علاقة بأي واحدة من المجموعات اللي ع الأرض.. وإذا بدك تريحني عالمظبوط خلينا نوقف عند أقرب حلاق.. وخلصني من هاللحية!

الفصل الثاني عشر
حكايات عن استبداد المتطرفين

ضيعة ضالّة- *(رواها: محمد السلوم)*

جلس الشاب العربي الملتحي بجلابيته القصيرة أمام دكان «الحكيم» في ساحة «بلدة كفرنبل»، وراح يعرض أمامه منشورات عن أهمية الصلاة وكيفية أدائها.

أزعج هذا الأمرُ «الحكيمَ»، وقرر أن يمضي مع الضيف إلى آخر الشوط، فقال له:

- عن أي صلاة تحكي يا شيخي؟ بدنا نتعلم الوضوء بالأول، ما في عندك كتب عن الوضوء؟!

اعتذر الشيخ الشاب لعدم وجود كتاب عن الوضوء لديه وقرر أن يشرح الأمر للحكيم شفهياً.

في منتصف الشرح قاطعه الحكيم:

- وأيش هي الشغلات يلي بتنقض الوضوء يا شيخي؟

عدد الرجل نواقض الوضوء. فسأله الحكيم:

- وإذا لمست امرأتي هل ينقطع وضوئي؟

قال الشاب: لا.

فقال: يخرب بيت شيخ ضيعتنا، شقدو سافل.. قال لنا إن ملامسة المَرا تقطع الوضوء.

أكد الشاب أن: لا، لا ينقطع!

عندئذ صاح الحكيم بزوجته: تعالي وليك، اسمعي كلام الشيخ. عم يقول إذا أنا «مَجَقْتك» بوسة لا ينقطع وضوئي ولا حتى وضوئك.

قالت: روح ولاه. تضرب أنت وشيخك..

قال الحكيم: علي الطلاق هوي قال.. إذا مجقتك بوسة لا ينقطع الوضوء!

والتفت إليه وسأله: يعني شيخي حتى لو ما كانت المَجْقة أخوية، ما بتقطع الوضوء؟!

أحمر وجه الشيخ الشاب، وقد بدا عليه اليأس من متابعة عملية الهداية، وتمتم: حسبي الله ونعم الوكيل...

وولى مبتعداً!

ضريح الشيخ هلال- *(قصة فنية رواها: رامي سويد)*

في بداية سبعينيات القرن الماضي كان خال والدتي يدرّس اللغة العربية في مدرسة قرية «الشيخ هلال» الواقعة على الطريق بين مدينة تل رفعت وبلدة كفرنايا في ريف حلب الشمالي.

«الخال» من سكان مدينة حلب، ولم يكن هناك مكان ليسكنه في القرية حينها، فخصص أهلُ القرية له غرفة صغيرةً في جامعها الوحيد، بقرب ضريح «الشيخ هلال» المدفون في الجامع الذي نسب اسم القرية إليه.

في ليلة صيفية معتمة وقبل الفجر بقليل خرج «الخال» لابساً «جلابيته» البيضاء وحاملا إبريقه البلاستيكي المملوء بالماء إلى خارج الجامع للوضوء، صادف ذلك مرور أحد شبان القرية بالقرب من الجامع، شاهده الشاب من بعيد، فقفل راكضاً وكأنه شاهد جنياً..!!

على إثر ذلك سرت إشاعة في القرية مفادها أن الشيخ هلال «رحمه الله» خرج قبل فجر البارحة من قبره..!! لابساً «جلابيه» بيضاء وتوضأ خارج الجامع ثم عاد إلى قبره..!

أثارت الإشاعة وقتها ضجة كبيرة في المنطقة..! ولم تنفع تأكيدات «الخال» للأهالي بأنه هو من كان يلبس «الجلابية» البيضاء ومن توضأ خارج الجامع في ثنيهم عن قناعاتهم المتمثلة بأن الشيخ هلال رغم موته من مئات السنين يمكن أن يخرج من قبره ليتوضأ ويصلي الفجر..!

منذ حوالي ستة أشهر قَدِمَتْ مجموعة مسلحة «مؤلفة من مجموعة من الملثمين» إلى القرية بهدف «نبش» قبر «الشيخ هلال»، وإذا بعجوز بلغ من العمر عتياً يتصدى لهم بعصاه الخشبية التي يتوكأ عليه، ليقف على باب الجامع قائلاً لهم:

- بتقتلوني قبل ما تمدوا إيدكم على قبر الشيخ..!

أوقعت هذه الحادثة شرخاً كبيراً بين سكان القرية، إذ انحازت غالبيتهم إلى موقف مفاده أن القبور لها حرمة، ولا يجوز الاعتداء عليها أو المساس بها، فكيف إذا كانت هذه القبور لأولياء الله الصالحين..!

بينما انحاز البعض «من متبني الفكر السلفي» إلى موقف مفاده أن هذه القبور يجب نبشها لأن التبرك فيها وتقديسها هو شرك بالله، فلا شيء ينفع أو يضر إلا الله، وكل ما يتعلق بالتبرك بالقبور والبناء عليها والدعاء عندها لا يعدو أن يكون بدعة منكرة يرفضها الإسلام، كما أن كل جامع توجد فيه مثل هذه القبور هو مسجد «كفرة» لا تجوز الصلاة فيه، حتى إنهم امتنعوا فيما بعد «عند اشتداد الخلاف» عن الصلاة في الجامع، وأصبحوا يصلون في مساجد مدينة تل رفعت القريبة، وامتنعوا أيضاً عن إرسال أطفالهم إلى معهد تحفيظ القرآن الكريم الذي افتتح في الجامع برعاية رابطة العلماء السوريين وإشراف منظمة شباب لأجل سوريا.

مؤخراً، وقبل نهاية العام الماضي (٢٠١٣) بيومين، وبينما كان أهالي قرية «الشيخ هلال» يغطون في نوم عميق وإذا بانفجار مدوٍ يهز أركان القرية. هرع الأهالي لاستكشاف الأمر فوجدوا أن جامع القرية «جامع الشيخ هلال» أصبح أثراً بعد عين، لقد انهار الجامع بمصاحفه وسجاده وبرادات الماء الموضوعة فيه فوق ضريح الشيخ هلال.

اجتمع سكان القرية حول أنقاض الجامع، بدأت المشادات الكلامية بينهم، وبدأت تخرج تعليقات من قبيل: عم تدمروا الجوامع يا كلاب؟.. مو غريبة عليكم هي عادة سيدكم بشار..!!

لترد عليها تعليقات من قبيل: هي نهاية دار الكفر.. الدمار.. هي نهايتها الطبيعية..!!

كاد الأمر يصل إلى اشتباك بالسلاح بين أبناء العمومة، لولا تدخلُ بعض الوجهاء لتهدئة النفوس..!

الأمير والصنم- *(رواها: يوسف رزوق)*

في يوم صيفي حار، في إحدى المناطق التي يُقال إنها «مُحَرَّرَة» وقد ظللها الله بكنف الأمير الكبير ورعايته..

جلس أمير المنطقة «وهو أمير أصغر من ذاك الكبير» مفكراً بشيء يفعله لمصلحة دين الله «باعتبار أن الأمور ضمن إمارته كلها تمام!»... فتذكر وجود رواية صادرتها «الجماعة» من أحد شباب المنطقة خوفاً من احتوائها على كفر أو تجديف أو أي شيء يضر بالإسلام.. عنوانها «وا إسلاماه» للكاتب الحضرمي علي أحمد باكثير..

جلس الأمير الصغير وقرر أن يقرأ الرواية ليبت بموضوع الشاب الذي احتجزوه بسببها... بعد برهة من الزمن، وبينما هو مسترسل بقراءتها، إذ دخل عليه أحد عناصره، مستعجلاً، لاهثاً، وقال له إن لديه معلومات عن

وجود «صنم» في القرية المجاورة..

ذهل الأمير، ذهولاً عظيماً، وقذف الرواية في الهواء وقد أخذت منه النشوة والحمية، أثناء قراءة الرواية، كل مأخذ، وصاح بصوت مجلجل هز أركان المقر:

- وا إسلاماه..

وحمل بندقيته وركض في اتجاه جنوده وصاح بهم:

- هلموا يا جنود الله لنصرة دين الله...

تحركت الحشود العسكرية متأبطة مختلفَ صنوف الأسلحة، والآليات الثقيلة، وطوقت القرية المشكوك بوجود الصنم والوثنيين فيها..

انتشر المقاتلون في القرية، بعدما اقتحموها دون أية مقاومة، وبدؤوا التفتيش والتقصي والتحقيق.. وما زال الأمير الصغير ممسكاً بمدفعه الرشاش يرغي ويزبد منتظراً اللحظة الحاسمة.. وإذ بصوت طلق ناري يأتي من إحدى نواحي القرية، فاندفع الأمير الصغير ومن ورائه جموع المقاتلين نحو مكان الصوت.

وعلى الرغم من أن المسافة قصيرة وتحتاج إلى بضع دقائق فقط للوصول إليها، إلا أنه حسبها دهراً، فقد تحركت فيه كل مشاعر البطولة والشجاعة والغيرة على دين الله..

لدى وصوله إلى مكان الحادث وجد أحد المجاهدين الأشداء وقد جحظت عيناه، وأمامه امرأة تحتضن طفلاً صغيراً عارياً، يبكي بحرقة، وامرأة أخرى تضع يديها فوق رأسها وتصيح:

- ولي ولي وليييييييييي!

وثمة طفلة صغيرة «عاملتها تحتها»!

نظر الأمير الصغير الشجاع إلى جنديه، فأشار بيده بما معناه أن في الداخل «طشت فيه ماء»، وفيه بالونة «نفاخة» مصنوعة على هيئة تمثال تنين!

دبابة أبو عيس- *(قصة فنية رواها: ماهر حميد)*

في إحدى غزواته المباركة بمحافظة الرقة غَنِمَ «أبو عيس»، فيما يغنم المجاهد- خير اللهم اجعله خيرا!- دبابتبن وعربة «دوشكا».

أبو عيس، المُسْتَخْدَم السابق في مؤسسة الحبوب، أصبح من الوجهاء، وأصبح الناس يشيرون إليه بالبنان، وهو يشير إليهم بالسبطانة!..

الدبابتان مَنَحَتَا أبا عيس الوجاهة، و«الدوشكا» منحه رجاحة الرأي، وما عادت المجالس تعمر إلا بوجود وجهه، وجه الخير.

افتتح أبو عيس مؤسسة استثمارية ثورية شرعية حلالاً أسماها: «مؤسسة أبو عيس وأولاده للجهاد».. وأصبح يؤجر الدبابتين كل واحدة بثلاثين ألف ليرة سورية في الساعة. ولأن أبا عيس مجاهد، ولأن خدمة الدين الحنيف هي جُلُّ ما يتمناه، فهو لا يؤجر دبابتيه العزيزتين للشبيحة وفلول النظام في الرقة، بل يجب أن يكون المستأجر من الكتائب المحبذة إلى قلبه، وأن يكون مرتدياً «السروال بتكّه»، إضافة إلى وجود اللحية طبعاً، فهذه بديهية لا تحتاج إلى نقاش.

عندما يكون موسم الجهاد نائماً- فالجهاد مواسم- يقوم «أبو عيس» بالتدرب بنفسه على الدبابة. ولأنه، وهو المُسْتَخْدَمُ السابق في مؤسسة الحبوب، لا يجيد تشغيل جهاز الاستقرار ولا قراءة الزوايا، فإن قذائفه لم تصب الهدف ولا مرة! بل تذهب أحياناً في عكس الاتجاه المقصود، بل ويسقط القسم الأكبر منها، رغم توجيهها نحو البرية، في قلب المدينة! مؤدية إلى كوارث. وفي كل مرة تدمر القذيفة بيتاً أو تقتل أحداً، كان

أبو عيس يعتذر بسماحته المعهودة، موضحاً أنه حينما يدخل إلى هذا «المعْوَّد» برج الدبابة يتذكر عَصّة القبر ولا يعود يعرف الشمال من الجنوب!

ذات مرة، أرسل أبو عيس «الدوشكا» للمشاركة في عرس لأحد المجاهدين، وأوصى السائق قائلاً:

- خلوا الرصاص يلعلع للسما.. العريس أخونا «أبو القعقاع» غالي علينا هه. (علماً بأن المجاهد العريس لم يتزوج من قبل ولا يوجد لديه ولد اسمه القعقاع)!

على الرغم من انشغال أبي عيس بالجهاد، فإنه لا يتوانى عن معاقبة كل شاب متشبه بالكفار، والعياذ بالله، أو مدخن، أو امرأة متبرجة، أو سافرة.

أبو عيس، في الحقيقة، مثقف ويحفظ «جزء عَمَّ» غيباً. ويعرف الفروض والنوافل، ويخاف الله، ولحيته قبضتان.. وقد شهد بعضُ الثقات أن أبا عيس يحاذر أن يوجه سبطانة الدبابة نحو القبلة، لأن ذلك حرام! ومن جهة أخرى لم يستثمر دخله الذي يأتيه من «مؤسسة أبو عيس وأولاده للجهاد».. في أمور لا ترضي الله. فقد تزوج من هذا المال الحلال ثلاث نساء جُدُداً على سنة الله ورسوله، إضافة إلى أم عيس.. وهو يعدل بين الأربع رغم تفضيله للصغيرة... وهذا واضح من سلوكه اليومي، فهو يبيت الدبابيتن و«الدوشكا» عند باب بيتها كل ليلة متذرعاً بأن الطيران المعادي لا يستطيع رصدها هناك.. ولكنَّ حسد نسائه الباقيات اللواتي عانين من الغمز واللمز من قبل نساء الجيران للصغيرة لا تخطئه الأعين.

قرر أبو عيس، مؤخراً، أن يستخدم أمواله في سبيل حملته الرامية لأن يصبح خليفة المسلمين! وهو متأكد أن الله سيلهمه، حينما يصبح خليفة، ما فيه خير المسلمين وصلاحهم.

بايعوا أبو عيس!

أبو صطيف في المطعم.

(١- المطعم الإسلامي)- *(قصة فنية رواها: يوسف رزوق)*

أبو صطيف رجل حر لا يرضى الضيم، يحب البَسْط والنزهات والسهر. عاش حياته وهو يأكل من عرق جبينه. لا يداهن ولا يتملق..

عندما قامت الثورة ثار أبو صطيف مع الناس وناضل أثناء سلمية الثورة. وعندما تحررت المنطقة خرج أبو صطيف رافعاً علم الثورة ودار به كل أرجاء الضيعة وبح صوته وهو ينادي «الله سوريا حرية وبس».

ضجرت عائلة أبو صطيف لا طلعة ولا دخلة.

في يوم من أيام الربيع قرأت أم صطيف خبراً مفرحاً جداً.. لافتة تبشر بافتتاح مطعم «إسلامي» في المنطقة بعد أيام..

تلفنت لأبو صطيف على الجوال وقالت له: جاء الفرج لازم نروح...

قال لها: اسكتي ولوووه.. أينا مطعم هاد؟ وليك هدول كلهم مقت بمقت. صدقيني القعدة في البيت أحسن وأشرف.

ولكن أم صطيف تابعت الإلحاح والنقيق. وكالعادة، استسلم أبو صطيف وجهز نفسه، وارتدى طقم عرسه الذي لا يمتلك غيره، وارتدت أم صطيف أجمل ما لديها، وألبست الأولاد ثياب العيد، وامتطى الجميع صهوة الشاحنة «السوزوكي» وذهبوا إلى المطعم قبل موعد افتتاحه بساعة، بقصد أن يكونوا أول الواصلين.

(ملاحظة: استغرق أبو صطيف ساعة كاملة وهو يقتلع علم الثورة الأخضر الذي سبق له أن رسمه على جانبي السوزوكي خوفاً من الدخول في مشاكل مع أصحاب المطعم الذين يعتمدون العلم الأسود).

جلس أبو صطيف وعائلته أمام باب المطعم منتظرين افتتاحه في وضعية القرفصاء.

فوجىء أبو صطيف بلافتة مكتوب عليها «يمنع دخول السافرات»..

عبس ومط شفتيه، وقال لأحد العمال:

- زوجتي تضع الإيشارب. بيصير؟

قال العامل: ممنوع دخول النساء سافرات الوجه!!

غضب وقال لأم صطيف متشفياً: قومي، ما قلتلك كله مقت؟!..

جاوبته: الله يوفقك، صار لنا شهور محبوسين في البيت. خلص مشيها هالمرة.

رضخ أبو صطيف للأمر الواقع. أشعل سيكارة، بينما سارعت أم صطيف إلى تغطية وجهها..

صاح أحدهم: الله يسترك أخي، اطفي السيكارة. لا تسبب لنا مشاكل!

رمى أبو صطيف السيكارة على الأرض وهو يتمتم: يلعن أخت النسوان على أخت المطاعم!

فتح المطعم أبوابه. صاح أبو صطيف بزوجته وأولاده:

- يالله قوموا ادخلوا خلصوني..

عند الباب كان هناك نادل يلبس الرداء الباكستاني أخبرهم أنه يجب الدخول بالرجل اليمين.. وقادهم إلى كابينة مغلقة ليجلسوا داخلها!!

بعد دقائق طرق باب الكابينة أحد النُّدُل وأعطاهم لائحة الطعام. وأخبرهم أنهم يستطيعون اختيار صوت الشيخ والسورة التي يحبون سماعها..

نظر إليه أبو صطيف مندهشاً وقد جحظت عيناه وصاح: معقول؟!!!

رفسته زوجته من تحت الطاولة وقالت: لا تصعبها. خليه يحطّ لنا أي سورة...

صاح النادل: يا أختي الفاضلة لا تتحدثي، صوت المرأة عورة، أخبري زوجك ماذا تريدين..

صعد الدم إلى رأس أبو صطيف وانتفض واقفاً، وقال للنادل:

- روح هلا بس نختار منندهلك..

مارست أم صطيف دورها في سد الذرائع والتهدئة، وقالت له:

- لك خلص، أنا والأولاد ميتين من الجوع.

وأقنعته بأن يطلب الطعام فوراً.

وصل الطعام وبدؤوا بتناوله بشراهة. صاح المؤذن «الله اكبر» معلناً وقت صلاة العصر.. تشاهدوا ثم تابعوا البلع.. وإذا بالباب يُقرع. أنزلت أم صطيف الخمار على وجهها، وكانت قد رفعته أثناء الطعام. دخل شخص طويل ضخم وقال «الصلاة يا مؤمنون، حي على الصلاة» وكان معه عصا يهزها في الهواء..

نهض أبو صطيف: طيب أخي، بس نخلص منصلي..

رد عليه: لا أخي لا، الصلاة أهم من كل شي. اترك أكلك وقم أنت وأولادك. يالله لا تجادل...

بدأ أبو صطيف برفع كمي قميصه استعداداً للوضوء، وأثناء ذلك كان ينظر إلى أم صطيف ويقول لها بلسان حاله: تضربي أنت وهالسيران!

بينما هي تسرق لقمة وتدحشها في فمها تحت الخمار بشراهة.

أبو صطيف في المطعم

(٢- المطعم الثوري)- *(قصة فنية رواها: يوسف رزوق)*

على إثر الزيارة «التاريخية» التي قام بها أخونا أبو صطيف للمطعم

الإسلامي، ولأجل أن يَحسم الموضوع، ويتلافى نقيق السيدة أم العيال، فقد حَذَّرَها قائلاً:

وحق اللي خلقك، إذا مرة تانية بتجبريني أروح لهنيك، بدي أسحب سيكارة وأدخنها في نص المطعم! وأنتي بتعرفي شقد جماعة «داعش» ظُلَّام وحقيرين، فأكيد راح يجلدوني حتى الموت، ولما بموت مين بده ياخدك عالمطاعم ويطعميكي ويصرف عليكي؟!

والتزم بيته، ولم يعد يخرج منه إلا لقضاء الحاجات الضرورية خوفاً من الاحتكاك بهؤلاء المجرمين...

وجاء الفرج عندما ضجَّ الناسُ من إجرام «داعش» وتعسفها، وقرروا الخلاص منهم، فاندفع شباب القرية وكل القرى المحيطة بها للقضاء عليهم.. وهب أبو صطيف مع جموع الثائرين وأعاد طلاء سيارته (السوزوكي) بعَلَم الثورة، ورَكَّبَ عليها مايكروفوناً، وبح صوته وهو ينادي (الجيش الحر للأبد، دايس داعش والأسد)..

وأخيراً تم الخلاص وتحررت المنطقة للمرة الثانية.

لم يستمر هذا الحماس طويلاً حتى خبا، وحَلَّ محله يأس ومقت، إذ اختلف ثوار المنطقةِ على مَنْ سيكون صاحب القرار. وأصبحت الثنائية الجدلية (الثورة لمن سبق؟ أم لمن صدق؟) توازي بصعوبتها وتعقيداتها ثنائيات أرسطو وماركس وهيغل الجدلية...

وفي ذات يوم... كان أبو صطيف عائداً من عمله منهكاً، مكتئباً، فوجد زوجته تنتظره مبتسمة وتقول له:

- جاء الفرج بدنا نروح اليوم على الافتتاح، يعني بدنا نروح، أرواحنا أنا والأولاد طَقِّتْ...

- افتتاح أشو يا مرا؟

-افتتاح المطعم..

هنا صاح أبو صطيف متحسباً: المطعم نفسه؟!!

فأخبرته أنه، نعم، نفسه، ولكن صاحبه تغير، وغَيَّر طاقم العمال، وغير الاسم، صار اسمه «مطعم الثورة» وراح يكون الافتتاح بكرا..

حاول أبو صطيف الرفض، ولكنه، في المحصلة- وكالعادة- وافق.

منذ الصباح تهيأت العائلة للذهاب، ولبس أبو صطيف بدلة العرس، وركب الجميع، وذهبوا قبل الوقت المحدد، لكي يجدوا مكاناً.. وجلسوا أمام باب المطعم لكي يكونوا أوائل الداخلين.

خرج شخص يحمل سيفاً، شارباه بطول كف اليد، وطلب منهم- بطريقة فظة- أن يبتعدوا عن الباب.

قال له أبو صطيف: يا ابن عمي، بدنا ندخل بالأول، منشان نلاقي مكان كويس..

رمقه الرجل بنظرة قوية، وقال له: أشو؟ مفكر حالك قائد كتيبة!!!! وقت منقول لكم ادخلوا بتدخلوا. وقفوا على جنب..

نظر أبو صطيف إلى زوجته نظرة مزاورة، وأخرج سيجارة، أشعلها وصار يغب...

المهم. جاءت الساعة الموعودة، وأعلن عن الافتتاح، وتجمهر الناس، وبدأ صاحب المطعم يلقي خطابة عن علاقته بالثورة، وبالثوار الأبطال. وتحدث مطولاً عن تضحياته في سبيل الحرية والكرامة..

بدأت معدة أبو صطيف بالقرقعة. نظر الى زوجته وقال لها: ما بقى يخلص؟ مفكر حاله باني سوريا الحديثة متل بيت الأسد؟! رح أموت من جوعي... خلينا نرجع نتغدى بالبيت.

قالت له: لا ولوووو أبو صطيف، طول بالك عمنستنى هاللحظة من زمان، والعجيان (الأولاد) راح تطق أرواحهم...

وافق أبو صطيف على مضض... انتهى المهرجان وتم الترحيب بالضيوف وفتح الباب.

حاول أبو صطيف الدخول، وإذ بصوت إطلاق نار كثيف. صاح: يا لطيف يا ساتر، وارتمى على زوجته وأولاده ليحميهم ظناً منه أن النظام يقوم بهجوم على المنطقة، ولكنه، حينما رفع رأسه وجد الطريق يُفتح لمجموعة من العسكريين الذين دخلوا تحت وابل من الرصاص والتهاليل والتبريكات بقدومهم...

كانت المفاجأة أن صاحب المطعم أزال كل الرايات السوداء والآيات القرآنية، ووضع عوضاً عنها أعلام الثورة وصوره وهو يحمل الكلاشينكوف وأحياناً الدوشكا...

رحب بهم أحد الندل، وأراد أن يحصرهم في زاوية بعيدة. نظر أبو صطيف إلى البهو الكبير وطلب منه أن يُجلسهم فيه، فأخبره أنه محجوز للكتائب، كل طاولة لكتيبة....

قال أبو صطيف (حسبنا الله ونعم الوكيل) وصك أسنانه... جلسوا في المكان الذي حصرهم فيه، وطلبوا قائمة الطعام.

أم صطيف، كعادتها، اقتنعت بالمكان، وقالت لأبو صطيف:

- اطلب لنا أركيلة.

نظر في المكان المخصص للأراكيل في القائمة «المينو»، فوجد أسماء أراكيل غريبة: مدفع جهنم.. هاون.. مضادة للدرع.. جرة غاز...

صعق أبو صطيف ولم يفهم شيء. صاح بالنادل:

- ولك عمي تعا فهمنا أشو نحن عم ندمر حاجز، ولا بدنا نأركل؟ أشو هدول؟...

شرح له النادل معنى كل واحدة. فقال له:

- اي اكتبوا هيك وخلصونا.

فقال النادل: نحن مطعم الثورة وكل شيء هنا للثورة ومنها!!!

اختارت أم صطيف «مدفع جهنم» وشرعت تؤركل والضحك يغلبها شماتة بزوجها الذي كان يرمقها بنظرة غيظ ويقول:

- والله ما إشبك شي. صايرة فصيل مسلح لحالك! بس بدي أعرف أشو دخل الأركيلة بالثورة؟....

حضر الطعام أخيراً، وبدؤوا بتناوله... امتلأ المطعم بالمسلحين الذين دخلوه بأسلحتهم. وعند كل لقمة كان يقوم أحدهم و«يشوبش» لكتيبته وقائدها وعناصرها، ويقدم فاصلاً منشطاً عن إنجازات مجاهديها الأبطال.. حاول أبو صطيف تجاهلهم، ولكن شخصاً آخر كان يقف ويقول:

- انتظروا شوي يا أحرار. رددوا معي.

ويبدأ بهتافات تتضمن لعن روح حافظ الأسد على روح بشار الأسد، مضيفاً بعض الأهازيج الثورية التي تفعل فعلها بزيادة الحماس والعنفوان..

تطور هذا الحماس والعنفوان إلى مشادات كلامية بين المسلحين عن أحقية كل منهم بالثورة، وأهمية إنجازاته وإنجازات مجاهديه...

تخوف أبو صطيف من أن تتطور المشادة إلى اشتباك. طلب الفاتورة بلهوجة، ليخرج بعائلته سالماً.

أتت الفاتورة. وهنا كانت الطامة الكبرى: مبلغ ضخم لا يتوقع أبداً مثله بهذا المكان. طلب التفاصيل وجد أن هناك إضافة بند «مجهود

ثوري»! لم يكن هناك حل إلا أن يدفع مثلما أمر، فالدخول في معركة غير مناسب، وغير متكافئ أيضاً. أخرج محفظته ودفع. ونظر إلى زوجته تراوده رغبة قوية في أن يقول لها «أنت طالق» رغم حبه الشديد لها.. وإذا بصوت أحد قادة الكتائب يستوقفه ويقول له:

- عمي أبو صطيف، قرب شوي. أنت إنسان حر، وشريف، ومحترم. قلي رأيك بصراحة: الثورة لمن سبق؟ أم الثورة لمن صدق؟

لم يرد أبو صطيف. أركب زوجته وأولاده في السوزوكي وانطلق بسرعة.

القناص والبغي – *(قصة فنية رواها: ماهر حميد)*

- ألو... أهلاً أيها السومري. ولك يا سيدي على راسي أنت وجلجامش وأنكيدو ومعاكم البغي كمان.

هكذا ابتدأ صديقي «عبد الله» مكالمته من الرقة عندما اتصلت به.

سألتُه: على أيش هذه التشكرات؟

قال لي: لقد نصحتني بقراءة ملحمة جلجامش، ولو لم تنصحني لكنا ما زلنا تحت رحمة قناص داعش في «حي الثكنة».

وشو جاب داعش لجلجامش؟

حكى لي قصة استعيدت منذ فجر التاريخ لتعالج حالة في الرقة لا تقل إيغالاً في التاريخ. ملخص القصة أن قناصاً قد تمركز على سطح إحدى البنايات العالية في حي الثكنة مسيطراً على عدة شوارع ومفارق. وكان مُدَرَّبَاً على نحو جيد، ومُخْلصاً في جهاده، جاء من بلد بعيد، وأعلن الجهاد على المارة والعابرين في منطقة سيطرته، فكان يحكُم بالكفر والردة من خلال منظاره، وينفذ القصاص على كل عابر لا يعجبه، ثم يحمد الله ويثني عليه.

كان صديقي عبد الله من المثقفين الناشطين الأوائل، ولم ينقطع عن

نشاطه رغم أن الخطورة تضاعفت بعد سيطرة الإسلاميين على المدينة، ولكن حركته- هو وأصدقاءَه- أصبحت محدودة جداً في النهار، بسبب وجوههم العَلمانية «الكريهة»، فقرروا العمل ليلاً.

ولكن مشكلتهم كانت تكمن في ذلك القناص الذي يتمركز في موقعه من صلاة العشاء وحتى الفجر.

لم يكن عبد الله يؤمن بالقتل وإلا لكان وجد وسيلة للتخلص من القناص.

انكفأ عبد الله وأصدقاؤه، واكتفوا بالجلوس أمام كومبيوتراتهم. وأصبحنا نتحادث، بحكم أن وقته قد أصبح ملكه، حيناً عبر «الماسنجرر»، وحيناً آخر عبر الهاتف.

نصحتُه بالقراءة، وأرسلت إليه ترجمة ألواح ملحمة جلجامش الأحد عشر، فقد كنت أعيب عليه قلة ثقافته، لأنه لم يقرأ جلجامش بعد، وكنت أداعبه وأقول: مَنْ لم يقرأ جلجامش فكأنه لم يقرأ أبداً.

ولم يكن قد أنهى قراءة اللوح الثاني من الملحمة حتى قفز كأرخميدس يصرخ: وجدتُها وجدتُها.

وقرر أنه سيفعل مع القناص كما فعل جلجامش مع أنكيدو، سوف يروضه كما روض جلجامش الوحش أنكيدو بأن أرسل له بَغِيَّاً.

- ولكن أين البغي؟

تشاورَ مع الأصدقاء، فقال أحدهم: صاحبنا فلان سرسري (منحرف) وأكيد رح يدبرها.

وبعد أن شرحوا لـ «فلان» الفكرة دبّرها بالفعل. اتصل بـ «شامة الدلوعة» التي سميت كذلك لأنها تمتلك- كما أكد البعض- شامة في مكان ما، ولُقبت «دلوعة» لأنها دلوعة بالفعل.

كانت شامة هي الأشد كرهاً لداعش، فقد انقطع رزقُها، ولبست النقاب رغم أنفها، ولم تعد تستطيع التدلُّع، بسببهم، ولم يعد أحد يتجرأ ويرى شامتها.

وافقت بحماس، وقالت إنها ستنفذ المهمة بسبب حبها للوطن! وضحكت الضحكة إياها.

كانت الخطة تقتضي بأن تقوم شامة- مع أن بعض نوافذ بيتها ليست بعيدة عن منظار القناص- بفتح الستارة قليلاً أثناء تبديلها لملابسها، في حين يراقب «عبدُ الله» القناصَ بمنظاره ليعرف إن كان سيُبدي اهتماماً بما يرى. وقد فعلها المجاهد وأبدى اهتماماً.

واكتشف عبد الله من القناص مقتلاً، وترك الباقي لشامة.

وردد المقطع الذي حفظه من الملحمة:

أبصري الوحشَ القادمَ من أعماق البراري.

ها هو- يا بغيُّ- فاكشفي نهديك

اكشفي عن مفاتنك، لكي يتمتع بمفاتن جسمك

لا تُحجمي بل راوديه، وابعثي فيه الهيام

علمي الوحشَ الغرَّ فَنَّ المرأة

بدأت شامة تكرر المشهد. وبخبرتها غير القليلة سربت للقناص إشارة بأنها لاحظت اهتمامه بها، وبدأت تلقي له التحيات، وهو يرد التحية بأحسن منها.

وأصبح القناص مسؤولاً عن مراقبة نافذة الحورية، رغم أنه كان يطلق بين الحين والآخر طلقة ليذكِّرَ بأسباب جهاده، ولكنه، في الحقيقة، ترك الشوارع لعبد الله وصحبه يمرحون فيها على هواهم!

وحين يكون في مكمنه لم يكن يرفع عينه عن تلك النافذة، وحينما تتأخر شامة عن الظهور كان يطلق طلقة خبيرة على نافذتها التي أصبحت هي والخزانة التي خلفها كالغربال، فقد كانت الدلوعة- الله يهديها- كثيراً ما تتأخر في الظهور.

وتطور التواصل. استطاعت شامة أن تجرجر القناص إلى مخدعها. وعادت إلى عهدها في الأيام الخوالي.

شذب القناص لحيته بقدر ما يسمح الشرع، وقال للإخوة إنها احترقت بسبب طلقة فاسدة. واستبدل عطره بعطر عَلماني كان يخبئه في حوض النبات عند باب بيت شامة ويعطر نفسه به قبيل اللقاء. وأصبح يخلع الحزام الناسف ويدسه في المكمن وينطلق إلى حوريته.

وبدل أن تصبح هي ملك يمينه، كما كان يعتقد، فقد وقع في شركها، وأصبح هو ملك يمينها.

فهي كانت أول أنثى يخاطبها دون مُحْرَم ودون حجاب.

لاحظ الإخوة تغير مزاج القناص المجاهد.

- مالي أراك مشغول الفكر يا أبا الدحداح؟

- إنني أتفكر فقط يا أبا سرح.

- لقد لاحظ عليك الإخوةُ تَغَيُّرَ حالك. بل إن الأمير أطال الله عمره وسدد خطاه قد أمرني أن أحادثك بعد أن نقل له أحد الإخوة أنك صليت من العصر ثلاث ركعات، بدلاً من أربع! كما أنك أصبحت لا تسنن كثيراً، ومسواكك لم يقصر طولُه منذ أسبوعين!

- لا شك أن ذاك الروييضة المنافق الذي جاء من جبهة المرتدين ليتجسس علينا يكيد لي عند الأمير، ويريد تشتيت شملنا لتذهب ريحنا.

- تف من فمك يا أبا الدحداح ولا تأكل لحم أخيك، فهو، كما تعلم، شديد البأس قَطّاعٌ لرقاب النصيريين والمرتدّين ولا يخشى في الحق لومة لائم.

- حسبنا الله وهو نعم الوكيل.

وكما أنكرت حيوانات الغابة أنكيدو بدأ صحبُ أبي الدحداح ينكرونه، فلم يعد له غير صدر البغي ليجهش عليه.

كُلِ الخُبْزَ يا انكيدو، فإنه مادة الحياة.

واشرب من الشراب القوي فهذه عادة البلاد.

قادته البغي إلى عبد الله الذي حدثه عن الظلم والقهر فاغرورقت عيناه بالدموع، ثم حدثه عن عائلته التي جمع أشلاءها في أكياس، فأجهش بالبكاء. حدثه عن مستقبله الذي خسره رغم شهادته العالية بسبب كلمة حق قالها ليس أمام سلطان جائر بل أمام كلب سلطان جائر. حدثه عن العائلات المُعْدَمة التي كان عبد الله يوصل إليها الطعام مغامراً بحياته بالمرور أمام منظار قناصته. وحدثه وحدثه وحدثه فأجهش وأجهش وأجهش. ولكن لحيته لم تبتل فقد كان قد حلقها.

عبد الله الذي كان عندما يتحدث تحسب روحه هي التي تحدثك وما ينفك ينقل عيونه بين الجهات الأربع وكأنه يراقب أسوار وطنه وينقل عينيه بين الأرض والسماء وكأنه يريد الصعود به إلى الأعالي.

لقد تقمصت روحه روح جلجامش القوي الجميل.

عزمتُ على أن أذهب لو بالحزن والألم

وفي القر والحر وفي الحسرات والبكاء

فافتح لي الآن باب الجبال.

ردّدتُ هذا المقطع من الملحمة الخالدة. وقلت لنفسي لقد قرأ عبد الله لوحين فقط من ملحمة جلجامش، وروض أشدَّ الرجال قسوةً وفتكاً، فماذا هو فاعل لو قرأ الألواح الأحد عشر كلها؟

الفصل الثالث عشر
أيام الثورة على نظام الاستبداد

روحـــوا عـــلى جمعيـــة أســـماء الأســـد- *(قصة فنية رواها: رامي سويد)..*

تدخل «فاديا» إلى مقر الجمعية، ترمي المفاتيح على الطاولة، تسند ظهرها إلى الحائط، تنفخ نفختها الطويلة، تتنهد، تتمتم:

- يا ربي لأيمتى؟

منظر النساء المستلقيات على الرصيف، وتلك النائمة على ظهر «السوزوكي» بانتظار افتتاح الجمعية صباحاً، هو أكثر ما هالها وأرعبها.. مشاهد اليأس والألم تزداد يومياً، مع زيادة عدد اللاجئين القادمين من «إدلب» و«حلب» باتجاه «اللاذقية».

تدخل المجموعة الأولى إلى مكتب «فاديا»، ثلاثة نساء، الأولى تحمل طفلاً لم يبلغ السنة، لا يزيد وزنه عن أربعة أو خمسة كيلوغرامات.. يبدو عليها وكأنها نازحة من الصومال وليس من حلب! تخبرها بأنها، منذ ثلاثة أيام، تضع في بيبرونة الحليب ماء أو قليلاً من الشاي، لأن «البز» تبعها نشف «بسبب سوء التغذية أو انعدامها بالأحرى»، وهي لا تملك ثمن الحليب الصناعي من ناحية أخرى!

المرأة الثانية تجر طفلة بعمر أربع سنوات، تُخبر «فاديا» بأن هذه الطفلة هي الصغرى لإخوتها الأربعة، أكبرهم يبلغ الثانية عشرة.

وتقول المرأة بصوتها المخفي: صار لي ستة أيام عم طعميهن سندويش زعتر ومي، أو زعتر وشاي، لأن الزيت كتير غالي.

الثالثة أرملة شهيد! لديها ثلاثة أولاد، تقطعت بهم السُبل، ووصلوا إلى اللاذقية، ولم يعد لديهم ما يشترون به الطعام!

تنظر فاديا في وجوههن، تقرر أن تفعل شيئاً، تُخرج «جزدانها» تجد تسعة آلاف ليرة سورية، توزعها بالتساوي بينهن، ثلاثة آلاف لكل واحدة.

تخرج فاديا إلى غرفة «رامز» مسؤول الخدمات الطبية في الجمعية، تسلم عليه، تسأله:

- كيف الوضع اليوم؟ شو قصة هي البنوتة الحلوة؟

يجيبها رامز: هذه البنوتة من المعرة طارت من شباك البيت لما وقعت قنبلة فراغية ع جيرانهم، انكسر فكها السفلي، وبقي أهلها شهرين وهم يفتحون فمها بالمسطرة منشان يعطوها تشرب شي «بالشليمونة»!

يستأذن «رامز» من «فاديا». لديه طفلة مصابة بشظايا في رجليها، وبحاجة لتغيير على الجرح، يُذَكِّرُها بأمرها، فقد طلب منها سابقاً أن تبحث عن طبيب تجميل مستعد لمساعدة هذه الطفلة، لأن الجروح والحروق الموجودة سببت تشوها كبيراً، وهو أمر لا يستهان به بالنسبة لأنثى ما تزال في عمر الورد الأول!

تخرج «فاديا» من الغرفة. تسمع ضجيجاً وصراخاً عند مدخل الجمعية، ثمة مجموعة من رجال الأمن و«اللجان الشعبية».

يصرخ أحدهم: مين المسؤول هون؟

تجيب «فاديا»: أنا. نعم؟ خير؟ شو بدك؟

يجيبها بوقاحة: وليش رافعة مناخيرك؟ تضربي بشكلك، هاتي ٦٠ حصة غذائية، يالله بسرعة دلي الشباب ع المستودع!

تنظر فاديا إليه باستحقار أكثر:

- ليش مين أنت حتى تاخد حصص؟ أنت نازح شي؟ بيتك انقصف شي؟

ثم تتذكر أنها يجب أن تتملقه قليلاً، لكي لا يسبب لها المشاكل، تكمل حديثها:

- الله يرضى عليك يا أخي، في ناس أحق منك، هلق نحنا بأزمة والدنيا خربانة. الناس مو ملاقية تاكل. انشالله بس نترحرح شوي هاليومين بترك لك كم حصة ع طرف!

يجاوبها بحنق: وليك «شَرموطة»! لا يكون مفكرتيني جاي اشحد منك! إذا خلال خمس دقايق ما بنكون حَمَّلْنا ومشينا، بدي سكر لك هالجمعية، واشحطك لعنا.

تتوسع الحدقتان في عيني فاديا، يرتعش جسدها، تنتفض وتصرخ:

- رووح رووح، إلعب غيرها.. ليكا، هي جمعية «أسماء الأسد» عم توزع بالبيضا وراس النبع، روح سكرها إذا كنت رجال!

في هذه اللحظة يتبادر إلى ذهن فاديا أنها لو سمحت لهم بأخذ ما يريدون فإنهم سيحولون جمعيتها الصغيرة إلى «بيت مونة» كل ما لزمهم شيء سيأتون ويأخذون، وسيرسلون الرفاق والزملاء!

تجن فاديا من هول الفكرة، ترمي «الموبايل» الذي تحمله باتجاه الحائط، تقفز وتركض باتجاه الخارج، تصيح في الناس الواقفين على الدور، في الشارع:

- يا ناس يا عالم، فوتوا خدوا حصصكم، هي حقكم، تعوا خدوها بدون دوور، بدون وصوووولاات، ولك فوتووو...

تهجم النساء الجائعات على الجمعية، يبدأ التناتف والتناحر على

صناديق المساعدات، تخرج كل واحدة بصندوق، وتخرج فاديا بالنشوة!

(**مفردات:** تترحرح: يصبح الوضع أكثر وفرة. أسماء الأسد: زوجة بشار الأسد.)

دَلال رفاهية- *(رواها: خطيب بدلة)*

حدثني «مرهف» الشاب الذي أمضى شهرين في أقبية «الأمن الجوي بحلب»، عن مشاعر ضباط الفرع والعناصر والسجانين في الأيام التي يقترب فيها خطر «الجيش الحر» منهم.. كأن تصل إشاعة مفادُها أن إحدى كتائب الجيش الحر تنوي مهاجمة الفرع، واقتحامه، ووقتها يغيرون معاملتهم لنا، ونحصل على شيء من الدَلال والرفاهية.

قلت: السبب؟

قال: لا أعرف. ربما كان نوعاً من الرشوة لنا، لنشفع لهم عند الثوار فيما لو نجحوا باقتحام الفرع، أو ممكن أنهم يعتبروننا مادة للتفاوض والتبادل، أو شيء من هذا القبيل.

قلت: بالله، وما نوع الدَلَال الذي يقدمونه لكم؟

قال: يسمحون لنا أن نشخّ «نتبول» في غير الأوقات المخصصة لـ «الشخاخ»، وحينما يغادر واحدُنا المهجع باتجاه الحمَّام لا يرفسه أحد في مؤخرته ويقول له: تشخّ سم الهاري يا أخو الشرموطة!

حرية عند بيت الأسد- *(رواها: وافي بيرم)*

في بداية الثورة، وكالكثيرين من أبناء الشعب السوري، اعتُقِلْتُ في فرع أمن الدولة بإدلب. أمضيت شهراً كاملاً، لا أستطيع وصف معاناتي خلاله. وقبل مغادرتي الفرع بساعتين اقتادوني إلى غرفة فيها محقق وعنصران اكتشفتُ لاحقاً أنهم مستخدمان مدنيان.

المحقق صار يكلمني بشكل هادئ، وبلهجة فيها نُصح وحنان. قائلاً:

- أنتم أمل البلد، وهذه الحرية هي من تصدير الإمبريالية الأميركية! حريتنا تكمن في الوقوف إلى جانب قائدنا الشاب في هذه المحنة. المؤامرة كبيرة يا ابني، وهي ترتدي ثوباً رخيصاً اسمه «الحرية»!

استمر بالشرح مكرراً نفس الأسطوانة التي طالما سمعناها.. عن القوى المتربصة بمحور الممانعة.. وأنهى حديثه بجملة: دير بالك بقى تقول «حرية»، سمعان ولا لأ ولاك حيوان؟

فأجبته: حاضر سيدي. (وهو الجواب الوحيد المسموح به هناك).

بعد فترة من الزمن اكْتَشَفَت المنظومةُ المخابراتية العتيدة أنني لم أتخلَّ عن «الحرية» إكراماً للرئيس الشاب، كما نصحني المحقق، ويبدو أن التقارير الواردة إليهم أفادت بأن «الحرية» تتردد إلى بيتي بين الحين والآخر، وأحياناً نسهر مع بعض! فقامت قوة أمنية مؤللة بمداهمة مكان عملي الذي اتضح أنه يهدد محور المقاومة والممانعة والتصدي، وأنني العميل الأخطر الذي أتى بالمؤامرة الكونية إلى هذا البلد الآمن.

تمكنتُ، بقدرة قادر، من الهرب، متوجهاً إلى بلدتي المحررة. وواسيت نفسي بالمساحة الأكبر في ممارسات «الحرية» الثورية فيها. وبدأنا، أنا ومجموعة من الأصدقاء، نحيي السهرات الثورية، وليس لدينا سوى الأحاديث الثورية، والمرح، والنقاشات الرائعة، والتخطيط لمستقبل سوريا الحرة..

ولكن، ومع الأيام، بدأت تطغى على أحاديثنا أخطاء الثوار المسلحين وما يفعلونه بأهالي البلدة الطيبين، حتى إن حديث الطاغية المستبد «الأسد» نادراً ما كان يتطرق الحديث إليه أحد، فالخطر الأكبر كان ما يواجه الأهالي من ظلم بعض مَنْ أطلقوا على أنفسهم صفة «الثوار».. وهكذا حتى لمعت في رأس أحد الأصدقاء فكرة بأن نكتب ونوزع منشورات نبرئ فيها الثورة من أعمال هؤلاء الفاسدين في البداية، ثم نرى ما نستطيع فعله بعدها.

أعجبتنا الفكرة وبدأنا- حالاً- بالكتابة والتصوير والطباعة، واتفقنا أن يكون الموضوع سراً وأن يكون التوزيع ليلاً لضمان سلامتنا.

وفعلاً كان الأمر.

وبدأنا نسمع ردود أفعال مَن يسمون أنفسهم ثواراً، فقد أصابتهم منشوراتنا بالجنون، وبدؤوا يقومون بحملات اعتقال عشوائية، ويُجْرون مداهمات ليلية لبيت كل من يشكون بأمره، وأهالي البلدة يتهامسون بأن الثورة بدأت تمشي على طريقها الصحيح.

إلا أنني ارتكبتُ- ذات مرة- خطأً كبيراً، إذ نشرت بعض هذه المنشورات على صفحتي الفيسبوكية، مطمئنَّاً إلى أن اسمي كان مستعاراً حينها.. إلا أنهم توصلوا لمعرفة مَن أكون عن طريق أحد الأصدقاء، فمنظومتهم المخابراتية أقوى وأذكى من «الموساد» بحد ذاته!

وفي يوم.. كنت جالساً مع أحد الأصدقاء في الحارة، وإذ بسيارتين تقفان ويترجل منهما أربعة عناصر مدججين بالأسلحة. سألوني: أنت وافي بيرم؟ قلت: نعم. فما كان من اثنين منهم إلا أن كبلاني بالكلبشات، وبركلتين أو ثلاث أصبحت في صندوق السيارة، وتربع أحدهم بجانبي ووضع مسدساً برأسي وقال لي: اختر بين حياتك وبين النظر للأعلى..

وانطلقت السيارتان بسرعة على الطرقات الترابية المتعرجة.

ونحن في الطريق حاولت التكلم إلى الرجل الجالس بجانبي إلا أن اللكمة كانت رده المتواضع علي.

بدأت أسترجع بخيالي طريقة اعتقالي من قبل قوات الأمن وما حصل معي من انفعالات وخوف، وشرعت أفكاري تسرح بعيداً وقريباً.. إلا أن توقف السيارة قطع هذه السلسلة من الأفكار وصاح أحدهم:

- نزل لي هالحيوان!

فقلت له بسخرية: سمعان هالعبارة قبل هالمرة!

فكان الجواب، كسابقه، لكمة أخرى. ثم ربطوني بالكرسي، وعصبوا عينيَّ، وبدأ التحقيق «مع من أنت»؟ و«لمين تابع»؟ و«لمصلحة مين تبث الفتنة»؟.. وبين السؤال والآخر كمية لا بأس بها من الشتائم وتهديدات بالكهرباء!.. وأنا لا أجاوب غير بالكلام الثوري، فأقول: نحن أبناء بلد.. وعيب هذه الطرق التي تتبعونها مع أهلكم.. والشي الكثير من هذا الكلام الذي لا يشترونه بقرش..

المهم وبعد ساعتين من حرق الأعصاب وتهديد بالتصفية لأكثر من مرة بحجة الفتنة، والفتنة أشد من القتل، بدأت جوالاتُهم بالرنين، وصارت تأتيهم التهديدات من شرفاء الثورة بأن يطلقوا سراحي وإلا....

أحسوا بأن الوضع لا يُحْتَمَل، وأن الثوار قد تجمعوا وبدؤوا يُحَضِّرون لاقتحام مخبئهم لتحريري منهم، وقتها حضر قائد الكتيبة وفك العصابة عن عيني. وقال لي:

- شوف ولاك حيوان. هاي «الحرية» اللي بدكم ياها روحوا خدوها من عند بشار الأسد.. سمعان ولاك جحش؟ هون ما عندنا «حرية»، عم تفهم؟

جنازة في حلب- *(رواها: ماهر حميد)*

المكان: حلب- شارع منحدر ذو ميول

الزمان: ٢٠١٣/١١/١٣

الحدث: تشييع جنازة على عربة يجرها بشر لعدم وجود بنزين يكفي لمن هم على قيد الحياة..

الفاتحة.. وحدوووووه!

- الله يرحمه، الله يرحمه.. ارتاح خيو، ارتاح.

- أي والله يا حجي.. ارتاح من هالشقا. الله يلطف فينا وفي عيالنا. جنازة مين هي أبو الشباب؟

- لك هذا الحاج أبو قدور سماقية وار !

- له له له.. الله يرحمك يا أبو قدور. أولاد أختي التنين كانوا يشتغلوا عنده بالمعمل!.. قبل ما يروح معمله!

- أيييييييييييه، تعتر المسكين في آخر أيامه بعد ما راح معمله مع مستودعاته.

- يا لطيف يا لطيف، لك إش صار؟ اهروب أبو عبدو، شمع الخيط.

وطي راسك واركود ركيد، يخرب بيتون منين عم يجي كل هالرصاص؟

رصاص كثيف غير معروف المصدر كان يلعلع في المكان، بدأ المشيعون، على إثره، بالركض، هاربين في كل الاتجاهات.

وحده قدور، ابن المتوفى بقي متمسكاً بالعربة خشية أن تنزلق وتسقط في المنحدر.

- لك يا قدور، أبوس روحك، اتروك العربانة وتعال لهون، الحي أبقى من الميت لك خيو.

هكذا صرخ ابراهيم صديق قدور وهو مختبئ خلف زاوية مبنى متهدم طرفُه..

وبعد صراخ يأتيه من الخارج، وصراخ يأتيه من داخله، خاطب قدور جثمان أبيه قائلاً:

لا تواخذني يا يوب أبوس رجلك.

وترك العربة ونجا بجلده.

العربة سرعان ما انحدرت، واضطربت، وزادت سرعتها كأنها أرادت أن تستعجل إيصال الجثمان الى مثواه الأخير.

انقلبت العربة، أخيراً، وانقذف جثمان أبي قدور على الأرض، وتمرغ بكفنه بالوحل، ودرجت فوقه عجلات العربة.

الفاتحة!

بَرسيل للغسيل- *(رواها: رامي سويد)*

بعد أن أنهي طاهر الشاب ذو الثلاثين عاماً الذي يعمل مع كتائب «أبو عمارة» التابعة للجيش الحر بحلب نوبةَ الحراسة الخاصة به على جبهة «الشيخ خضر» بالقرب من حي الصاخور بحلب أخرج هاتفه الخليوي ليتفقد وجود تغطية شبكة اتصال من عدمها. وجد أن شبكة الاتصال موجودة.

فتح قائمة الأسماء في جهازه، وبدأ بتجريب اسم بعد اسم من أصدقائه أو أقاربه. كان معظمهم خارج الخدمة بسبب سوء تغطية شبكات الهاتف النقال في حلب!!

بعد نصف ساعة من المحاولات علّق الخط. رنّ هاتف ابن عمه «وائل» الذي أصبح اسمه «أبو البراء الشمالي» بعد انتسابه لصفوف جبهة النصرة!!

رد أبو البراء قائلاً «باللغة العربية الفصحى»: السلام عليكم. كيف حالك أخي؟!!

طاهر: أهلاً بابن العم. كيف حالك؟ طمني عنك. وين أراضيك؟ مشتاق لك بدي شوفك!

أبو البراء: أخي، أنا حالياً في منطقة «النقّيرين». تقدر تجي لعندي!؟

- أي بقدر. عطيني العنوان.

أبو البراء: أخي، إركب وتعال إلى طريق (حلب- الباب) القديم عند مفرق النقيرين. في معمل بابه أخضر كبير. هناك حارس على الباب. أسأل عني هناك.

طاهر: طيب. جاييك!!

وصل طاهر إلى المكان الذي حدده ابن عمه. سأل عنه. دخل المعمل. وجد مسطحتين (المسطحة: عبارة عن شاحنة ضخمة ذات سطح خلفي واسع تستعمل في تحميل المواد والبضائع التي يمكن تستيفها، أي وضعها بشكل متراص فوق بعضها ومن ثم ربطها)، ووجد عناصر جبهة النصرة يقومون بتحميل طرود كبيرة من مسحوق غسيل ماركة «برسيل» على ظهر المسطحتين!!

طاهر: إشي القصة ابن العم؟ عم تشتغلوا بتجارة مواد التنظيف؟!

ضحك أبو البراء ضحكة طويلة وقال: أي والله. لازمك برسيل؟!

طاهر: أي لازمني، بشقد العلبة؟!!

أبو البراء: الكيلو بـ٢٥٠ ليرة، العلبة من فئة الـ خمسة كيلو بـ١٢٥٠ ليرة، هيك عم نبيعها!

طاهر: ما حطيتلك كم علبة على طرف؟ عطينا كم وحدة منهم!!

أبو البراء «بجدية»: شو مفكرنا «جيش حر» مثلكم؟! هي جبهة النصرة معلم!! من شوي أجا واحد من العناصر تبعنا يشتري علبة دفع لأمير المجموعة ألف ليرة، وما رضي يبيعه إلا بـ ١٢٥٠!!

طاهر، مندهشاً: ما شاء الله. عندكم نظام!! خيو بدي أسألك، شقد كمية البرسيل اللي عم تحملوها؟ محرزة يعني؟!

أبو البراء: أي والله. حوالي ٢٠٠ طن!!

طاهر، متعجباً: يا مُحَمَّدْ!! عـ ٢٥٠ للكيلو الواحد بيطلعوا ثروة!! وليش عم تصادروا البضاعة؟ صاحبها «شبيح» يعني؟!!

أبو البراء: والله ما بعرف. «الأمير» قال هذا معمل لواحد مسيحي!! وما

ذكر إذا كان شبيح ولا لأ!! نحنا شغلتنا بالقسم الاقتصادي بجبهة النصرة ننفذ الأوامر ونقبض الرواتب وما بنتدخل بطبيعة الشغل!!

أخرج طاهر سيكارة وهم بإشعالها قائلاً: ما شالله عليكم. مطيعين!!

أبو البراء: شو عم تعمل؟ طفيها، طفيها قبل ما حدا يشوفك. نحنا عنا في «الجبهة» التدخين حرام!! هلق بتعمل لنا مشكلة!!

طاهر، وهو يشفط شفطة عميقة، غير مبال بتحذير أبي البراء: آيوااه.. التدخين حرام قلت لي! متأكد أنه حرام؟!

الهوية- *(قصة فنية رواها: خطيب بدلة)*

حينما دخلتُ المقهى شعرتُ بنوع من الاطمئنان.. وقلت لنفسي إن القصة مَرَّتْ، أو- على الأغلب- مَرَّتْ على خير.. فالعنصر المسلح الذي كان يتتبَّعُني لا بد أنه أضاع أثري عند ثانوية «المأمون» بحي الجميلية..

كنت أغذُّ السير، لأبتعد، قدر الإمكان، عنه، وألْتَفِتُ، كل هنيهة، لأراه يغذُّ السير ورائي، فأشعر بأنني قد أصبحت قاب قوسين أو أدنى من الوقوع في قبضته.

وفجأة.. سمعنا صوت انفجار قريب من المكان. ذُعر الناس المتواجدون هناك، وأخذوا يتراكضون في كل الاتجاهات.. وأما أنا فقد اغتنمت الفرصة وسلكت الطريق الفرعي الذي يؤدي إلى إشارة المرور قدام مبنى البريد. هذه الإشارة ما زالت تعمل في فترات اشتعال التيار الكهربائي، ولكن لا يوجد أحد من السائقين أو المشاة يتقيد بتبدلات ألوانها.. ومنها عبرتُ إلى ساحة «سعد الله الجابري» التي يحتلها عناصرُ «اللجان الشعبية»، وكانوا، لحظتئذ، مستنفرين، لقموا بنادقهم، واحتموا بالسواتر الترابية، وراحوا يأمرون المارة بالإسراع أثناء عبورهم، ليروا ما ستتمخضُ عنه الحالة الأمنية على إثر التفجير الذي لا يعلم أحدٌ أين وقع بالضبط.. وكان هذا لصالحي،

بالطبع، إذ سرعان ما وصلت أمام الباب الرئيسي للفندق «السياحي».. وبتفكير بسيط قررتُ عدم سلوك الطريق الرئيس الذي يعاكس مجرى السير في شارع «القوتلي»، فثمة هناك تواجد كثيف للعناصر الأمنية، وفي مثل هذه الظروف يكونون في أوج عنجهيتهم.. التففتُ من وراء الفندق، وعبرتُ الزقاقين الصغيرين اللذين يؤديان إلى «مقهى الثقافة» الذي كان يمتلكه المحامي «محمود حَمَام»، ودخلت..

المشكلة التي حصلت، عند الحاجز، لم تكن نتيجة لخطأ ارتكبتُه أنا.. فمنذ بداية الأحداث في سوريا ما عاد أحدٌ يسمح لنفسه أن يخطئ.. وقلما يُحَاسَبُ امرؤٌ ما على شيء فَعَلَهُ، وإنما على سلسلة من الأشياء التي (لم) يفعلها!!.. فعناصر الحواجز الحكومية، مثلاً، يسألون (النَفَر) الذي يوقفونه:

لماذا (لا) تحب السيد الرئيس ولاه حيوان؟

لماذا أنت (غير) متواجد الآن في الساحة الفلانية حيث المواطنون الشرفاء يحملون صور القائد بشار الأسد ويهتفون بحياته ولاه كرّ؟

لماذا (لا) تحمل السلاح وتقاتل معنا ضد الخلايا الجهادية الوهابية التكفيرية العرعورية ولاه جحش؟ أ(لا) تعرف أنهم إرهابيون ولاه ابن الكر؟

وأما الشبان الذين يتمترسون عند حواجز الثوار فيسألون الشخص الذي يقع تحت رحمتهم:

لماذا يا أخي (لا) تسبح بحمد الله تعالى وأنت راكب في السيارة؟

لماذا يا أخي (لا) تطلق لحيتك كما أمرنا رسولُنا الكريم؟

لماذا (لا) تتخلى عن ملذات الحياة الدنيا وتأتي فتجاهد معنا في سبيل الله، لتستشهد وتذهب إلى جنان الخلد؟

حينما وصل بنا الميكروباص إلى الحاجز القريب من «سكة القطار»، كنت أحمل هويتي بيدي، مثل بقية الركاب. هي عادة طرأت علينا نحن المواطنين خلال السنتين الماضيتين سببُها الاعتقاد بأن حمل الهوية باليد ييسر علينا عبور الحواجز بسهولة، وفي وقت أقل.. ذلك أن عملية إخراج الهوية من الجيب تستغرق وقتاً ليس بالقليل، ولا سيما لدى الشباب الذين يلبسون بنطلونات «الجينز» الضيقة الملتصقة بالجسم.

المهم.. فتح السائق الباب، تقدم العنصر وهو يبتسم.. قال:

صباح الخير يا شباب.. اسمحوا لنا بالهويات..

أنا قدمت له هويتي، وإذا بيدي ترتجف، وتسقط الهوية على الأرض!..

السيدة الأربعينية التي كانت جالسة قربي في المقعد لديها فكرة أن عناصر الحواجز الأمنية قوم لا يَرحمون، لذلك شهقت بصوت منخفض، وقالت لي:

ولي على قامتي.. اقتربت نهايتك يا «مشحَّر»!

خلال أقل من نصف ثانية أحسستُ بلساني يعلق بسقف حلقي، وكاد قلبي يتوقف، من شدة الرعب.. ولكن حركة بدرت من العنصر غَيَّرَت الحالة تغييراً جزئياً، إذ ابتسم لي وقال:

- ولا يهمك أخي.. هذه المسألة تحصل في كل زمان ومكان..

وقرفص هو وبندقيته المعلقة في كتفه، ومد يده على الأرض باحثاً عن هويتي، وفي هذه اللحظة سمعنا صوتاً أرعد في المكان، قائلاً:

- قُمْ ولاه حيوان..

كان هذا- على ما يبدو- رئيس الدورية. لأن العنصر قام من قرفصته وحياه، وقال له:

- احترامي سيدي. هذا المواطن وقعت هويته على الأرض، وأنت تعلم يا سيدي ماذا تعني الهوية بالنسبة للإنسان السوري.. يا سيدي أنا شاهدتُ أكثر من عشرين برنامج تلفزيوني يتحدث عن «الهوية»..

لم يقتنع رئيس الدورية بكلام العنصر. دفعه من أمامه بعنجهية، وهو يقول له: اخرس.. بلا علاك، أنت الآخر تصدق كلام التلفزيون؟..

ثم التفت نحونا وقال: مين «الكرّ» صاحب الهوية؟..

قلت بصعوبة: أنا.

قال: تضرب في شكلك كلب ابن الكلب ولاه.. الآن، لما أجيب الهوية راح تشوف قيمتك.

ونزل هو، بجلالة قدره، على الأرض منبطحاً، ومد بارودته تحت «الميكروباص»، وأخذ يحركها على نحو دائري حتى استطاع سحب الهوية باتجاهه..

العنصر الذي تلقى الإهانة من رئيس الدورية ما زال متعاطفاً معي. ويبدو أنه شعر بالارتياح عندما تمت عملية استخراج الهوية بنجاح.. وقال لي وهو مبتسم كعادته:

- تفضل عمي.. انزل واستلم هويتك..

ههنا حصل الأمر الذي ينتمي في الحقيقة إلى سوء الطالع.. فأنا، ومن فرط اضطرابي، دستُ على ظهر رئيس الدورية الذي كان على وشك النهوض، ولأنه سمين بعض الشيء فقد انزلقت قدماي واستقرت اليمنى على رقبته.. وسمعته يقول: آخ..

ووقتها نزل حامل الرشاش الجالس وراء الساتر الترابي وهو يصيح:

- والله لألعن بَيَّك يا عرص.. تدوس على رقبة «المعلم» يا حقير؟.. والله لأجعلك تشتهي الموت ولا تناله..

وقتها أحسستُ أن منيتي اقتربت.. ومن حلاوة الروح تحولتُ إلى كلب صيد سريع، واصطدمتُ بأحد الجدران، ولكنني لم أكترث.. وتابعتُ الجري..

حينما ابتعدتُ عنه قليلاً انتبهتُ إلى مسألة لم تكن قد خطرت لي من قبل.. وهي أن أيَّ «حاجز أمني» قريب يراني راكضاً قد يرتاب بأمري، ووقتها لن يكلفهم قتلي سوى رصاصة ماهرة تستقر في دماغي.. ولذلك صرت أمشي بخطى عجلى،.. وبين الحين والآخر ألتفت إلى الخلف، لأرى العنصر يلاحقني، فأغذ السير أكثر..

الحقيقة أنه لم يكن في مقدور أية حالة أو مصادفة أن تنقذني، وتجعلني أتحرر من الاعتقال المحقق سوى ذلك التفجير الإرهابي..

أحمد- بروفايل- *(رواها: رامي سويد)*

أحمد طالب يحمل شهادة هندسة نووية من جامعة حلب..

أحمد يساوي «فرنك مصدي» في سوريا الأسد..!!

أحمد تخرَّج من الجامعة وما زال ينتظر دور التوظيف..

أحمد سيُعَيَّن غالباً مشرفاً على مَخْبَر في «المعهد الفني للمراقبين الفنيين».. وإذا كان محظوظاً فسيتم تعيينه مشرفاً على أحد خطوط الإنتاج في الشركة السورية لدباغة الجلود..!!

عندما انطلقت الثورة خرج أحمد مع أبناء حيه الفقير في حلب بالتظاهرات. أحمد اعْتُقِل وعُذِّب ثم رمي خارج السجن مكسور اليد والخاطر..!!

بعد حين من الزمن دخل الثوار المسلحون مدينة حلب حمل أحمد معهم السلاح..!!

باعتبار أن أحمد كان الجامعي الوحيد في الكتيبة تم تسليمه منصب «القناص».. !!

أحمد يضع قناصة «الدراغانوف» على كتفه الأيمن.. ينظر في ناظورها يشاهد عسكرياً من الجيش النظامي.. يصوب نحو رأسه.. يضغط الزناد.. ينفجر رأس العسكري..

أحمد يشعل سيجارة.. ويبكي..!!

الفصل الرابع عشر- شؤون ثقافية وإعلامية

حافظ الأسد مفكراً- *(رواها: هيثم حقي)*

تذكرتُ حادثة جرت في التلفزيون بمنتصف السبعينات...

كان «أحمد اسكندر أحمد» قد عُيِّنَ حديثاً، بصفة وزير للإعلام، فجاء إلى الوزارة، ومعه توجيهات، وخطة تقضي بتقديس حافظ الأسد.

وبناء عليه أعطى للعاملين تعليمات تنص على أن (تُدْحَش) أقوالُ الرئيس، وأفكاره، ومفاهيمه، ورؤاه، في كل البرامج التي ستُعَدُّ من الآن فصاعداً.

وذات يوم.. كان أحد المذيعين- وهو رجل مطيع ومخلص- يسجل حلقة من برنامج ثقافي عن «مفهوم الحرية»، وقد استقبل اثنين من كبار أساتذة الفلسفة بجامعة دمشق، ممن درسوا في فرنسا أيام الحرب العالمية الثانية، وتربوا على الثقافة الغربية.

بدأ كل واحد منهما يعدد مقولات الحرية ومفاهيمها عند الفلاسفة منذ أفلاطون وحتى اليوم. وصاحبنا المذيع، كل شوي يقاطعهما ويقول:

- نعم.. والسيد الرئيس حافظ الأسد له قول مهم في هذا السياق..

ويسرد قولاً مأخوذاً من أحد خطابات حافظ الأسد.

والأستاذان يتجاهلان تعليقه، ويقول أحدهما، مثلاً:

- وأما جان بول سارتر فقد كان يرى.. إلخ.

واستمر اللقاء كله على هذه الشاكلة، والمذيع كاد يبكي من الغيظ وهو يحاول أن يدحش أقوال الأسد في السياق لكي يرضى السيد الوزير، والأستاذان لا يكترثان له، ولا كأنه موجود معهما!!

شخصية اعتبارية- *(رواها: عدنان عبد الرزاق)*

كان الرائد الركن الرفيق تركي صقر رئيساً لتحرير صحيفة البعث لربع قرن. وكان يصر على إلقاء محاضرات في قسم الصحافة بجامعة دمشق بقصد أن يثبت للآخرين أنه نال درجة الدكتوراه- من روسيا- بكد يمينه.. ولم يكتبها له أطروحتَها أحدُ موظفي الجريدة كما كان يُشاع.

ذات مرة كان يحاضر عن «جرائم النشر» التي تطال الشخصية العادية والشخصية الاعتبارية. ويبدو أن إيقاع كلمة «الاعتبارية» قد راق له، فأكثر من استخدامها لدرجة أن أحد الطلاب تجرأ ورفع يده يريد أن يطرح سؤالاً رغم معرفته بأن السؤال، خلال محاضرة الدكتور «صقر»، ممنوع.

قال الدكتور تركي للطالب بلهجة مليئة بالوعيد: نعم؟ شو بدك؟

الطالب، وجلاً: ممكن سؤال دكتور؟

الدكتور: اسأل.

الطالب: شو يعني «شخصية اعتبارية» دكتور؟

نزل هذا السؤال على رأس الدكتور كالصاعقة، إذ لم يكن يتوقعه، وهو لا يعرف الجواب بالطبع.

صفن دقيقة ثم قال للطالب: أنا بدي اسألك. هل أنت شخصية اعتبارية؟

قال الطالب: نعم دكتور.

الدكتور: أي لكان انقبر!

افتتاحيات للبيع- *(رواها: خطيب بدلة)*

ذات مرة، قبل حوالي ربع قرن من الزمان، كنت جالساً عند بعض الأصدقاء في القسم الثقافي بجريدة «تشرين» وجاء أحدُ مراسلي الجريدة، ووضع كومة من الصحف الطازجة على طاولة رئيس القسم، وخرج..

أحد الموجودين فتح صحيفة «الأسبوع الأدبي» وأدار الصفحة الأولى نحونا وقال:

- شباب.. مَنْ يأخذ مني (٢٥ ليرة سورية)، حَلالاً زَلالاً، ويقرأ افتتاحية علي عقلة عرسان؟!

كان لمبلغ ٢٥ ليرة، في تلك الأيام، طَنة ورَنّة، ومع ذلك رد عليه آخر:

- خذ مني (٥٠ ليرة)، حَلالاً زَلالاً، واقرأها أنت!!..

كانت قراءة الافتتاحيات، في سوريا الأسد، نوعاً من العقوبة، أو الغرامة، أو دليلاً على وجود مرض تعذيب الذات «المازوخيّة».. لأن كاتب الافتتاحية هو نفسه الشخص الذي ترضى عنه تشكيلةُ المتسلطين من أبناء الأسرة الحاكمة، ورؤساء الشعب الأمنية السرطانية، ووزير الإعلام السكندري (نسبة إلى أحمد اسكندر أحمد).. وبالتالي فإن الافتتاحيات الصحفية أصبحت تشبه الفاتحة العسكرية من حيثُ كونُها تتضمن البنودَ الرئيسية للخط الإعلامي الرسمي، وهي أن سوريا- أولاً- دولة مواجهة، لا صوتَ فيها يعلو على صوت المعركة!.. وأن لها- ثانياً- قائداً «مُلْهَماً» يعرف كيف يجعلها شوكة في حلق الصهيونية والإمبريالية والرجعية وأذناب الاستعمار!.. وأن حزب البعث العربي الاشتراكي- ثالثاً- هو القائد الحقيقي للدولة والمجتمع، ومن ثم فإن الحياة في سوريا محكومة بقول القائد التاريخي «لا حياة في هذا القطر إلا للتقدم والاشتراكية»!.. وأن الحصار الاقتصادي الظالم الذي فرضته الدول الإمبريالية على الشعب السوري وقياداته- رابعاً- يتطلب اتباعَ نهج التقشف الدائم، حتى إذا شعر القائدُ

حافظُ الأسد بشعور الشعب، وقائدُنا، والحمد لله، من النوع «الشعَّار».. وأصدر مكرمة «عَطَائية» بزيادة الرواتب، أو دعم إحدى السلع الاستهلاكية، ما ترى إلا وملايين السوريين وقد فارت دماؤهم، وغلب عليهم الحب، وتدفقوا إلى الشوارع وهم يحملون صوره وأعلام الوطن، ولا يعود المواطنُ منهم إلى بيته إلا بعد أن يتحقق له أمران أساسيان: الأول أن يبح صوته من كثرة الهتاف! والثاني أن يصاب بـ «فتاقة»، من كثرة ما «يعصّ» على نفسه «ويكبس» أثناء الهتاف!

إن افتتاحية تتضمن هذه البنود (النضالية- الثورية- التصحيحية) كان يكتب مثلها، كل يوم: عميد خولي، ومحمد خير الوادي، واسكندر لوقا، وصابر فلحوط، وفايز الصايغ، وعدنان عمران، وخَلَف المفتاح، وعصام داري، إضافة الرائد الركن المظلي الدكتور تركي صقر.. (الذي رُوي عنه خَبَرٌ- أشك بصحته- مفادُه أنه كان يُمَشِّي المحررين في جريدة البعث بطريقة النظام المُنْضَمّ!).. لا يختلف واحد منهم عن الآخر إلا في عدد الأخطاء الإملائية، وارتفاع أو انخفاض نسبة الركاكة في افتتاحيته.

ولكن، وللحقيقة والتاريخ: إن افتتاحيات الدكتور على عقلة عرسان كانت مختلفة عن غيرها. ستسألونني (لماذا؟.. وكيف عرفت أنها مختلفة وكنتم لا تقرؤونها حتى ولو اقتضى الأمر دفع غرامة قدرها خمسون ليرة سورية)؟!

أقول: كنا نعرف مضمونها من خلال تصريحاته المعلنة، وما تتناقله وكالات الأنباء عن مواقفه القومية المشرفة. نسيت أن أقول لكم أن ع ع ع «الاسم المختصر لـ علي عقلة عرسان»، كان، فوق كل تلك الثوابت الوطنية والقومية التي يتحلى بها رؤساء التحارير الآخرون، يقف ضد التطبيع مع العدو الإسرائيلي!!..

أي والله. أنا لا أمزح!.. ولقد سئل أكثر من مرة:

- إذا وَقَّعَت القيادة السورية صلحاً مع العدو الإسرائيلي، وحصلت عملية تطبيع في العلاقات.. أنتم في اتحاد الكتاب ماذا تفعلون؟

فأجاب، بما معناه: نحن نحترم قيادتنا، بالطبع، ونثق بحكمتها السياسية، ولكننا، مع ذلك، لا نصالح، ولا نوقع، ولا نُطَبِّع!

دايم الله. لقد حَكَمَ ع ع ع اتحاد الكتاب العرب منذ الأزل وحتى سنة ٢٠٠٥. وكان يضرب بيد من حديد كل من تسول له نفسه الاعتراض على نهجه النضالي..

الغصة الوحيدة التي كانت تستولي على حلقه هي: أن افتتاحيته لم يكن يقرؤها أحد!

معرض فني- *(رواها: عبد القادر عبدللي)*

دُعيت لإقامة معرض فني في الرقة، وكان مدير المركز الثقافي يومئذ هو المناضل البعثي الرفيق «خَلَف المفتاح».

عندما فتحتُ اللوحات لأوزعها على الصالة، وكان عددها ٢٣، مر الرفيق «خَلَف» من أمامها، وقال وهو يمشي ويهز بسبابته مشيراً إلى اللوحات واحدة تلو الأخرى:

- هاذي ما تنعرض، وهاذي ما تنعرض، وهاذي كمان، ما تنعرض..

إلى أن أشار إلى ٢١ لوحة من مجموع اللوحات. وحين هم بالخروج دخل الفنان والناقد التشكيلي «طلال معلا» إلى الصالة، وعرض علي تقديم المساعدة في تعليق اللوحات، فقلت له:

- ما عاد في لزوم، الأستاذ الرفيق خلف منع ٢١ لوحة من ٢٣، بقى شو رأيك؟ هل نفتتح معرضاً بلوحتين؟

التفت طلال نحو المدير، وقال:

- اللي بيمنع لوحة بدي أدحشها في ...!

ولكن الرفيق المدير خلف لم يكترث. خرج دون أن يُبدي أي ردة فعل.

(**حقيقة:** صار الرفيق خلف المفتاح، فيما بعد، مديراً عاماً لمؤسسة الوحدة للطباعة والنشر، وأنا مستغرب، لماذا تأخروا كل هذا الوقت في تعيينه عضواً للقيادة القطرية)!

فنية

يحكى أن أحد الأشخاص سأل الروائيَّ الكبير، قائدض الجيش الشعبي، العميدَ الركن، الأديبَ، الدكتورَ محمد ابراهيم العلي:

- ليش رواياتك لا يوجد فيها لمحات «فنية»؟..

فاستغرب، واستنكر، واندهش، وفنجر عينيه وقال:

- غريب هذا الكلام! تريدون «فنية» والعدو على الأبواب؟ تريدون «فنية» والكيان الصهيوني الغادر يحتل أرضاً فلسطينية، وأرضاً عربية سورية!؟ تريدون «فنية» والرجعية الداخلية تتعاطى مع رموز المؤامرة الخارجية من أجل زعزعة صمود سوريا؟ ولك.. آخ. آخ خ خ خ!!

وسكت. (على الأغلب أنه قال في نفسه: يلعن أبوكم على أبو الفنية!)!..

كَسَّار رأس حنا مينة- *(رواها: غسان الجباعي)*

دخلت، ذات مرة، إلى مكتب «مجلة المعرفة».

كان النقاش محتدماً بين مديرها الكاتب «عبد الكريم ناصيف» وضيفه اللواء الكاتب الروائي العالمي محمد إبراهيم العلي الذي تُرجمت رواياته الكثيرة جداً إلى لغة «تشرين» و«البعث» و«الثورة»، والكثير جداً من اللغات الأخرى..

وما إن عرّفه عليَّ عبد الكريم، حتى أكمل سيادة اللواء حديثه الساخن، كما لو أني لم أكن موجوداً.

كان ساخطاً، منفعلاً، يهاجم اتحادَ الكتاب العرب، والكتّابَ الذين انسحبوا منه احتجاجاً على طرد «أدونيس»، ذلك المارق الذي يلتقي، في أوروبا، مع الكتّاب الإسرائيليين والصهاينة.. راح يشتم ويسب، ويكاد أن يبصق، وهو يقول: إنه «سيفعس» رأس حنا مينا بحذائه، ويدوس على رقبة سعد الله ونوس، وأمثاله من «العرصات»، أشباه الكتاب...

كنت أراقب، بصمت، حذاءَه الجلدي اللامع الأنيق، وجوربَه الحريري الأسود، عندما توجّه إليّ بسؤاله المفاجئ:

- ما رأي الأستاذ!؟

كما لو أنه سألني: ما رأيك بي؟

قلت متردداً: أنا؟!.. أنا لا رأي لي..

ورفعت يديّ مستسلماً! غارقاً في مقعدي. فغضب وقال عاتباً:

- لكنك مخرج وكاتب! ويجب أن يكون لك رأي..

فقلت: بصراحة يا سيدي! أنا خائف منك.! إذا كنت ستفعس رأس حنا مينا الكبير، وتدوس على رقبة رمز المسرح السوري سعد الله ونوس، فماذا ستفعل بي أنا، إن قلت رأيي أمامك!؟

قهقه عبد الكريم. كان يريد أن يتنفس. وكان وجهه حيادياً، خالياً من البهجة، ومع ذلك قهقه، وأردف مشيراً بإصبعه نحوي:

- أحسنت!... والله أحسنت!

عسكرية غير شكل- *(إياد جميل محفوظ)*

حدثني صديقي «عين قاف» عن الطريقة التي أمضى من خلالها خدمته الإلزامية.. بعد أن عانى كثيراً من صعوبة التأجيلات الإدارية وتكلفتها العالية سنة بعد سنة.. وما رافق ذلك من استنزاف لوقته وماله.

قدم له أحد الوسطاء الماهرين عرضاً من ذهب للتحرر من مشكلة العسكرية بشكل نهائي.. وحين سأله صديقي عن الوسيلة: هل هي بدل نقدي؟.. أم إعفاء صحي؟.. أم ماذا؟

أجابه الوسيط قائلاً: لا.. لا.. ليس شيئاً من هذا ولا ذاك.

- إذن كيف؟

- يا أخي ستذهب وتسلم نفسك لشعبة التجنيد.. وتخدم عسكريتك مثلك مثل أي مواطن سوري صالح.

فرد عليه صاحبي بحدة وغضب: أيش هذا الكلام؟.. تطلب مني أن أذهب إلى مصيري بقدمي.. وتتعطل أعمالي الصناعية والتجارية؟.. بودك تخرب بيتي؟

فهتف الوسيط مبتسماً: لا يا أخي.. أنت راح عقلك لبعيد.. سوف تخدم.. ولن تخدم في الوقت نفسه.

- فَسّرْ لي أرجوك.. أنا لا أحب الألغاز.

- ستمضي عسكريتك في مكان محترم.. ويا سيدي من شدة احترامه لن تصادفك أية عوائق في عملك، ولا في حلك ولا في ترحالك.

الخلاصة تمكن صاحبي من إنهاء خدمته الإلزامية بكل سهولة واحترام.. إذ نُدِبَ مباشرة من شعبة تجنيده في حلب إلى «دار طلاس للنشر والتوزيع» في حمص!!!.. ولم يطلب منه سوى مرافقة السيارة المرسيدس التابعة للدار في بداية كل شهر من حلب إلى حمص، وتناوُل غداء شهي في أحد مطاعمها الجميلة على نهر العاصي.. والمرور بعدها على مقر الدار للسلام والتحية، والتوقيع على استلام الراتب.. ومن ثم العودة إلى حلب بالسيارة ذاتها معززاً مكرماً.

وأكثر من ذلك فقد بقي جوازُ سفره في جيبه طيلة فترة خدمته

العسكرية.. وكان يغادر إلى خارج سورية، ويعود إليها وقتما يشاء.. دون الحاجة للحصول على تأشيرة خروج، أو موافقة أمنية، أو ما شابه ذلك.

مذيع مغضوب- *(رواها: خطيب بدلة)*

كان أحد الأصدقاء يحدثني عن معدي البرامج والمذيعين اللبنانيين، فقال إن معظمهم يتمتعون بالرشاقة وخفة الدم، وضرب لي مثلاً، بـ«ميشيل قزي» الذي يعرف باسم «ميشو» الذي لا يقدم برامجه واقفاً وحسب، بل وراقصاً.. وحتى مقدمو نشرات الأخبار، تراهم يأخذون ويعطون ويتلفتون، وهذا من شأنه أن يكسر رتابة الجمل الخبرية المسرودة، ويخفف من وقع «التلقين» على المشاهدين..

فقلتُ له: نحن في سوريا نحب «الثقل» و«الرَّكازة»، فالمذيع الذي يقدم نشرات الأخبار عندنا لا يدخل إلى ستوديو الأخبار إلا إذا كان مرتدياً لباس الميدان الكامل! وهو يجلس في مواجهة الكاميرا جبهياً، وهي الطريقة الشائعة عالمياً لدى تصوير الأشخاص المطلوبين للعدالة!

ولئن كنا نستبشر خيراً حينما يكون الدور في تقديم النشرة على الأستاذ «مهران يوسف»، لأن وجهه، بطبيعته، مستبشر، فقد كنا ننقبض، وغالباً ما نغلق محطة التلفزيون الوحيدة المتاحة أمامنا، حينما يكون الدور في تقديم النشرة على المذيع «راء فاء»، فهو رجل ذو وجه مفلطح، وله شاربان أسودان كثيفان، وحاجباه مثل حاجبي الرفيق المرحوم «ليونيد بريجينيف» الذي خصه الكاتب الروسي الساخر «جريجوري آستيور» بمسألة حسابية قال فيها: (إذا كان الرسامون قد استهلكوا ١٥٩ مليون كيلو جرام من الأصبغة لرسم لحية كارل ماركس، واستهلكوا خمسة أضعاف هذه الكمية لرسم حاجبي ليونيد بريجنيف، فكم هي كمية الأصباغ التي استهلكها رسمُ كل حاجب من حاجبَيْ ليونيد بريجينيف على حدة)؟

ذات يوم كنت في زيارة أحد أبناء عمومتي حيث يقيم في حي «الجلوم»

بمدينة حلب، وكان ذلك المذيع المغضوب «راء فاء» يقرأ نشرة الأخبار، فانفلت ابن عمي الصغير بالبكاء، فجأة.

أغلقت زوجتُه التلفزيون، وأعطته سُكَّرة، فسكت، ولكنه بعد قليل عاد إلى الشيطنة، فأمسكتْ به بقوة، وقالت له:

- شوف ولاك، كُو بشرفي، يا إما بتسكت، يا إما بفتح التلفزيون!

الفصل الخامس عشر
جناح خاص بالأدباء المعتقلين

أولاً- مساهمة الشاعر فرج بيرقدار

عزيزي خطيب

اطلعتُ على ما أرسلت لي من مخطوط الحكايات، وأرى أنه مشروع مهم ومتفرِّد في موضوعه، وخفيف ظل شكلاً بما يضمن «الإمتاع والمؤانسة».

انسجاماً مع طبيعة اختياراتك فقد اخترتُ فصلاً من كتابي «خيانات اللغة والصمت» الذي كتبتُه داخل السجن وهرَّبتُه على ورق السجائر، ونشرتُه لاحقاً دار الجديد في بيروت، طبعة أولى ٢٠٠٦ وطبعة ثانية ٢٠١٢.

كروكيات بالحبر السري

-١-

حين تختلُّ المعادلة بين مساحة المهجع وعدد السجناء، كما هو الحال في المهجع «النفَق» كما تسميه الإدارة، أو «المحْشَر» كما يسميه السجناء، فإن الحل الوحيد والعبقري والمجنون في آن معاً، هو نظام المناوَبات.

ذلك يعني أن ينقسم السجناء إلى أربع مجموعات: مجموعة تناوب وقوفاً لمدة ست ساعات، ومجموعتان تجلسان القرفصاء، والمجموعة الرابعة تنام بعد أن يتمدَّد أفرادُها بشكل متعاكس، عقباً لرأس أو رأساً لعقب، متعانقين بأقصى ما يمكن من اليأس والقرف والكراهية، ثم يقوم أضخم سجينين بكبسهم بالأرجل، إلى الحد الذي يحقق العدالة والتوازن ما بين كتلة الأجساد والمساحة المخصَّصة لها.

بعد ست ساعات تستيقظ هذه المجموعة لتناوب ست ساعات وقوفاً، بدلاً من المجموعة الأولى التي يأتي دورها بالجلوس، بينما تستعد إحدى المجموعتين الجالستين لدورها في النوم. وبعد ست ساعات أخرى يأتي دور المجموعة التي تليها وهكذا.. بحيث يكون نصيب كل مجموعة ست ساعات نوم خلال أربع وعشرين ساعة.

الآن بعد أن وضعتكم بصورة الكروكي، سأحاول توليف الصوت مع الصورة:

أحد السجناء من المجموعةِ المناوبة وقوفاً، يختلف مع جيرانه، لأنهم لا يتركون له سوى مساحة صغيرة، لا تتَّسع إلا لقدم واحدة، فيتململ ثم يغمغم ثم يعلو صوته، وهو يتحدث عن الأنانية وانعدام إحساس البعض بالغير!.. ومعه معه يستمرئ حالة الانفعال، فيسهب في محاضرة طويلة عن فساد الأخلاق والقيم في هذه الأيام، وعن سيادة قانون الغاب والفوضى والجهل والتخلف وعدم جدارتنا بالحياة، ليصل أخيراً إلى حكمه المبرم والقاضي بأننا نستحق ما هو أدهى من هذه المَخْرَأة الملعونة.

كنت أرقب ما يجري ببلاهة لا تليق بي، فأعادني أحد جيراني إلى نفسي وهو يجَؤني بمرفقه ويهمس:

أترى إلى هذا الزنبور المتفلسف! من أجل موطئ قدم أخرج الجميع من دينهم.. لكن الحق ليس عليه، بل على هذه الدولة الداشرة، التي تملأ الدنيا شعارات، وهي عاجزة عن تأمين حاجة المواطنين من السجون!

-٢-

فور وصول دفعات الرفاق الجدد المحوَّلين من فروع التحقيق إلى سجن صيدنايا، التقت بهم إدارة السجن، بغية تصنيفهم وفرزهم، وقد عرضت الإدارة إغراءات مثيرة لمن يقبل أن يكون متعاوناً أو مرناً أو حتى متهاوداً في مواقفه السياسية:

جناح مريح ولا خمسة نجوم، زيارات محترمة على شبك واحد بدلاً من شبكين، مذياع رنَّان، جريدة مدعومة، تنفُّس، وتسهيلات أخرى مستورة..

لاحظت الإدارة ضعف استجابة السجناء لعروضها السخية، الأمر الذي دفعها إلى اعتبارهم بالإجمال متشددين وذوي رؤوس يابسة.. وهكذا بدأت عملية الفرز.

أوكلت الإدارةُ المهمةَ إلى دُهاتها، الذين حاولوا في البداية فرز من يمكن أن يكونوا الرؤوس الأكثر خطورةً. أما معايير التصنيف التي تدلِّل على عمق ذكائهم وفراستهم، فقد كانت على النحو التالي:

أولاً: فرز أصحاب النظارات السميكة، ثم ذوي المظهر الأنيق، وأخيراً ذوي الأجرام الضخمة..

فيما بعد أجروا فرزاً آخر وفق معايير غامضة، فمن انطبقتْ عليه المعايير، ساقوه إلى «الباب الأسود».

لا تسألوني ماذا يعني الباب الأسود؟ فكِّروا بهذا الاسم كما تريدون. أما بالنسبة إلي، فإن ما يهمني من هذا الكروكي «الحربوق»، هو معايير تصنيف السياسيين، وليس العقوبات والمتاعب التي يتعرضون إليها.

-٣-

اليوم أنزلوا «أبو مطاوع» إلى المنفردة، وبعد قليل عاد الرقيب ليقول:

- أبلِغوا «مهدي عامل» أن يضبّ أغراضه للنزول إلى المنفردة أيضاً.

أجاب رئيس الجناح بأنه لا يوجد عنده أحد بهذا الاسم.

وبعد أخذ وردّ، أخبر الرقيبُ رئيسَ الجناح، بأن الرسالة التي حاول أبو مطاوع تهريبها إلى أهله ضُبِطتْ، وهو يطلب فيها مجموعة كتب له، وكتاباً لمهدي عامل، فكيف سيوصل أبو مطاوع الكتاب إلى مهدي عامل، إذا

لم يكن هذا الأخير موجوداً معه في جناح واحد؟!

كأن الرقيب أراد أن يقول، بأنه عثر على دليل دامغ بوجود تراسل بين الأجنحة.

حاول رئيس الجناح إقناع الرقيب، بأن مهدي عامل الذي يبحث عنه، إنما هو كاتب ومفكر لبناني، وقد اغتيل منذ عدة سنوات. إلا أن الرقيب لم يصدِّق رغم سماعه لتأكيدات عديدة من بعض السجناء الواقفين قرب الباب، فأطرق مفكراً للحظات، ثم ما لبث أن وجد الحل، فقال وعيناه تختلجان قلقاً وريبة:

- حسناً.. سأبلغ الإدارة بذلك، ولكن انتبه.. سيكون كل شيء على مسؤوليتك.. مسؤوليتك أنت كرئيس جناح.

-٤-

كان المساعد متجهِّماً أكثر من المعتاد، وهو يقول لأبو إياد:

- أترك جميع أغراضك، وشرِّف معي.

اشتغلت الكمبيوترات في رؤوس بعض السجناء بطاقتها القصوى، فغطَّت التحليلات قطاعاً واسعاً، يمتد من احتمال الإفراج وحتى احتمال إعادة التحقيق. أما أبو إياد، فقد كان ينزلق على الدرج، وهو غير قادر على التفكير بأكثر من حالة انعدام الوزن التي يحسها. هو يتذكر أنه وصل إلى الطابق الأرضي، وأنهم استقبلوه بكلمات من العيار الثقيل، وربما ضربوه وهم يجلسونه على الأرض، ثم سمع صوت ماكنة الحلاقة، وهي تحرث رأسه.

فجأة استيقظ أبو إياد على صوت المساعد ينادي لإحضار الدولاب.

مثل نابض كان مضغوطاً وأفلت، نهض أبو إياد وتقدم باتجاه المساعد:

- قل لي لماذا حلقت لي؟!

- هذا ليس شغلك.. هاتوا الدولاب.

حاول أبو إياد جاهداً، أن يعرف السبب، وكان المساعد يكتفي بالقول:

- أنت تعرف الذنوب والمخالفات التي ارتكبتها.

وحين قال أبو إياد، وأقسم وأعاد، أنه لم يرتكب أي مخالفة على الإطلاق، تردد المساعد.. وفي النهاية قال:

- قد يكون المقصود شخصاً آخر، ولكن سنرى. عد الآن إلى جناحك، وسأستفسر من المعلم، فإذا لم تكن مخالفاً، أعفيناك من الدولاب وإلا.. فإني سأنزلك ثانية، وسيكون دولابك مضاعفاً.

عاد أبو إياد مثل نخلة مكسورة.. جلس وتحلَّق الشباب حوله.

استفسارات طالعة نازلة، والكمبيوترات تضرب أخماساً بأسداس، والقلق يرهق الأعصاب، ويذرُّ في الدم زجاجاً مطحوناً.

بعد ساعة أو أكثر بقليل انجلى كل شيء.

كيف؟

تقول العصفورة:

- بسيطة.. حصل سوء ترجمة سببه التناقض بين المعنى الحقيقي والمعنى المجازي للفظة «الحَمَّام»، فالحمَّام حسب لغة السجن ومصطلحاته، يعني دولاباً حامياً مع مستلزماته من شتائم وإهانات. ولهذا حين أوصى مدير السجن بالحلاقة والحَمَّام لأبو إياد، فَهِمَ المساعد التوصية وفقاً لمصطلحات السجن.

وقالت العصفورة أيضاً، إن المساعد أكل بهدلة طويلة عريضة، إذ قال له مدير السجن:

- يا ابن الهيك وهيك.. لقد طلبتُ منك أن تحلق للسجين وتحمِّمَه

بجدّ، لأن أهله تدبَّروا وساطة قوية من فوق، وهم قادمون الآن لزيارته!

-٥-

بعد العديد من المطالبات والاحتجاجات الفاشلة من أجل الحصول على الصحف، أرسلت الإدارة أحد الرقباء، يتشمَّم حقيقة الموضوع وحدوده، عبر جسّ النبض ومعرفة إذا ما كان لدينا نوايا مبيَّتة.

أشعل الرقيب غمَّازاته على اليسار، وانعطف يميناً، ثم أشعلها على اليمين، وانعطف يساراً، وبعد عدة رشقات من الأسئلة التمويهيِّة وبالونات الاختبار، وصل إلى موضوعه:

-غريب أمركم أنتم السياسيين.. لماذا كل هذا الإلحاح على الصحف؟! أقسم لكم بشرفي العسكري، أني أنا نفسي لا أقرؤها..

ثم ما حاجتكم للصحف؟.. هل تريدون أخباراً؟ وأيّة أخبار ووجع رأس؟.. صدقوني لا جديد.. أو كما تقولون أنتم: لا جديد تحت الشمس.. وبعدين إذا كان هناك أية أحداث جديدة أو هامة، فإن نشرة التوجيه المعنوي للجيش، أصبحت تصلكم مثلكم مثلنا.

قلنا له بأننا لسنا بحاجة إلى نشرة التوجيه المعنوي للجيش، وأن ما طالبنا به هو الصحف اليومية، التي توزَّع في الأسواق بصورة رسمية، ونعتقد أن حصولنا عليها، إنما هو واحد من أبسط حقوقنا كمعتقلين سياسيين.

قلب الرقيب سحنته وصوته، فراح يعلك الكلمات علكاً، ويبصقها في وجوهنا:

-الآن صارت نشرة التوجيه المعنوي «كخّ»، وهي التي تقدم لكم زبدة المواضيع؟!

حرَّك رقبته كما لو انه يحاول توضيع رأسه فوقها بشكل صحيح، ثم أضاف:

- نعم.. الزبدة تماماً.

قال أحدنا، وقد ورمت حوصلته:

- أخي من شان ألله خذوا أنتم الزبدة، وأعطونا شنينتنا!

بالطبع أرغى الرقيب وأزبد، ثم هدَّد وتوعَّد، وفي اليوم التالي حضر مساعد الانضباط، ليعطينا دفعة شتائم على الحساب، وينذرنا بتبعات استهتارنا بالزبدة.

وبالفعل.. مضى علينا زمن مغسول باللعنة سبعة «أزوام»، عشنا خلاله لا زبدة ولا شنينة، ناهيكم عن المنغّصات التفصيلية التي لا تنتهي.

-٦-

سأل مديرُ السجن قبل أن يُنهي لقاءَه بسجناء أحد المهاجع، فيما إذا كان هناك من لديه سؤال أو مشكلة أو شكوى .

صاح أحد السجناء:

- أنا يا سيدي.. منذ تسع سنوات حكمتْني المحكمة براءة، ولكن لم يُفرجوا عني.. ومنذ عامين حوكمت مرة ثانية، وكان حكمي براءة أيضاً، وهأنذا كما ترى!

أخذ مدير السجن وضعية مَن يلقي خطاباً:

- يا أبنائي.. كونوا على ثقة تامة، أن كل بريء عندي، سيخرج من هذا السجن، مهما طال الزمن. نعم.. سيخرج ولو بعد مئة عام.

توقف قليلاً، كما لو أنه يريد أن يمنح السجناء فرصة لاستيعاب كلامه، ثم توجَّه إلى مساعد الانضباط:

- انقل لي هذا السجين إلى مهجع البراءة.

قال المساعد مرتبكاً:

- سيدي.. مهجع البراءة لم يعد يتسع.

قاطعه المدير بنبرة عسكرية حاسمة:

- بل يتسع ويتسع.

ثم أردف مخاطباً السجناء بطريقة، توحي أنه ينبغي أن يغادر:

- غيره يا ابني.. في شيء؟

رفع أربعة أو خمسة سجناء أيديهم، وراحوا يشرحون وضعهم المشابه لوضع زميلهم.

- يكفي.. يكفي.

قالها المدير بامتعاض ونفاد صبر، ثم التفت إلى المساعد مرة أخرى:

- انقل هؤلاء أيضاً إلى مهجع البراءة.

أعلن السجناء أنهم لا يفضِّلون ترك مهاجعهم الحالية، فأجابهم:

- طيّب.. كما ترغبون.. نحن يهمنا أن يكون السجين مرتاحاً، إذا كان ذلك لا يتعارض مع الأنظمة.

ثم انطلق محاطاً بسرية الحراسة التي ترافقه عادة في مثل هذه المهمات.

- ٧ -

الزيارات مقطوعة، وطعام السجن، اللّهم اعفُ عنا..

أما السجناء، فاحتجاج ينطح احتجاجاً، والإدارة تدير ظهرها.

أخيراً أعلن السجناء إضراباً عن الطعام، وقد راق لبعضهم، أن يعطوا الإضراب وملحقاته وزناً معنوياً وتاريخياً، فأسموه: «انتفاضة اللَّبَن».

جمعت الإدارة سجناء كل جناح على حدة، وأجرت فرزاً جديداً، شمل

معظم المهاجع، إلا أن الطعام، رغم تهديد الإدارة ووعيدها، أصبح أفضل كمّاً ونوعاً.

كان هذا قبل بضعة أعوام. أما الآن فإن الأمور لم يعد لها علاقة، لا بفضل الله، ولا بفضل القيمة، ولا بأي فضل في التاريخ.

ثلاث بطيخات لجناح كامل يضم أكثر من مئة سجين.. وللدقة والأمانة والتاريخ، فإنه كثيراً ما يكون نصيبنا ثلاث بطيخات ونصف.

أما بخصوص الفراريج، فكأنهم يخضعونها لريجيم لا يرحم، ورغم هذا الريجيم القاسي، فإن مخصَّص مهجعنا مثلاً، وهو مؤلف من ثمانية أشخاص، نادراً ما يتعدَّى الفروج الواحد أسبوعيّاً، وغالباً كل أسبوعين، مما يعني أن حصَّة الواحد منَّا يوميّاً، هي جزء من مئة وعشرين جزءاً من الفرُّوج، ومع ذلك فإننا لا نحرِّك ساكناً.

رجاءً لا تزايدوا علينا.. أنتم أيضاً في الخارج لا تحركون ساكناً، هذا إذا لم تكونوا أكثر من ذلك.

-٨-

كل شيء في هذا السجن مقيَّد إلا السرقة، فهي طليقة اليدين، وتتمتَّع بشخصية اعتبارية مرموقة جداً رغم سرِّيتها.

باختصار.. لا شيء تقريباً غير قابل للسرقة: اللَّحمة والزيت والسمنة والسكر والدوسير وأسعار الفواتير والأوزان.. الخ.

في النهار يبذل المعلمون جهوداً مضنية لترتيب الأمور وفق الأصول، وفي الليل يتسلَّل الزبانية إلى الأجنحة، ويساومون على بضائعهم بمهارة ليست أقل من مهارة تجَّار سوق الحميدية الدمشقي.

إحدى المرات التقطتْ وسائل التنصُّت الخاصة بنا، مساومةً طريفة بين شرطي وسجين.

في الحقيقة يصعب رسم كروكي يغطي سياق المساومة وتفاصيلها، ولهذا سأكتفي بالتركيز على الحركة الأبرز فيها.

السجين: لا .. تنكة السمنة برًّا بأقل من ثمانيمئة ليرة!

الشرطي: حسناً.. خذها بسبعمئة.

السجين: لا .. ثلاثمئة ولا فرنك زيادة.

الشرطي: اجعلها ستمئة وخمسين ولن تندم.

السجين: لا أدفع لك غير ثلاثمئة.

الشرطي: الله وكيلك رسمالها أكثر بكثير.

السجين: تعرف أني أعرف بالضبط ما هو رسمالها.

الشرطي: طيّب ستمئة، وهذا آخر سعر.

السجين: لن تعالجني أكثر.. خذ أربعمئة وأرحني.

الشرطي: أمري لله .. نقسم البيدر بالنصف بيني وبينك.. هات خمسمئة، ونطلع خالصين، ثم أردف: هل تريدون فراريج؟

السجين: لا أخفيك.. سوقها واقف عندنا هذه الأيام، فبعض الشباب يعارضون شراء الفراريج.

الشرطي وهو يشدُّ الجنزير إلى قفل الباب: اصطفلوا.. أنتم أحرار!

- ٩ -

ما من قصة تروى عن سجن تدمر أو صيدنايا إلا وكان أبو الخير يشارك في سردها، أو تدقيق بعض تفاصيلها، أو يشير إلى أنه كان طرفاً فيها. وعندما لم أستطع حلَّ ذلك اللّغز المعلَّق بين ملامحه التي توحي بصغر سنِّه وبين أحاديثه وذكرياته الهرمة عن السجون، سألته عن عمره، فابتسم وقال:

- أربعة عشر عاماً.

توقَّف لحظة وهو يراقب ردَّ فعلي، ثم أضاف:

- لم أكذب عليك.. اعتقلوني وعمري أربعة عشر عاماً، وأشعر أنني الآن، لا أزال متوقفاً عند ذلك العمر.. أو للحقّ.. ليس بوسعي تجاوزه .

قلت:

- ولكن كيف حدث ذلك، وأنت دون السن القانونية!

ضحك ملء شبابه أو طفولته:

- بسيطة.. لا تزال جديداً في جناحنا. غداً سأعرِّفك على أكثر من تسعين زميلاً في هذا الجناح، وجميعهم اعتقلوا دون السنّ القانونية.

وأبو الخير هذا، أمضى سبع سنوات في تدمر وخمساً في صيدنايا، وحين جاءته أول زيارة بعد هذه السنوات الاثنتي عشرة، راح يبكي ويرقص ويضحك.

قال لنا:

- في البداية.. لا أنا عرفت أحداً من أهلي ولا هم عرفوني، لكن بعد لحظات وفي وقت واحد تماماً، أنا عرفت والدي وهو عرفني. وحين سألته عن أمي، وأشار إلى المرأة العجوز القريبة منه، تمنَّيت، من شدة خجلي، أن تنشقّ الأرض وتبلعني. لكنني مثَّلت عليهم ومشَّيت الحال.

صمت قليلاً ثم تابع:

- وكذبت على أمي أيضاً. المسكينة سألتني متى سأعود، فماذا أقول لها؟!

طمأنتها بأني عندما يصبح عمري «جوّا» مساوياً لعمري «برّا»، فسوف تجدني في أحضانها.

فجأة عاد أبو الخير إلى ضحكه وطفولته:

- أنتم لا تعرفون كَمْ أمي ضعيفة في الحساب.

أنا متأكِّد أنني سأكون عندها قبل أن تستطيع حلَّ مسألة عمري جوّا وبرّا.

-١٠-

دخل أبو بصلة محروقة، كما نسميه، متهلِّل الأسارير وهو يهتف:

- عفو يا شباب.. عفو عام.. صادق مجلس الشعب على مرسوم جمهوري بعفو عام.

شرَّقتْ العيون وغرَّبت، وأبو بصيل يعيد كلماته، وكأنه يقولها على إيقاع «دربكَّة»، تتسارع ضرباتها في داخله.

لا أدري من منَّا سأله عن مصدر الخبر، فأجاب:

- الطابق الثاني.. منذ قليل اتصلوا بنا من الطابق الثاني.

هدأ الهرج قليلاً، وبدأت الهواجس والتخوُّفات من خيبة أمل أخرى على يد أبو بصلة، الذي ما يكاد ينتهي من إعداد خيبة، حتى يبدأ التحضير لواحدة جديدة.

اتصلنا بالطابق الثاني، فأجابوا بأن العفو لم يصدر بعد، ولكن مجلس الشعب يناقشه الآن.

سألناهم عمّن أبلغهم ذلك، فقالوا أبو الحنّ نقلاً عن الطابق الأول.

اتصلنا بأبو الحنّ مباشرةً، فأخبرَنا بأن الشباب في الطابق الأول، أبلغوه بوجود مرسوم عفو، ولكنهم لم يقولوا إن مجلس الشعب يناقشه الآن.

اتصلنا بالطابق الأول، فجاءنا الردّ بأن الخبر الذي سمعوه، وصلهم عبر زيارة بيت الأسمر، وهو يتحدَّث عن تحضيرات وجمع قوائم وأسماء لدراستها من أجل إصدار عفو بمناسبة عيد الأضحى، ومن الطبيعي في هذه الحال، أن يُعرَض المرسوم على مجلس الشعب من أجل المصادقة على الأقل.

طلبنا من ابن الأسمر أن يكتب إلينا كيف سمع الخبر بالضبط، فأفادنا بأن أهله أخبروه عن وجود إشاعات قوية في الخارج، وكلّها تتحدث عن عفو وشيك.

لاحقنا الأمر عبر زياراتنا، واتصل بعض الأهالي ببيت الأسمر، ليسألوهم عن حدود الخبر، الذي نقلوه لابنهم في الزيارة.

أخيراً وبعد أسبوعين علمنا، من خلال إحدى الزيارات، أن الخبر الذي نُقل إلينا في زيارة بيت الأسمر، هو محض اجتهاد شخصي من قِبَل أحد أفراد الأسرة، إلا أن اجتهاده، كما يقولون، مبنيّ على التحليلات التي سمعها من أخيه السجين معنا أثناء زيارتهم ما قبل الأخيرة.

-١١-

بعد أربع سنوات تدمرية كاوية، طلبني أحد ضباط التحقيق (ضابط من فرع فلسطين.. سيء السمعة لدى جميع من حقَّق معهم ولا سيما النساء، وقد كانت علاقتي به استفزازية دائماً، ليس بسبب سلوكه العام فقط، وإنما لكونه من منطقتنا أيضاً، وأعرف عنه الكثير منذ أيام الدراسة الثانوية).

بعد أن استقبلني ودعاني للجلوس، أوضح أن المقابلة، ليست أكثر من رغبة شخصية من قبله للاطمئنان عليّ، وأن لا علاقة لها بأيٍّ أبعاد أمنية أو سياسية، وعلى هذا الأساس كان سؤاله الشخصي الأول:

- إيه.. حدِّثنا.. كيف ترى الأمور في هذه الأيام؟

قلت:

- أي أمور تقصد؟

قال:

- الدنيا.. العالم.. انهيار جدار برلين وتداعي المنظومة الاشتراكية، وغير ذلك من المسائل، التي لاشكّ أنكم تتابعونها بعد أن وافقنا لكم على شراء الجريدة.

قلت:

- حسناً.. سأنسى أن مقابلتك لي لا علاقة لها بأي أبعاد أمنيَّة أو سياسيَّة.. أما بالنسبة إلى سؤالك، فيؤسفني أن لا يكون لدي جواب لأنساه.

ابتسم بطريقة بدت لي بين المراوغة والبلاهة والتشفِّي، وهو يمطُّ صوته:

- إي لا.. كل شيء في العالم تغيَّر، فهل تريد إقناعي بأن هذه الأحداث، لم تغيِّر شيئاً في مواقفك ووجهات نظرك السابقة؟

قلت:

- وحدهم الموتى لا يغيِّرون.. إلا أن التفكير بالنسبة إلي شرط ضروري للتغيير.. والحرية شرط ضروري للتفكير.. وأنا لست حرّاً لأفكِّر أو أغيِّر، ناهيك عن نقص المعطيات، إن لم أقل انعدامها، ثم قبل هذا وذاك، أنت أدرى بأن حديثنا هذا، إنما يدور بين سجَّان وسجين.

حاول أن يبدو ودوداً وهو يقاطعني:

- غلط.. صدقني غلط.. ثم آمل أن لا تعتبرني سجَّاناً، وحديثنا الآن،

كما هو واضح لك، ليس تحقيقاً... قلت لك كل شيء تغيَّر «برّا» .. ونحن أيضاً تغيَّرنا ونغيِّر.. ألا تقرؤون الصحف؟

قلت:

- أقرأ أني ما زلت سجيناً، وهذا بحد ذاته يكفيني لنفي ما تقول.. إلا إذا كنت تقصد أنكم تغيَّرتم نحو الأسوأ.

قال:

- يعني ما زلت تعتبرنا نظاماً ديكتاتوريّاً؟!

قلت:

- وهل لديك وصف آخر يلبِّي الغرض، وينطبق على واقع الحال؟

قال:

- ولكن الاشتراكية انهزمت. يا أخي لم يبق في العالم كله شيء اسمه اشتراكية، فما معنى تضحياتك المجَّانيّة؟!

قلت:

- ولكن الديكتاتورية عندنا لم تنهزم، وهذا وحده جدير بأن يضحِّي المرء بأشياء كثيرة لمواجهته.

قال: بالعكس.. الحريات الآن غير ما كانت عليه في أيامك، ونظرة سريعة إلى النقد الواسع والجريء في جميع الصُّحف، تؤكِّد لك ما أقول، ولكن كما تعلم، لا شيء اسمه حرية مطلقة، وخاصة في مجتمع متخلِّف كمجتمعنا.

قلت:

- ألا ترى الأمر مضحكاً، عندما تحاول إقناع سجين، بأن الحرية تدقُّ أطنابها في سورية؟! هل تريد إقناعي بوهم اعتقادي أني في

السجن؟ ثم هل تريدني أن أستقي معلوماتي من جريدة «البعث» الناطقة باسمكم؟!

قال:

وما بها «البعث»؟ صدِّقني إنها من خيرة الصحف العربية.. وحتى العالميّة.

لا أدري ما إذا لحظ ابتسامتي فتابع:

- أعني على الأقل من ناحية الدقّة والأمانة والمصداقيَّة.. ثم دعك من الصحف وخذ مني أنا.. أنا نفسي أؤكِّد لك.. ولا أظنك تستطيع الإنكار، أن الحرية عندنا أفضل مما هي في كامل محيطنا.. هاك العراق مثلاً أو تركيا أو الأردن..

قلت:

- لا أظنّ أن رؤساءك سيعتبرونك ذكيّاً، وربما لن يكتفوا باللّوم والتعنيف، إذا عرفوا أنك تحاول تبييض صفحتهم عبر مقارنتهم بالنظام العراقي. ولكن لندع العراق الآن خارج قوس. أمَّا ما عداه فإن جميع الأنظمة المجاورة أقلّ قمعاً واستبداداً من هذا النّظام، الذي أنت أحد أبنائه وأنا أحد ضحاياه.

ارتبك قليلاً، أو لأقل انفعل قليلاً، وهو يلجلج بلسانه ويديه وعينيه:

- ليس صحيحاً.. لا.. مطلقاً.. هات.. حدِّد لي نظاماً واحداً أكثر ديمقراطية.

قلت:

- الأردن.. تعرف أنه أقرَّ قانون حرية الصحافة، وها هو الآن يدرس موضوع إصدار قانون تشكيل الأحزاب.

ردَّ بانفعال أشد:

- ومن قال لك أن الأردن كذلك؟

قلت:

- جريدة البعث نفسها تقول ذلك.

ضرب بيده على الطاولة:

- كلّه حكي.. حكي جرايد.. صدِّقني لا شيء من هذه «التفنيصات».. قلت لك خذ مني أنا.

-١٢-

حين وصلنا إلى سجن تدمر، لم يكن معنا غير ثيابنا التي نرتديها.

لم تصمد الثياب هناك أكثر من عام، فبدأنا نتحايل على ترقيعها من خلال قصّ الأكمام أو تحويل أحد البناطيل إلى شورت.. ولكن مع مرور الزمن بدأت الرقع تهترئ أيضاً.

في النهاية عقدنا اجتماعاً مخصَّصاً لمناقشة موضوع الشرشف، احتياطينا الاستراتيجي الأخير، الذي حمله معه أحد الرفاق ممن كانوا في سجن صيدنايا وألحقوه بنا في تدمر.

أكثر من أربع ساعات ونحن نناقش الاقتراحات المتعلقة بالاستخدامات الأمثل للشرشف. بعضنا اقترح أن نستخدم جزءاً منه، يكفي للترقيعات الضرورية أو الملحَّة، ثم نحتفظ بالباقي للأيام السوداء والاهتراءات القادمة، وبعضنا اقترح استخدامه كاملاً للترقيع وتصنيع بضعة شورتات احتياطية، لأن بعض ثيابنا سيهترئ في المستقبل نهائياً، وهناك من تحدَّث عن أهمية الاحتفاظ بقطعتين مربعتين لتصنيع لوحة شطرنج ولوحة طاولة زهر.

أخيراً جرى انتخاب لجنة من ذوي الكفاءات العلمية والخبرة في

الخياطة، وفي الوقت نفسه يمتلكون قدراً مقنعاً من الموضوعية في تحديد أي الثياب أكثر حاجة من غيرها للترقيع، وما هو حجم الرقع الضرورية لكل منها.

أنجزت اللجنة مهامها كاملة خلال أسبوع من العمل المضني، ولكن لم يكن أحد من الرفاق راضياً عن كامل عملها، فهي إما منحازة في تقييم وضع ثياب فلان، وإما أنها هدرت جزءاً من الأمراط، التي كان يمكن استثمارها لو جرت القياسات بطريقة أخرى، وإما هي مستبدَّة ومتفردة برأيها، ولا تحترم اقتراحات الآخرين!

لا غرابة في ذلك.. ولا غريب إلا الشيطان، فللشحّ أخلاقه، مثلما للوفرة أخلاقها.

لحسن الحظ لم يطل الوقت كثيراً، حتى توقفت خلافاتنا وشجاراتنا الحراجية الجرباء بشأن الثياب والترقيع، فقد تكرَّمت علينا الدولة ببذلات عسكرية، وبثياب داخلية أيضاً، ومع ذلك احتفظنا بثيابنا القديمة المرقعة، إذ لا أحد يستطيع أن يضمن أن المستقبل لا يخبئ لنا أياماً أكثر اسوداداً.

مذكرات معتقل في الأمن الجوي

د. محمد جمال طحان

في ٢٠١١/٧/١٨ كان موعد اعتقالي من نظام الإجرام. كان يوماً لا يُنسى. اثنان متخلّفان من حطب السلطة المجرمة يشبهان الجدار الأصم اختطفاني من باب البيت مساءً حين كنت أمد يدي للسلام عليهما، ووضعاني في سيارة أجرة، ولم أدر إلى أي جهة يتبعان.

سألاني: هل تعرف الدكتور «مروان الخطيب»؟

قلت: هناك اثنان مروان الخطيب، أي واحد تقصد؟

قال واحد من النذلين: بلا فزلكة.

وأول ما نزلت القبو لمحت في الممر وجه الفتى «عمر عكام» متورّماً وتملأ قميصه الدماء وما يزيد على عشرة أشخاص يجلسون في الممر منهكين وفي أيديهم أوراق يكتبون عليها.

عرفت حينها أنني في مقر الشيطان ولا ملاذ لي سوى اللجوء إلى الله.

الممر

أدخلوني إلى مكان لم أتبيّن معالمه لأن عينيَّ معصوبتان. أوقفوني أمام طاولة ولمحت من تحت العصابة يدي رجل يرتّب أكياس ورق قديمة عسليّة اللون، يدوّن عليها اسم الشخص أو ربما رقمه ويضع أشياءه الخاصّة داخلها. قال لي: إش معك؟

قلت: ما معي شي.

قال: هوية.

قلت: ما معي.

أدارني.. ملص الخاتم من إصبعي.. وضعه في الكيس، وقال للشخص الذي يقف خلفي: شيلوه.

شدّني الآخر من ياقة كلابيتي، أجلسني في الممر ورأسي إلى الجدار... أعطاني ورقة وقلماً، وقال لي: اكتب كل شيء عن نشاطك التخريبي، واكتب أسماء كلّ من كانوا معك من بداية حياتك حتى هذا اليوم، واكتب بالتفصيل كلّ تحرّكاتك من أول الأزمة حتّى الآن.

جلست مذهولاً ولم أكن قد صحوت بعد من غفوتي المسائية التي تحدث كلَّ ثلاثة أشهر مرّة واحدة. ولسوء حظي حدثت اليوم، فاقتادوني من فراشي إلى مكان تبيّنتُ جزءاً من عتمته الخانقة حين فكوا العصابة عن عينيّ. لم أكن أدري تماماً كم الساعة.

ولم أتبيّن مصدر بصيص الضوء الخافت، لأنني أسمع كل من يرفع رأسه من الجالسين مثلي ويكتبون يقولون له: وطّي راسك يا حيوان. وأسمع صوت أكفّ تنهال على الرقاب. هذا غير الأصوات التي تأتي من بعيد عقب أصوات سياط وعصي تنهال على من يصرخون وتتداخل أصواتهم: والله يا سيدي ما عملت شي.. والله ما لي علاقة.. اقسم بالله العظيم ما لي خبر.... أبوس إيدك يا سيدي إش بدك بقول...

تناولت الورقة والقلم وبدأت الكتابة:

إفادة أولى

كتبت سيرة حياتي منذ طفولتي في باب الأحمر حيث ولدتُ حتى

دخولي روضة «العباسية» بحلب ثم دراستي للصف الأول الابتدائي في مدرسة الكواكبي حيث كنا نسكن في «بستان الزهرة»، ثم انتقالي إلى مدرسة «عمرو بن العاص». أما المرحلة الإعدادية فقد درستها في الأمين، والثانوية في المأمون لم تكفِ الأوراق التي أعطوني إياها فرفعت يدي منتظراً أن يراني أحد. سمعت صوتاً يسأل:

إش بدك ولاك؟ خلصت؟

قلت: لا... بس خلص الورق.

سمعت أصواتاً مختلطة قادمة من إحدى الزنزانات، خيّل إليّ أنه صوت الدكتور ياسر. تابعت الكتابة: درست في جامعة دمشق قسم الفلسفة وعلم النفس. عملت في مديرية الصحة والمالية ثم تابعت دراستي العليا في الجامعة اليسوعية ببيروت وفي الجزائر. درّست فترة من الوقت ثم انتسبت إلى جمعيات كثيرة كنت عضو مجلس إدارة في بعضها، ومدير تحرير مجلة «العاديات» منذ إنشائها حتى عام ٢٠٠٨. ثم تفرغت لمؤلفاتي، واشتغلت في القسم الثقافي في «جريدة الجماهير» ثم مدير المركز الإعلامي لحلب عاصمة الثقافة الإسلامية، وأعمل الآن في القسم الثقافي بجريدة «تشرين». صدر لي أكثر من ثلاثين كتاباً في الفكر والأدب والثقافة والقصة والشعر. ذكرت لهم أربعة أو خمسة منها ونسيت الباقي. صرخت بصوتٍ عالٍ: خلصت.

جاء السجان... أخذ الأوراق والقلم.. وضع يديّ خلف ظهري، وقيّدني. وضع العصابة على عيني، واقتادني من رقبتي... مشينا في الممر وانعطفنا يساراً. سمعت صوت قفل يفتح وصرير باب حديدي. فكّ القيد، ودفعني إلى الداخل قائلاً: شيل الطمّاشة. رفعت ما يغطّي عينيّ وأعطيته له. كان في الغرفة شخص بلباس عسكري قال له السجان: هات غراضك وتعا.

لملم الشاب حاجياته، وخرج. أُغلق الباب عليّ .وسط ذهولي في الغرفة الضيّقة ذات الإضاءة المنعدمة رحت أفكّر: ما كتبته لا قيمة له.. وقد كتبت مثله عشرات المرّات حين دخولي الجامعة وحين توظفّت وحين طلبت رخصة لمعهد. سيطلبون مني مزيداً من المعلومات، فما الذي ينجيني من براثنهم؟ وكيف يمكن أن أكتب ما لا يضر سواي. ولكن عليّ أوّلاً أن أعرف ما الذي أتى بي إلى هنا؟ من تحدّث عنّي، أو من وشى بي؟ إنني أتحرّك في حدود ضيّقة وكثيرون لا يعرفون عنّي إلاّ معلومات عامّة. لم يكن في مقدروي العمل باسم مستعار، لأنّ كل من يراني يعرفني، ولهذا حرصت ألاّ يعرف عنوان بيتي غير أصدقائي قبل الثورة.

لم يَدُرْ في خلدي سوى مَهربين اثنين هما «نداء حلب من أجل الوطن» و«مقهى الشباب».

لم يمهلوني طويلاً وأنا أقلّب الأفكار لأتحدّث عمّا هو مكشوف لا يمكن إخفاؤه ولا تشكّل معرفته فرقاً لديهم، حيث لا يتورّط أحد. سُحب مزلاج الباب بقوّة وبدا خلفه رجل ضخم لا يحمل إلاّ القليل من الملامح البشريّة، صرخ: تعا. وقفت. أدارني بعنف. وضع القيد في يديّ، وأحكم العصابة على عينيّ، ودفعني أمامه. لم يطل سيرنا حتى قال لي:

قف هنا.

وضعني في مواجهة جدار، وذهب. صارت أصوات السياط، واستجارة من يُضرب بها، أكثر قرباً. يصلني صوت صارم:

يا... بدك حريّة؟ بدك تطلع مظاهرات؟ مو عاجبك السيد الرئيس مو هيك؟ شو مو عاجبك فيه يا حقير؟

لا شكّ أنه الضابط المحقق يعنّف موقوفاً، ويحاول الحصول منه على المعلومات. دبّتْ حركة مفاجئة حولي. لمحت من تحت عصابتي خيال

شبّان يساقون ويُدفَعون تباعاً إلى الممر والأكفّ تنهال عليهم بالضرب، وبعضهم يتلقّى ركلة، وآخرون يحمون رؤوسهم من العصي المختلفة التي تأتيهم من حيث لا يعلمون. لمحت أيضاً لدى رجل، غاية في الضخامة، جنزيراً من سلاسل متصلة تزن أكثر من خمسة كيلو غرامات يلهو بها في ضرب أرجل الطاولة الخشبية التي وضعت عليها الأمانات. طال بي الانتظار ساعة أو أكثر ولم أعد أقوى على الوقوف، ولم تزل وفود المتظاهرين تتوارد، ويتكرر مشهد الضرب والتحقير، ويزداد الصوت القادم من غرفة التحقيق علوّاً، ويزداد صراخ من يتلقى الضرب الذي بدا لي أنه جلد لئيم بالسياط، ما ذكّرني بفيلم كنت قد رأيته أكثر من عشر مرّات وأنا في المرحلة الابتدائية، اسمه «الجلاّد القرمزي». في تلك المرحلة كان والدي، بالإضافة إلى معمل النسيج الذي يملكه في منطقة «المغاير» بحي الكلاسة، يشارك في تعهّد عروض بعض الأفلام في سينما «فؤاد» وسينما «الشرق» وسينما «الجماهير»، ما يتيح لي أن أقضي فترات طويلة في مشاهدة الأفلام مجّاناً. ذلك الفيلم كان يثير لديّ الرعب في كلّ مرّة أشاهده فيها. الآن أرى الرعب ذاته متجسّداً في أصوات أولئك الذين يُجْلَدون. تُرى حين يحين دوري هل يمكن أن أطلق صرخات استجارة، أم أكتفي بالصراخ الذي كنت أكبته على مدى التاريخ؟

إفادات متوالية

بعد انتظار طويل قادني شخص من ياقة الكلابيّة وهو يقول:

تاع.

مشيت أمامه وأنا أمدّ يدّي متحسّساً دربي كي لا أصطدم بشيء ما. من يدفعني من الخلف لم يقصّر في كشف الطريق لي بصوته الأجش:

يمين.. يسار.. وقّف.

بعد برهة، دفشني إلى داخل غرفة. ملأت أنفاسي رائحة زريبة أبقار مختلطة برائحة كحول.. هناك رائحة أخرى داهمتني، لم أتبيّنها جيّداً إلا عندما سمعت أحداً ما يشفط سائلاً بمتعة، ثم يتنحنح، ويسعل لينبّهني إلى وجوده. هاااا. إنّها متّة. سمعت صوت إشعال سيجارة قبل أن يحدّثني صاحبها بلكنة لشدّ ما كرهتُها لارتباطها بالتسلّط. كان لديّ معارف وزملاء من جبلة يتحدثون بلكنة تشبهها، كنت أحبّهم، لكنني أكره لكنتهم التي سمعتها أوّل مرّة عندما كنت أؤدي الخدمة العسكرية. بادرني، من أظنّ أنه ضابط مسؤول، قائلاً:

شو يا دكتووور؟.. عَ بنا انتْ مسقف وفهمان. ولالالاه.. بتعرف أني احنا منعرِف عنك أكتر من اللي بتعرفو عن حالك؟ بتعرف الاّ ما بتعرف؟

قلت: بعرف.. طبعاً.

قال: بقى لا تخبي شي وقول كل اللي بتعرفو.. رفقاتك اعترفو عليك.. وما رح تستفاد شي. اللي كتبته كلّه ما إلو قيمة. بِدنا منك تقول كل اللي بتعرفو وكل العمليات اللي قمت فيها وكل اللي تعرفت عليهم بهالفترة. نحنا حتى الآن محترمينك ومقدرينك بقى لا تخلينا نغيّر معاملتنا معك. معك عشر دْقَايق.. بتكتب كل شي بالتفصيل وبتكتب أسماء شركاتك بالتخريب إذا حابب تطلع ونسامحك. إذا ما اعترفت رح تموت عنّا.

صمتت.

قال: شو؟

لم أرد. سمعت نقراً على الطاولة ينمّ عن عصبيّة فهيّأت نفسي لتلقّي صفعة من مكان ما. سادت برهة صمت، حين جرّني شخص من وسط كلابيتي عرفت أنّ محدّثي أومأ إليهم:

خذوه.

قادني الشخص عبر الممر.. كانت شحاطتي تنزلق بين حين وآخر من آثار الدماء التي نسير عليها. صفعتني رائحة تشبه سوق العتمة بحلب. كنت أمرّ فيه سريعاً وأنا بطريقي إلى المعهد. وصلنا إلى الغرفة المعتمة، حرّرني السجّان من القيد ومن عصابة العينين. قال وهو يغلق الباب بالمزلاج:

معك عشر دْقايق.. متل ما قال سيادة الرائد....عبتفهم والا انْتْ غبي؟

بعد أن أغلق الباب، فتح الطاقة الصغيرة التي يظهر منها وجه الواقف أمامها، رمى إليّ قلماً وبضعة أوراق وكرر:

عشر دْقايق.

لم ينتظر لأكمل جملتي، وبصعوبة سمعني وهو يغلق الطاقة أقول:

العتمة كثيفة هنا.. كيف يمكن أن أكتب من غير أن أرى؟

اعترافات خطيرة

تناولت الأوراق والقلم وبدأت أكتب ما أغفلتُه. سيادة المحقق اعذرني فظروف اعتقالي أنستني نقاطاً مهمة ينبغي ذكرها. فحين كنت في الصف الأول بمدرسة «الكواكبي»، كنت من التلاميذ الشاطرين، ودفتري كان في غاية النظافة والأناقة.. وأذكر ذات يوم طلب المعلّم منّي أن أدور على تلاميذ صفّي وأريهم أناقة دفتري وخطّي الجميل. حين وصل الدفتر إلى أحد التلاميذ الكسالى بصق على الدفتر و...

أجلس القرفصاء وأكتب من غير أن أتبيّن ما الذي أكتبه من العتمة. أسندت ساعدي على الأرض ووضعت كفّي على وجهي: يا الله كم أنا جائع؟ تُرى كم الساعة الآن؟ ألا يقدّمون هنا وجبة عشاء؟ لا شكّ أنّ الوقت تأخّر، وقد جيء بي بعد أوان العشاء. مددت يدي لإخراج لفافة من علبة دخاني، فلم أجدها.. تابعت الكتابة بتوجّس خشية أن تنتهي العشر دقائق

ولم أنتهِ بعد من كتابة ما طلبوه منّي. سأدخل في الموضوع مباشرة. سيادة المحقق كي لا آخذ من وقتكم الكثير: في بداية الـ...

توقفّت.. ماذا أكتب؟ بداية الثورة؟ بداية الأحداث؟ بداية الأزمة؟ المؤامرة؟ التخريب؟ كتبت: في بداية المظاهرات قلت في نفسي لا بد من أن نبيّن رأينا في ما يجري. اتصلت ببعض الأصدقاء واتّفقنا على اللقاء كي نفكّر بدورنا في ما يحدث لنجنّب حلب مشكلات هي في غنى عنها. نعم تريدون بعض الأسماء سأكتب من أذكره منهم... أوردت أسماء بعض الأشخاص الذين أعرف مواقفهم السلبية من الثورة... وبخاصّة ذوي المراكز المهمّة والحساسة من معارفي. تابعت الكتابة: لم نتوصّل إلى موقف مما يحدث، فقلت في نفسي إن المطالب التي يريدها المتظاهرون محقّة، ولكنني لا أعرف طريقتهم في التظاهر. فلا بدّ لي من معاينة الأمر عن قرب لأعمل، مع أصدقائي، على توجيه المظاهرات بشكل سلمي وعقلاني للمطالبة بما هو ممكن ولا يؤذي البلد. بعد فترة من الأحداث اتصل بي مدير الأوقاف السابق الدكتور «محمود أبو الهدى الحسيني» وقال لي: لا بد أن نجتمع... أرجو منك الاتصال بمن تثق من معارفك وبخاصّة من المحامين لنتّفق على موعد نلتقي فيه في مكتبي ونبحث ما نحن فاعلون. اجتمعنا أكثر من مرة في مقاه مختلفة لنتّفق على موعد اللقاء المنتظر، الذي انبثق عنه ما سمّيناه... «نداء حلب من أجل الوطن».

نداء حلب من أجل الوطن

ما أزال في عتمة خانقة... وما أزال أكتب اعترافاتي: كان اجتماعنا الأول في عيادة الدكتور محمود أبو الهدى الحسيني، مدير الأوقاف السابق بحلب.

الحسيني شخصية معروفة وله ثقله، والحديث عن تجمع «نداء حلب من أجل الوطن» لا يضرّ أحداً، وبخاصّة أنّ الموقّعين عليه وافق معظمهم

على الحوار الذي دعت السلطة إليه، فغدا تجمّعاً للحكواتية، لا يؤثّر على السلطة بشيء، وإنّما قد تتخذه السلطة ذريعة لموافقة الشعب على بوادر الإصلاح التي أوحت بأنها تعتزم إجراءها. آآآه يا لهذه العتمة الخانقة.. أسمع صراخاً متكرّراً من أناس يُجْلَدُون بقسوة.. أسمع صوت السوط ينهال على أجسادهم فيستجيرون بحرقة. يتوسّلون بالله ورسوله للخلاص، وبعضهم يصل إلى مرحلة التوسّل ببشّار ليكفوّا عنه العذاب. لكنّهم يستمرون في الضرب، ويصلني صوت ضرب تناوبي بين شخصين، كأنّ أحدهما يبدأ والآخر يرفع العصا ليعزفا معاً ألحان المتعة في تعذيب الآخرين. يتوسلون؟ أذكر أن أبي- رحمه الله- زار مرة قريب أمي في فرع فلسطين وأنزله ليريه الزنازين. قال له: أترى هذه السياط وهذه العصي، كلّ منها له اسم. عندما يستجير السجين بالله تضربه العناصر بهذه. وعندما ينادي للرسول، يضربونه بهذه. لدينا كل أنواع السياط التي يستجير باسمها السجين! أفكّر: وماذا سأكتب بعد؟ نعم...

توقّفت عن الكتابة. تأمّلت المكان الذي أنا فيه. هل يعقل أنني وصلت إلى هنا؟ ولماذا؟ ما الذي يعرفونه عني ليعتقلوني؟ ترى من الذي وشى بي؟ حتى الذين أعمل معهم لا يعرفون ماذا أعمل وكيف. ليس هناك ما يبدو على السطح سوى ورشة صياغة الدستور، ونداء حلب، وهما عملان نقوم بهما في العلن، لأننا وقّعنا البيانات بأسمائنا. أشعر بألم في رأسي.. هنا بزغت فكرة إيصال الخبر لأهلي كي يعرفوا أين أنا. طرقت الباب بحذر غير مرّة حتى جاءني صوت من بعيد:

مين عميدق ولاه؟

قلت هون.. هون.

يبدو أنه عانى للوصول إلى مصدر الصوت، فتح الطاقة الصغيرة أعلى الباب وقال:

شو بدك ولاه حيوان؟

وقفت وبيدي الأوراق والقلم، قدّمتها له وقلت:

خلص.

قال: يا تيس.. تاني مرة لمن تدق قول رقمي حداعش... احفظو يا بهيم. قلت له، بلهجة حلبية عفوية، وأنا أناوله الأوراق:

بس في شغلة مهمة بدي أئلك عليها.

سخر مني: أئولللك.. أئووولك!!...

الجدار

لم آبه لسخريته. كنت أركّز طوال الوقت على الكلمات التي سأقولها له بطريقة مقنعة. قلت: أنا مريض بالقلب، معي تسارع وضغط مرتفع، وإذا ما أخدت دوا ممكن تجيني نوبة قلبية مفاجئة.

قاطعني قائلاً: فطيسة.. لجهنم.

لم أكترث بتعليقه، وتابعت الكلام:

والدوا عندي بالبيت، ممكن لو سمحت تجيبولي ياه؟

أغلق الطاقة وهو يتمتم. رفعت صوتي أكثر كي يسمعني:

لازم كنت آخد الدوا من المغرب وهلق راسي راح ينفجر من الألم.

تربّعت على الأرض وأنا أبتسم.. المهم استطعت أن أوصل رسالتي. هكذا، حين يسألون عن دوائي، يمكن أن يعرف أهلي أين أنا ويخبروا أصدقائي ومعارفي فينقذوني مما أنا فيه.

كنت في غاية الإرهاق والتعب، لكنني لم أستسلم للنوم. عليّ أن أستكشف المكان، على ضيقه، ربما يساعدني شيء ما في هذه المساحة

الضيّقة. حملت البطانيات البنيّة القاتمة التي كنت أعرفها أثناء الخدمة العسكرية. نفضتّها.. كانت ثلاث بطانيات.. طويت إحداها لتكون وسادة. بين البطانيات عثرت على قطعة صغيرة من الحجر، وعلى قطعة صغيرة من سلك معدني قاسٍ، وعلى قطعة معدنية انتُزعت من مغلاق سحاب بنطال... أعدتُ ترتيب البطانيات بما يلائم طولي. ورحت أبحث عن استعمالات تلك الأدوات التي أعدت إخفاءها تحت البطانيات، بإحكام. بدأت من الجدار المقابل للباب. عبارات كثيرة مكتوبة بطريقة شفافة لا تلفت النظر: ما شاء الله كان.. السجن للرجال.. هناك قلب مرسوم يخترقه سهم ونقاط تسيل. قلب؟ كيف لمن يكون هنا أن يفكّر بالحب؟ الحب؟ حب مَنْ؟ أشعر بجوع يعتصر أمعائي. لم أزل أبحبش في الجدار المقابل لباب الزنزانة. أعلى الباب وبمحاذاة السقف العالي هناك طاقة محميّة بشبك حديدي يتخلله أسلاك حديدية مموّجة وبللور مكسور تراكمت عليه فضلات الحشرات والأتربة التي ينقلها الغبار ما جعل الرؤية من خلاله لا تسمح إلاّ بتسلل خيط ضعيف من ضوء نيون يأتي عبر الممر الطويل الذي تصطف حوله الزنزانات الخارجية. أما زنزانتي فهي خلف ذلك الممر مباشرة ويفصل بينها وبين الممر باب حديدي كبير. تُفتح زنزانة محاذية لي.. أسمع صوتاً بغيضاً يقول:

تاع ولاك..

صرير قيود حديدية تحدث طقّة قاسية حين يحكم السجّان القفل على يدي أحد الموقوفين. صوت ارتطام كفّ بخد... سقوط شيء ثقيل على الأرض. أسمع صوت السجّان مرّة أخرى:

قووم وقف ولاااا.

خطوات تقترب من زنزانتي... أدقّ الباب بشكل لا شعوري. أسمع صوتاً: مين الحيوان اللي عما يدق ولاااا؟...

أجمد في مكاني. يعود الصوت:

مين عم يدق ولاا؟

أقف أمام الطاقة الصغيرة.. أقرب فمي، وأقول:

احداعش..

الليلة العصيبة

يذهب الصوت.. أسمع خطوت متثاقلة. أعود إلى الجدار... ثمة من استعمل أداة الحفر تلك وكتب التاريخ والأيام وعدّ الأيام من خلال خطوط مائلة.

لم يمض عليّ في هذا المكان يوم كامل بعد. أعود للتفرّس في الجدار.. أعدّ تلك الخطوط التي دوّنها موقوفون قبلي.. اثنا عشر يوماً.. التاريخ منذ أيام مضت. هل هذا يعني أنّ مدة الاحتجاز هنا لن تتجاوز ذلك؟ أفتّش عن تواريخ أخرى: منذ عام، عشرة أيام.. منذ عامين، ثلاثة أيام. يا لطيف هذا شهر ونصف. لا..لا يمكن ذلك، لا أعرف من ذكر أمامي ذات مرّة أنه لا يمكن احتجاز الشخص أكثر من خمسة عشر يوماً. ولكن.. ماذا؟ أسبوعان... أكيد سأجنّ خلالهما إن لم أختنق من قلّة الهواء هنا. لم أزل أبحبش في الجدار الثاني، لكنّ ما شتّت انتباهي صوت السياط وهي تنهال على شخص ما في غرفة التحقيق. يبدو أن تناوباً في الضرب يحدث، وذلك يبدو جليّاً من خلال التناغم الصوتي بين ثانية وأخرى. يصل صوت من تقع السياط عليه مخنوقاً وهو يصرخ:

والله يا سيدي ما بدي أنشق.. سيدي أبوي مريض وما عطوني إجازة نزلت يوم واحد ...آآآخ يا يوووم.. والله التوبة.. كرمال الله حاج ... حاااج دخيلكن.. أبوس ايدك حاااج... رايح أموت. أنا مريض.

وقع السياط كأنه ينصب في روحي... لم أعد قادراً على الاستماع إلى

كل هذا العذاب. يتوقّف الصوت فجأة. لحظة ترقّب تبدو كأنها دهر: ما الذي حدث؟

الأكل والمرحاض

هل يمكن أن يكون؟... لا.. لا.. لا يمكن أن يحدث ذلك. هل مات من التعذيب؟ بعد قليل سمعت خبطات غريبة تدنو... وضعت أذني على الباب لاستكشاف ما يجري. كأنّهم يجرّون شخصاً: قوووم وقّف ولاااا شو انت مرا؟ كلّن كم فلقة. تضرب في نيعك. اقترب أكثر صوتٌ يشبه صوت سحب كيس من الجبس على أرضٍ اسمنتية متعرّجة. صوتٌ آخر يقول: ليك العجي بيمسح الدم بكم القنباز... بحّتو بحّتو لهالكرّ.

يُفتح بابُ زنزانة قريبة.. خبطة شديدة.. يُغلق الباب الحديدي بقوّة... طقّة قفل. طوال الوقت كنت أسمع أنينه وأنا أفكّ حروف الكتابة على الحائط الثالث: سأصبر حتتى يعجز الصبر عن صبري.. سأصبر حتتى ينظر الرحمان في أمري.

هكذا بأغلاطها كُتبت لتدلّ على مستوى التعليم لدى كاتبها. ثمة جملة كُتبت بخطٍّ جميل جدّاً على حرف الجدار الموازي للباب الحديدي: زنزانة الأحرار.

تأمّلت جمال الخطّ مليّاً، وأراحتني تلك العبارة التي تذكّرني بأنني لست مجرماً، وإنما طالب حريّة. ربما يوم أو يومان مضيا وأنا أسمع أصوات التعذيب والولاويل، يفتح باب الزنزانة عليّ ثلاث مرّات لوجبات الطعام، ومرتين للذهاب إلى المرحاض، بعد الإفطار وبعد العشاء بنصف ساعة. أمّا المرّات الأخرى التي كان يفتح فيها الباب فكنت أساق معصوب العينين ومقيّد اليدين ليعطيني المحقق درساً مقتضباً في الوطنية والإخلاص، ويهدّدني بعذاب شديد ينتظرني إن لم أكتب شيئاً جديداً مفيداً في إفاداتي. يعودون إلى السيرة ذاتها، أوراق وقلم... وأعيد كتابة ما كنت قد

كتبته أكثر من عشر مرّات، بكلمات مختلفة ولكن من غير أن أغيّر إفادتي إلاّ بإضافات أعرف أنها تتضمن تفاصيل أكثر سخافة مما كتبته من قبل. الفطور كان رغيفاً من الخبز مع حلاوة أو بدونها. بعد أربعة أيام اكتشفت أن الرغيف الذي كان يأتي مجرّداً وفي طعمه شيء من المذاق الحلو، كان يحتوي على نصف ملعقة صغيرة من سائل مربى المشمش. أمّا الحلاوة فمن أول قضمة لم يخطر في بالي سوى أنني أتناول شحاطة بلاستيكية فيها شيءٌ من السُّكَّر. كنت أنظّف الرغيف من الحلاوة ثمّ أتناوله مع الماء. أفكّر في جدوى العبارة التي كنّا نتداولها مرحين: خبز وماء أكل العلماء. الماء كان في إناء بلاستيكي يشبه طاسة الحمّام، نملؤه بالماء عندما نخرج للمرحاض بما لا يتجاوز دقيقتين. المرحاض كان قريباً من زنزانتي، يأتي السجّان ومن أصوات فتح الباب وإغلاقها أعرف متى يحين دوري، يفتح الباب ويقول بلهجة صارمة مستعجلة:

طلاع.

أتّجه مباشرةً إلى اليمين، أسير في ممر ضيّق قصير، في الممر الأساسي المحاذي لطاقة زنزانتي يواجهني باب المرحاض، فسحة صغيرة ثم بابان أدخل في أحدهما. أجلس وماء مواسير تواليت الطابق العلوي القذرة تسيل فوق رأسي أو على كتفي. أخرج وليس مسموحاً إلا بغسل اليدين والوجه. ومن يخالف ذلك يتلقى لطمات بخيزرانة مدببة الرأس يستعين بها السجّان على تطويع المساجين كي لا يتأخروا ولا يتجاوزوا الوقت المسموح به. كل ثلاثة أو أربعة أيام أجد بروة صابون صغيرة أحتفي بها أيمّا حفاوة، أستعملها وأستمتع بنظافة لا نظير لها. ولأنني كنت أتقن الإسراع، كان السجّان يغتاظ منّي ويضرب الجدار بخيزرانته، ضربات متتالية كي لا يفوّت على نفسه متعة الاستمتاع بوقع ألحانها التي تفرّق الهواء وهي تهوي على جسم ما.

إزعاج ليلي متواصل

الغداء له حكاية أخرى، إناء يشبه طاسة الماء فيه شيء من البرغل أو الأرز، مع مرقٍ يقبع في قعر الإناء، لم أكن أتبيّنه لشدّة انخفاض الضوء، لكنّ الرائحة كانت تدلّني عليه قبل أن أكتشف فتحة بمقدار نصف سنتيمتر على طول أسفل الباب، فما إن أسمع حركة توزيع الطعام حتى أستلقي بحيث أرى محتويات الصحن الذي يقدّم للزنزانات الأخرى. كما أنني اكتشفت فرجةً صغيرة في طرف طاقة الباب حيث بدأت أتلصّص عندما أسمع حركةً في الخارج. كنت أكتفي برغيف الخبز مع قليل من الماء، وأبقى أعاني حتى موعد الخروج إلى الحمام من رائحة طاسة الطعام، التي تحتوى ماء البندورة أو الفاصولياء البيضاء أو البطاطا المطهوة من غير غسيل أو تقشير. أحياناً كنت ألملم قطعاً من الفاصولياء من غير مرق وأدرجها في رغيف الخبز وهي بنصف طهو. طبعاً لم أكن أستهلك الرغيف، لكنني كنت أخفي بقاياه لأنني عادة أجوع في آخر الليل. كانت وجبتي الأساسية في البيت هي وجبة العشاء، وذلك لأنني أنام بعيد الفجر. ولا أذكر أنني استهلكت رغيفاً كاملاً في أي وجبة باستثناء زيارتي لبيت أهلي فكنت أفخر بأنني أقضي على رغيف كامل إذا كان الطعام لحمة بالفرن أو بانجان مكمور. في العشاء أيضاً يأتينا رغيف خبز مع نصف حبة بطاطا بنصف نضج، أو نصف قطعة بندورة من الحجم الصغير. يا لسعادتي!

لم أكن أعرف أوقات الصلاة إلّا إذا كان الهدوء سائداً، حيث يأتيني طيف خفيف من صوت أذان يبدو أنه أقرب إلى الزنزانة المقابلة لي. في البداية استعملت طاسة الماء للوضوء، ثم اكتشفت حيلة جديد. حين أذهب إلى المرحاض صرت أغسل رجليّ قبل أن أخرج، ثم أكمل الوضوء بالمقلوب وبطريقة تبدو وكأنني أغسل يديّ ووجهي وحسب. نعم قبل أن أنسى.. أتناول النتوء الحديدي من تحت البطانية وأبدأ الحفر على الجدار

كي لا أضيع الأيام... دخلت يوم الاثنين ٢٠١١/٧/١٧، وضعت سطراً يضم أيام الأسبوع والتاريخ تحت اليوم المحدد. وفي كل يوم كنت أكتب التاريخ تحت اليوم وأراجعه بين برهة وأخرى. لم يكن يقلقني سوى من هم في الخارج.. أهلي، أقاربي، أصدقائي، تُرى هل يعرفون كم أحبّهم؟ كان يفترض أن أكون أكثر صراحة بالتعبير عن حبي لهم وعن لهفتي عليهم وعن رغبتي في مساعدة أي منهم. من المرجّح أنّ هذا هو قبري.. لن أخرج من هنا، فكيف سيعرفون كم كنت أحبهم. بدأت التركيز على شيء واحد كلّ مرة، أو شخص واحد. أبي أمي زوجي، أولادي، من أحببت على مدى أربعين عاماً. ماذا عملت وماذا أنجزت؟ ترى هل سأدخل الجنة أم أن خطيئاتي تتجاوز الحسنات؟ استعرضت تاريخي واكتشفت أنني كنت مظلوماً على مدى العمر. صحيح أنني نعمت ببعض السعادة من خلال إنجازاتي الفكرية والعملية، ولكن السمة الغالبة كانت الشقاء الذي أدفعه بالعمل. كنت أدفع عني التفكير السوداوي بالعمل الذي كان معظمه طوعياً بلا عائدات، ولكنني كنت فيه أحقّق ذاتي. في هذه الأثناء فُتحت طاقة الباب الوحيدة وبرز من خلالها رجل قميء، تعلو البثور وجهه، حليق الشعر والشاربين وله لحية كثيفة وعلى كتفه الأيمن وشم كتب عليه: «رضاكِ يا أمي» مع قلب يخترقه سهم. قال بلهجة صارمة سريعة:

قوم وقاف ولا... وجهك عالحيط.. ما بتعرف أصول السجن ولاا.. حيوان؟ وقفت.. أعطيته ظهري، قال:

شو اسمك؟

قلت له..

قال: قول سيدي ولاااا.

أعدت الاسم وختمته بـ (سيْدي) من غير تشديد، لأنني أعرف أن السّيِدْ هو الذئب وليس السَّيِّد.

قال وهو يغلق الطاقة: تخوزق... بَدْكُن حريّة؟ بدكن رصاصة تريحنا منْكِن.

كل ذلك يحدث وسط حركة متهيّجة في الخارج... متظاهرون يدخلون والعصي تنهال عليهم والشتائم المتنوعة... يسلّمون أماناتهم... يكتبون تصاريح... بعضهم يخرج بعد كتابة التعهد وآخرون يقضون خمسة عشر يوماً على أقل تقدير يرافقه تعذيب دوري. كنت قد تعبت جداً وأردت أن أنام. وفيما أنا على وشك أن أغفو وأنسى أين أنا، فُتح الباب بعنف: لم يبدُ وجه الشخص الذي وقف وراء الباب متخفياً، وضع الطمّاشة على عينيّ. شدّ يديّ إلى الخلف ووضع القيد فيهما، وقال:

مشيي...

تعثّرت بدرجة واطئة قبل أن يدفع بي مرافقي إلى داخل الغرفة.

احترام مريب في التحقيق

سألني صوت يبدو أن مصدره واقف: من أولها.. احكيلنا عن المظاهرات وكيف كنت توجهها، ومين كان معك؟ ووين كنتو تجتمعوا؟ وشو مخططكم لقلب النظام؟ شوف لحد هلق نحنا محترمينك، أنت رجل معروف والك مركزك وكنت مدير مجلة، ومالك (جلجوق)! بقى لا تخلينا نغيّر المعاملة معك. عندنا أساليب ما بتخطر ببالك فاختصر على حالك الطريق وقلّنا أسماءْ إذا بدك تطلع من هون وإلا ورب اللي خلقك منخليك تتخ هون.

بعد ما يزيد على ساعة ونصف وهو يحقق معي وأنا واقف، لم أكن أنتبه إلى الرائحة النتنة التي تعجّ بالمكان، ولم أكن أشعر بأي تعب لأنني كنت حريصاً على التركيز حول ما أقول خشية الانزلاق بما قد يؤدّي إلى فتح ملفات أظنّ أنهم غافلون عنها تماماً.

دار حولي بضع مرّات، ولم يخترق الصمت من حولنا سوى صوت

عصا يبدو أن حاملها يضرب كفّه فيها بانتظام يبعث على الخوف، وكأنّه يهيئها لشيء ما. مع دوران المحقق حولي كانت تدور في رأسي شخصيات المحققين التي قرأت عنها وعن أساليبهم في انتزاع الاعترافات. كم يبعث الصمت على السكينة وهدوء النفس، بمقدار ما ينبئ أنّ عاصفة تلوح في الأفق. رحت أعبّ من هذا الصمت الذي افتقدته يومين أو ثلاثة أيام خلال وجودي في هذا المستنقع الذي لا تبدو له نهاية. الأمر الأساسي الذي كنت واثقاً منه هو أنني لن أسمح لهم بهزيمتي. بحركةٍ مفاجئة وضع المحقق يده على كتفي وقال:

احكيلنا عن علاقتك بأبو فادي.

قلت بتلعثم: أبو فادي.. أبو فادِي.. (بعد صمت دام ثوانٍ تابعتُ): ايه رجل كبير السن طيّب القلب.. إنه محام من حماه يقيم في «تجميل المشارقة» منذ فترة طويلة، هو لا يعرف أو لا يحب قيادة السيارة لذلك يستعين بابنه... يتصل به ليأتي ويأخذه من المقهى.

قاطعني المحقق بنبرة حادّة:

عبتضحك علينا؟ شو دخلنا بسيارته وابنه؟

قلت ، بهدوء شديد:

سيدي انتو قلتولي احكيلنا بالتفصيل، وأنا عبحكي كل شي بعرفو. سمعت صوت ازدراده الماء قبل أن يتحدّث:

مو هاد يااااا بني آدم... فادي اللي بيتعامل مع الدول الغربية، وبدو يخرّب البلد.

قلت: ما بعرفو سيدي.

قال: كيف ما بتعرفو؟ سماع لأشوف. سمعت وقع خطوات لم أتبيّن مصدرها، ولكن يبدو أنّها تحيط بي من كلّ جانب. ساد صمت مريب

برهة من الوقت، ثمّ سمعت صوتاً على بعد مترين منّي: احكي أبو ثائر.. بيعرفو كلّ شي، وأنا حكيتلهم كلّ شي اعملناه...

كنّا عندك في البيت أنا وأبو فادي واتفقنا أنو يجيب العصي الكهربائية وحكينا عالسلاح بس ما استعملناه.

عندما جاءني صوت الدكتور ياسر، دارت بي الغرفة، وشعرت بأنني أقف عارياً أمام قبيلة تعرف دقائق حياتي كشريط سينمائي لا يمكن نفي أيّ شيء فيه!

جزء من *مذكراتي في المعتقل.*

في سجن تدمر- (بكر صدقي)

كان ذلك في شهر رمضان. كان على أحدنا أن يخرج من المهجع ليدفع فاتورة المشتريات. تطوع «أبو طارق» الذي كان يملك بعض المال في رصيده المحتجز عند إدارة سجن تدمر.

حين أعادوه بعد نحو ساعتين كان قد دفع فاتورتين، الأولى من رصيده المالي في «الأمانات» رقماً طُرِحَ من رقم على الورق، في عملية «افتراضية» وفقاً للتعبير الشائع اليوم. أما الفاتورة الثانية فكانت شديدة الواقعية والحسية، دفعها من جسده: فلقة بسبب نقاش فُرض عليه من السجان المجهول الاسم والوجه، ككل السلطة في سجن تدمر.

سأله «المساعد» عما إذا كان صائماً. فأجابه أبو طارق بالنفي، (وفي ذهنه حفلة تعذيب رهيبة جرت، قبل أيام، في مهجع مجاور لمهجعنا بسبب اكتشاف السجانين أن نزلاءه صائمون).

سأله عن سبب امتناعه عن الصيام، فقال أبو طارق: أنا شيوعي!

وهنا انقلب (مانعُ الصيام عن المؤمنين) إلى مُنَافح عنيف عن الدين في وجه الملحد الذي استحق العقاب. فتلقى أبو طارق «المفطر» حصته المتأخرة من حفلة التعذيب التي سبقه إليها زملاء المهجع المجاور الصائمون!

حكايات المعتقل *(غسان الجباعي)*

-١-

(سجن تدمر- ١٩٨٤)

لن أنسى ذلك اليوم النادر الذي فتحوا فيه أبواب جميع المهاجع في سجن تدمر العسكري، بما في ذلك مهاجع الإخوان المسلمين، وطلبوا من الجميع أن يجلسوا على أرض الساحة، بمحاذاة الجدار الذي يحيط بكل مهجع. كان يوماً مشمساً، وكان مجرد الجلوس عقوبة لمعتقل يشتهي أن يتحرك ويمشي تحت الشمس.

كان الغموض يسيطر على الموقف. فالحراس الذين يعتلون سطح المهجع كانوا أكثر مما يجب.. والملفت أيضاً أنهم ثبتوا مكبّرات صوت بدائية خلف الأسلاك الشائكة التي كانت تحجب، حتى سماء الساحات، تحسباً لأي هجوم محتمل من الفضاء..

تبين لنا أخيراً أنهم سيبثون لقاءاً صحفياً للسيد رئيس الجمهورية «حافظ الأسد»، تجريه صحيفة أمريكية، لم أعد أذكر اسمها.. وما إن بدأ البث حتى وقف حراس السطح باستعداد، وطلب منا الحارس الأرضي أن نقف أيضاً، فوقفنا.. وخيم علينا صمت غامض مُقلق، وتوقنا جميعاً أن نسمع خبراً هاماً.. وتتالت الأسئلة والأجوبة نحو ساعة، ونحن نقف باستعداد وننتظر.. كان عدد مهجعنا فقط أكثر من ٧٠ رجلاً، وكان عدد

السجناء في تدمر وحدها، يفوق ١٠٠٠٠ رجلاً وطفلاً وامرأة..

وكم كانت دهشتنا كبيرة عندما سألته المذيعة عن آلاف المعتقلين السياسيين في السجون السورية، وقال لها بالحرف: «لا يوجد لدينا معتقلون سياسيون في سورية. هذه الدعايات جزء من الحملة الإمبريالية الصهيونية المعادية لنا»...

لم نجرؤ على النظر إلى الحراس أو حتى في وجوه بعضنا.. كدنا نصدق أننا غير موجودين، وأن ما يقوله الأب القائد، على الملأ، هو الحقيقة! لكن الحارس الأرضي، ما إن انتهى اللقاء حتى صرخ بنا مستعجلاً: على المهجع.. يا لله فوتوا على المهجع.. بسرعة..

لكنه قال ذلك محاولاً ألا ينظر في عيوننا..

-٢-

كانت أمي عجوزاً. انتظرتني طويلاً. وعندما رأتني أصيبت بالجلطة الدماغية وماتت بين ذراعيّ..

كانت أمية بسيطة.. لم تتقن في حياتها سوى الحزن والخبز والدعاء والحنان.. عاشت في عصر الجنرال الكبير، ولكنها لم تكن تفرق بين كلمتي «الفريق» و«الرفيق»، بين قائد المسيرة أو الأمين العام أو القائد العام للجيش والقوات المسلحة.. ولم تكن تفهم عبارة مثل رمز الأمة العربية أو قائدنا إلى الأبد.. وكانت تتساءل: «**كيف يعني إلى الأبد!؟ مش رح يموت يعني!؟**». لم تكن قد فهمت أبداً معنى الأحكام العرفية والمحاكم العسكرية. لم تقرأ الدستور ولم تستفتِ أو تنتخب يوماً. حتى إن كلمات مثل استفتاء وانتخابات وديمقراطية، لم تكن تفهم معناها. عاشت سبعين عاماً ونيفاً، بعضها في عهد الاستعمار الفرنسي وجلها في عصر العسكر وقانون الطوارئ وأكياس النايلون والبلاستيك. وماتت دون أن تتقن لفظ

الاستقلال.. كلمة /دي مو قرا طية/ كانت تلفظها «مقراطية» وهو باللهجة المحلية تعني العصا الغليظة الصلبة..

الشيء الوحيد الذي تعلمته وأتقنته في آخر عمرها كان الخوف.. الخوف من الله والخوف علينا من أولاد الحرام. ولذلك كانت كل ليلة وكل فجر تطلب من الله أن يحمينا من الحساد والظالمين. وعندما فشل خوفها في حمايتنا وضعت ابني في حضنها وأطلقت على الجنرال الكبير، لقبا صغيراً هو: /**حافظ الأسى**/. قالتها من كثرة الأسى: «**هذا مش حافظ الأسد، هذا حافظ الأسى**».. وهكذا تورطت في السياسة، دون أن تدري، حين تلاعبت باسم «القائد الرمز»..

كان ذلك اللقب العفوي حقيقياً لدرجة أنه يلخص مرحلة كاملة من تاريخ البلاد. لقب لزعيم أساء إليها شخصياً.. أساء لحليبها وأمومتها وشعرها الأبيض. زعيم أبدي، عربي، طويل القامة، كبير الرأس. قيل إنه عندما ولد أخرج في قبضته قطعة من رحم أمه..

زعيم شرس، مات منذ زمن بعيد ولم يمت. صوره ما زالت معلقة في كل الأماكن. تماثيله لم تتغير أماكنها، غيرت أسماء الساحات ولم تتغير. حتى بتنا لا نستطيع العيش في وطن يخلو من صوره، وبات اسمه المحفور على كل الجدران والأسوار والجسور، ما إن يتردد حتى تلتهب الأكف بالتصفيق دون إذن من أصحابها. اسم مرتبط بالخوف في عصر كامل من التصفيق المستمر والهتافات الهستيرية: تصفيق من الخوف، تصفيق مع الخوف، تصفيق للخوف.. ورغم ذلك رفضت أمي أن تصفق له. كانت يداها مشغولتين بالغسيل والجلي والعجين والطبخ والتعزيل.. رفضت كل أسمائه الحسنى وأطلقت عليه هذا اللقب، ثم أصيبت بالجلطة الدماغية وماتت..

عندما خرجت من المعتقل قررت أن أكتب رواية عن أمي. كنت مصراً

على جعل عنوانها «حافظ الأسى»، وفاء لذكرى أمي ونكاية بالخوف. ولكن جميع المحبين والأصدقاء نصحوني أن أفكر بعنوان آخر. حتى دور النشر رفضت عنواني.. خافت هي أيضاً منه. وعندما اقترحت أن أضع، عوضاً عن اسمي، اسماً مستعاراً، رفضوا الاقتراح. كنت مقتنعاً بهذا العنوان لدرجة أني امتنعت عن نشر هذه الرواية ووضعتها في الدرج وأنا أردد: كفى كذباً. إما أن تكون شاهداً حقيقياً على عصرك وتقول ما تراه وتقتنع به، أو أن تصمت. وصمت. صمتاً طويلاً. لكن أمي التي أطلقت على الزعيم هذا اللقب وماتت منذ عشر سنوات، أطلت عليّ تلك الليلة بشعرها الأبيض، أحضرت الفجر معها. شقته بيديها الكثيرتين ودخلت عليّ فجأة، دون أن تفتح الباب، وطلبت مني تغيير هذا العنوان. قالت: /غيّر العنوان يا غسان، واستعض عنه بثلاث نقاط على السطر../ ثم غابت..

نهضتُ. بحثت عنها في جميع الزوايا.. فتحت جميع مسارب الضوء.. رددت اسمها.. فتشت ما بين الستائر والزجاج.. سألت القناديل الغافية فوق الرصيف.. فتحت باب غرفتها، بحثت في خزانتها المقفلة.. وقبل أن تشرق الشمس، نفضت اللحاف جانباً وجلست إلى الطاولة..

كانت تخاف عليّ حتى في موتها. استبدلت العنوان وحذفت لقب الزعيم أينما وجد واستعضت عنه بـ/ ... / مبهمة. ليس جبناً، لا. ولكنها فكرة رائعة أخرى من أمي التي كانت تعيش معي وتفكر معي وتحميني.. في المرة الأولى قتلتها حزناً عليّ، لكني هذه المرة سأطيعها..

كيف السبيل إلى نشر رواية لا تخاف من أصابع كاتبها؟.. كيف السبيل إلى نشر رواية لا يخاف صاحبُها من أصابعه؟ وجاء الجواب بسيطاً ذكياً حاسماً. ثلاث نقاط مضمرة على السطر، تعتبر تورية خبيثة، باطنية ومباشرة. قد تكون أكثر بذاءة من ذلك اللقب، قد تكون هجاء وقد تكون تخلصاً من الهجاء. مسبّة سوقية، أو كلمة بذيئة يمنعك الحياء من ذكرها صراحة،

فتنقذك من الإحراج والمساءلة القانونية والفكرية والأخلاقية. ومن يدري قد تنقذك من الموت أيضاً. ثم إنها كانت آخر وصية من المرحومة أمي..

عندما خرجت من المعتقل انتظرتني أمي حتى وصلت إلى الحارة فخرجت حافية وعانقتني، ثم سقطت بين يدي..

أمي التي تجاوزت الستين، ولم أرها يوماً ترد على الهاتف، ردت في ذلك اليوم بالتحديد، كانت ترد كل يوم في غيابي، وعندما سمعت صوتي عرفتني.

كنت قد وصلت إلى بيتي في «حي الكيكية» بدمشق، وقررت الاتصال بأهلي، قبل حضوري، كي لا أفاجئهم. كنت متأكداً بأنها لن ترفع السماعة، ولكنها رفعتها. فقلت مغيراً صوتي:

يا خالة أم غسان، أنا صديق غسان، وقد خرجت لتوي من السجن وهو سيخرج غداً.

فهتفت: أنت غسان.. أنت غسان.. يا حبيبي قلبي أنت..

وراحت تبكي وتضحك وتنادي أفراد الأسرة.. عرفت صوتي وانتظرتني على باب الحارة. وعندما وصلت لاقتني حافية وعانقتني.. ثم سقطت بين يدي هاتين اللتين تكتبان الآن..

أصيبت بجلطة دماغية، وعاشت بعدها سنتين قصيرتين وهي حبيسة ذلك السرير الحديدي المستطيل. أصبح السرير قبراً مؤقتاً لجسدها الواهن. لم تقل بعدها كلمة واحدة كاملة.. كانت تلثغ مثل الأطفال.. حتى حجمها أصبح بحجم لعبة كبيرة. كانت ترفع يدها الميتة بيدها الحية وتبتسم لنا.. تتفقدنا فرداً فرداً، وتلمع عيناها السوداوان بدمع شحيح، وتبتسم دون أن تبتسم.. كانت تتمنى لنا أياماً أفضل. وكنت أمسك وجهها الشمعي بين راحتي. أقبل جبينها البارد بشفتي الدافئتين. أفرك يديها

الصفراوين، ثم أغطي شعرها الأبيض بمنديلها الأبيض وأنا أداعبها..

ماتت قطعة قطعة.. وبعد سنتين، أصبحت أيقونة البيت..

-٣-

كنا نتفحص الكتب التي تصلنا من الأهل بدقة هستيرية، على أمل أن نجد بين طياتها إشارة أو علامة ما.. وكان أملنا يخيب في كل مرة، لأن إدارة السجن كانت تعيد الكتب التي تحمل أي إشارة حتى ولو كانت خربشة طفل.. ولكن الكتاب الذي أرسلته زوجتي «أجمل رجل غريق في العالم»، كان يخبئ بين صفحاته شعرة صغيرة معقوفة على شكل حرف «**S**» وهو أول حرف من اسمها. تناولتُها بين أصابعي ووضعتها على راحتي. شممتُها.. كنت متأكداً أن الرائحة رائحتها. ولكنني لم أستطع أن أحدد من أي جزء من جسمها نتفت.. خبأتها في ورقة سيجارة ووضعتها بين طيات ذلك الكتاب الذي كنت قد قرأته منذ زمن بعيد، ولكنني كنت أفتحه كل يوم تقريباً، كي ألقي التحية على شعرتي المعقوفة وأقرأ تلك الصفحات الجميلة التي كتبها غابريل غارسيا ماركيز، علني أجد فيها جواباً أو معنى جديداً، حتى أصبحت أضحوكة للآخرين.

بقيت ست سنوات أحتفظ بتلك الشعرة.. ست سنوات من العشق والحرص والحلم.. وعندما سألتها بعد خروجي، قالت إنها لا تعرف شيئاً عنها، وإنها لم ترسل إلي أية شعرة..

وهل توجد شعرة غير معقوفة يا رجل!؟

-٤-

صيف صحراوي وحرارة خانقة والذباب يملأ المكان، والشمس ترصف مرايا بريقها فوق الجدران، تقطّع الفضاء المغلق إلى مربعات ودوائر ومثلثات متداخلة.. مشهد موّار ومتنوع لدرجة التشتت: مجموعة هائلة

من المثقفين في مكان بليد ضيق الأفق، تستخف به أشعة الشمس وتعربد فيه. كل اثنين أو ثلاثة يقومون بعمل يبدو للوهلة الأولى منعزلاً عن الآخر. أحدهم يقوم بحك حبات الزيتون على الأرض أو على الجدران، ليصنع سبحة أو عقداً. أحدهم يجدل خيوطاً أو يعالج ضلعاً من العظم نظفه وخبأه من غداء البارحة ليصنع منه قلماً مدبب الرأس.. كانت الأوراق والأقلام ممنوعة، فصنعنا أقلاماً من العظام، وأوراقاً من «سلفان» علب السجائر. كنا نقوم بصقلها، لتصبح صفحات قابلة للكتابة بواسطة الضغط. وكنا نكتب عليها الأشعار والقصص والمقالات. حتى إننا أصدرنا جريدة كنا ننشرها كل صباح على خيط مشدود. كان أحدهم يكتب، وآخر يحفّ حجراً بحجر، لا ليشعل ناراً بل ليصقل الواحد بواسطة الآخر.... زوجان أو أكثر يلعبان الشطرنج، المصنوع محلياً من العجين أو الخشب، على قطعة من قماش مخططة بالطباشير. أربعة أو خمسة أشخاص يتفرجون على اللعب.. بعضهم يذهب باتجاه المرحاض وآخرون يعودون منه. اثنان مستلقيان يناقشان بصوت منخفض مفهوم الوطنية والدكتاتورية. أحدهم يحضن ركبتيه ويراقب الضوء عبر النافذة.. أحدهم يتناوب مع جاره على سيجارة ناعورة.. أحدهم يرتب بطانياته.. أحدهم يجلس ساهماً جامداً، ينظر في نقطة واحدة.. أحدهم يدلك ظهر زميله.. أحدهم ينظف أظافر قدميه ويغني.. أما الباقون فيتحركون كالمجانين جيئة وذهاباً والهدف الوحيد لأفعالهم، كان الذبّان..

الأيدي تطرد الذباب بشكل لا إرادي، لكن المدخنين، جميع المدخنين، كانوا يطاردون الذباب عن قصد. لم يكن لديهم أدوات لاصطياده، فاضطروا لاستخدام الأيدي والشحّاطات والخرق..

أعلم أن الحديث عن الذبان والشحاطات والخرق لا يليق بحكاية محترمة أو ذاكرة وقورة. لكن الذباب أصبح في حياتنا بطلاً وقضية، حشرت في

ذاكرتنا رغماً عنا، وتحولت تلك القضية إلى مشهد سريالي مأساوي..

عندما كنا في الزنازين، ورغم أن الظروف كانت عصيبة واستثنائية: تحقيق وتعذيب وتوتر ومواجهة وصراع إرادات وصراخ وخوف واعترافات.. كان التدخين يسبب لنا مشكلة حقيقية، غير أن حلها كان بسيطاً جداً. أرادوها وسيلة لإذلالنا والضغط علينا، إذن، فلنتوقف عن التدخين وينتهي الأمر. كانت تلك المرة الأولى التي تمكنتُ فيها من وقف التدخين، لكنني، بعد انتهاء التحقيق، وعندما اجتمعنا في مهجع واحد، أصبحت سيجارة الناعورة تساوي جزءاً من الحرية والكرامة..

كانت الزيارات ممنوعة، ولم نكن نملك أي حق من حقوقنا البشرية أو حتى الحيوانية. لم نكن أصلاً، نملك نقوداً لشراء ما يكفينا من حقوق. كنا نملك ٤٣ علبة ناعورة و٢٠ علبة حمراء فقط. وكان عددنا ثلاثة وسبعين نفراً. عدد المدخنين منهم يتجاوز الثلثين. أما الذبان فقد كان أسراباً متعاضدة تحجب، في الليل الجدران والسقف والزوايا، وتحجب في النهار الرؤية والتنفس وضوء الشمس القادم من النوافذ الضيقة المستطيلة.. ينهض الشاويش كل ثلاثة أيام في العاشرة صباحاً ويبدأ بتوزيع حصص السجائر المخصصة للمدخنين: ٩ سجائر حمراء و١٨ سيجارة ناعورة. أي بمعدل ٣ سجائر حمراء و ٦ سجائر ناعورة في اليوم.. ولكل حسب رغبته. كان لدينا فائض في الذبان وندرة في السجائر، ولذلك اقترح علينا الدكتور نادر، وقد كان أستاذاً لمادة التجارة والاقتصاد في جامعة تشرين، وبعد شرح مسهب لمعنى المقايضة وفوائدها ودورها التاريخي في مسيرة الاقتصاد، اقترح أن نقايض الذبان بالسجائر. لم يكن هو من المدخنين، وسمّاها لعبة، وقبلنا أن نلعبها. وبدأت المنافسة: كل من يقتل خمسين ذبابة يحصل على سيجارة ناعورة، وكل من يقتل سبعين، يحصل على سيجارة حمراء بكامل طولها وبهائها.

-٥-

كنا قطيعاً غير متجانس من المثقفين وأشباه المثقفين والبسطاء. وكان الصمت الجنائزي طقساً لا تعلم من اخترعه أو فرضه.. لا صوت فيه غير صوت الحراس ووقع أحذيتهم الثقيلة. عنابر لا أحد يعلم كم عددها، تحوي ما يزيد على عشرة آلاف روح بشرية، لا تسمع لها حفيفاً أو نفساً أو نأمة. كنا نشم الروائح الكريهة التي تملأ المكان. رائحة سجن تدمر التي لا تنسى.. رائحة الناس المحترمين الممزوجة بالعرق والعفونة والوسخ. وكنا نسمع بين الحين والآخر دربكة أقدام تشبه صوت قطيع من الثيران المطاردة، ولم نكن نشعر بعدها حتى بحركة بسيطة تحدث هنا أو هناك.. وفي الليل كان لا بد أن نسمع بين حين وآخر، أصوات عواء الذئاب الممطوطة التي تذكّرنا بوجودها:

«قيـ...ف.. قيـ... ف.. قيـ.... ف»

كان ذلك الطقس يعني الكثير للحرس ورئيس الحرس، أما نحن فقد تعودنا ولم يعد هذا يعني لنا شيئاً.. ما لم نتعود عليه أبداً هو ما كان يحدث عند الهزيع الأخير من كل ليلة..

كان يسود نباح الكلاب البعيدة.. كلاب الفيافي الواسعة ونداء الصراصير، تقطعه قبل بزوغ الفجر، جلبة غامضة وصليل أقفال وأبواب حديد تفتح وتغلق بسرعة، وقراءة أسماء ما، يتلوها صمت طويل مريب، ما تلبث أن تخترقه حناجر المحكومين بالإعدام هاتفة: الله أكبر.. الله أكبر.. ثم يعمّ سكون الموت الجليل، ممزوجاً بالقلق والغضب والعجز.. كنا نعرف عدد المحكومين بالإعدام من تكبيراتهم.. وقيل إن أصواتهم كانت تصل إلى كل أرجاء البلاد.. لكننا في الفترة الأخيرة لم نعد نسمع حتى هذا التكبير.. باتوا يكممون أفواههم قبل التنفيذ، كي لا نسمع أصواتهم..

لم يكن أحد منا محكوماً بالإعدام. كنا نحن سكان المهجع ٦ على ما

أذكر، مدللين ومميزين. فنحن معارضة يسارية وهم شياطين، ولذلك كانوا يكتفون بالدوس على رؤوسنا فقط دون قطعها!.. وكنا نعلم أن الطريق طويلة والمصير مفتوح على المجهول. وكي لا نشعر بالخواء ونفقد الأمل سريعاً، طالبنا الإدارة بتزويدنا بالكتب. وعندما رُفض طلبنا خطرت لنا فكرة طريفة: أن نعتمد على أنفسنا، ويفرغ كل منا ما في جعبته من معرفة وذكريات؟ كنا باقة من الاختصاصات المتنوعة الغنية: كتاباً وصحفيين وأطباء ومحامين وعمالاً وفلاحين وضباطاً ومهندسي مدن وبواخر وكهرباء، أساتذة جامعات واقتصاديين ومبدعين في المسرح والسينما والأدب والرسم والنحت.. وبدأنا نجتمع كل ليلة بعد العشاء مثل كومة من الثياب حول واحد منا، كي نستمع إليه وهو يحدثنا في اختصاصه، أو يستعيد شفوياً، كتاباً جميلاً أو رواية قرأها ذات يوم. وما أكثر الروايات والقصص التي اخترعناها وأعدنا تأليفها من جديد. روايات عربية وعالمية ارتجلناها بشكل جماعي، فاختلط فيها الخيال بالحقيقة وتبدلت شخوصها وأحداثها حتى أصبحت روايات من الأدب الغرائبي. ثم اقتربنا أكثر فأكثر من عواطفنا وذكرياتنا الخاصة الحميمية، وبدأنا نتحدث عن تجاربنا مع المرأة والحب والأمكنة.. كان الحديث ممنوعاً بعد الثامنة مساء، وكنا مضطرين للتحدث همساً تقريباً. وأذكر أن أحد الحراس كان يتنصت علينا من خلال فتحة السقف، عندما كنت أقص أول تجربة لي في الحب، وأنا في الصف الخامس الابتدائي. وما إن سلط الحارس ضوء فانوسه علينا حتى صمت الجميع، وصرخ الشاويش: «انتبييبه. تهيأ» ووقفنا..

مين ها الجحش يلي كان طالع صوتو.؟

ورغم أنني لم أكن جحشاً، رفعت يدي بعد تردد، فأمرني بالوقوف تحت الكوة على قدم واحدة..

شو! عامل لي حكواتي!!

صمتُّ.. أمرني أن أتابع الحكاية وأنا أقف تحت الكوة في مشهد مسرحي، على قدم واحدة، وفانوسه يضيء رأسي وكتفي.. وكان عليّ أن أقرر: إما أن أتابع الحكاية الغنية بالأحداث، أو أرفض الأمر وأنام ليلتي في الزنزانة المغمورة بماء المراحيض عقوبة لي. وما لبثت أن ابتسمت واخترت متابعة الحكاية. ولكنني اختلقت حوادث مروعة، سرعان ما أدت إلى موت الحبيبة التي لم تزل في الصف الرابع الابتدائي، كي أنهي حكايتي الغبية بأسرع وقت ممكن..

-٦-

عندما تم نقلنا إلى سجن صيدنايا العسكري الأول، تعرفنا على مجموعة من الإسلاميين. كانت إدارة السجن قد خصصت لهم مهجعاً في الطابق الأرضي بسبب مرضهم أو عجزهم. كانوا ممنوعين من الزيارة، ولا أحد يعرف مصيرهم منذ عشر سنوات. شاركناهم الطعام والكتب، وتعرفنا على قصصهم المرعبة. كانوا من جميع المحافظات، وقمت ورفاقي- من خلال الزيارات- بإيجاد صلة ما مع أهلهم..

كان الدكتور عصام أحد الذين تمكنا من إيصال خبر بوجوده حياً في سجن صيدنايا. بقي مجهول المكان والمصير أكثر من عشر سنوات. وعندما علمت زوجته بأنه حي لم تصدق. كانت أماً لطفلين أصبحا شابين، أكبرهما أصبح سنة ثالثة في كلية الطب. جهزت له طعاماً وثياباً وبضع صور لها ولأولادها وأرسلتها مع زوجة أحد رفاقنا. ولكن ما إن استلم الدكتور الأغراض وشاهد الصور، حتى ظن أنها لا تخصه، ووصلت إليه عن طريق الخطأ، فجاء مسرعاً ليردها إلينا، وعندما أكدنا له أنها صورة زوجته وولديه، بكى بحرقة لأنه لم يتعرف عليهم، لكنه كان بمنتهى السعادة لأن أهله عرفوا أخيراً أنه ما زال على قيد الحياة.

أما أبو أحمد، النجار فكانت تلك اللحظة أتعس لحظات حياته. فقد

اختفى منذ ثلاث عشرة سنة، وعندما تأكد أهله أنه أعدم، قام أخوه الأصغر حسين بالزواج من زوجته الأرملة الشابة، للمحافظة على أولاد أخيه الثلاثة ورعايتهما. وقد أنجب منها ثلاثة آخرين أصغرهم لم يتجاوز عمره السنة..

نبأ وجوده حياً، نزل على الأسرة كالصاعقة. فدفع الأخ رشوة كبيرة لزيارة أخيه زيارة خاصة، واصطحب معه أم أحمد «وأولاده» الستة.. كان أبو أحمد مصاباً بجلطة دماغية. بعد الزيارة بأسابيع قليلة مات داخل السجن، ودفن- بمعرفة الشرطة العسكرية-..

-٧-

كثيراً ما كنت أقول إن الكاتب الحقيقي هو ذاك الذي يمتلك القدرة على اختراق منظومتك المعرفية والجمالية والأخلاقية، رغما عنك.. وقد أكدت لي التجربة ذلك..

ففي سجن تدمر كان هناك مهجع مخصص للأطفال. وكان «مصطفى» أحدهم. كان في الصف الثامن، وقد ألقي القبض عليه، هو ورفاقه، فقط لأنه تلقى دروساً في الجامع- رياضيات وفيزياء وكيمياء- على يد أستاذ ينتمي للإخوان المسلمين. عندما التقيت به في سجن صيدنايا كان قد أصبح شاباً مقبلاً على الحياة منفتحاً وموهوباً. بدأ يقرأ بنهم ما لدينا من كتب، وأذكر أنني أعطيته في مرةً كتاباً ماركسياً «عشرة أيام هزت العالم» لجون ريد. لكنه سرعان ما أعاده إلي بعد أقل من ساعة، وقال لي إنه لا يقرأ مثل هذه الكتب، لأن صاحبه شيوعي كافر.. فابتسمت وأعطيته كتاباً آخر هو رواية زوربا اليوناني.. قرأه بنهم أكثر من مرة هو ورفاقه وطلب كتاباً آخر مثله، رغم أن نيكوس كزنتزاكس، صاحب زوربا، «أشد كفراً ووقاحة» من ذاك..

-٨-

كان لنا شرف تدشين سجن صيدنايا العسكري.. كان سجناً حديثاً

ونظيفاً، مكوناً من ثلاث طبقات على شكل إشارة مرسيدس واضحة من الخارج، أما من الداخل فهو شبيه بالمتاهة، مليء بالأقفاص والسلالم والأبواب الحديدية. ويوجد فيه أجنحة وباب رئيسي من القضبان. وبداخل كل جناح عدد من المهاجع فيها مرحاض ومغسلة، ولها أيضاً باب من الحديد.. وكان الطابق العلوي مخصصاً للسجناء الخطيرين من الإسلاميين والفلسطينيين، بينما خصص الطابق الأول للمجموعات اليسارية، التي كان يعيش بعضها في جناح واحد، ولكن في مهاجع مختلفة. مثل رابطة العمل الشيوعي، والبعث الديمقراطي، والحزب الشيوعي، وبعض التنظيمات الفلسطينية والكردية واللبنانية- الحزب التقدمي الاشتراكي- وغيرها من الأحزاب..

هناك تحول السجن إلى مركز ثقافي، حيث جمعنا من خلال الزيارات عدداً كبيراً من أهم المؤلفات، وحولنا أحد المهاجع إلى مكتبة عامة.. وهناك ترجمنا الكتب وكتبنا الأشعار والقصص والروايات وأقمنا الأمسيات والمحاضرات..

وهناك قمت بأول تجربة مسرحية بعد تخرجي من الاتحاد السوفييتي، معهد «كاربينكو كاري» للفنون المسرحية.. فما إن جمعونا مع حزب العمل الشيوعي في جناح واحد، وكان جلّهم من الشباب المتقّدين حماساً وحيوية، حتى دبّت فينا الروح من جديد، وكان أغلبنا من الكهول والعجائز.. وقررت أن أحقق حلماً مسرحياً قديماً، كنت قد قمت بإعداده عن قصة لأنطون تشيخوف هي «العنبر رقم ٦»...

عمل مسرحي داخل السجن!؟ كيف وأين.!

اخترنا كل من كان يملك، ولو موهبة قليلة في التمثيل، وكنا خليطاً من حزب البعث الديموقراطي وحزب العمل والحزب الشيوعي، وبدأنا التدريبات سراً، في أحد المهاجع التي تبرع نزلاؤها بالتخلي عنها لمدة

ثلاث ساعات يومياً.. وكانت تلك تضحية كبيرة..

لكن التحدي الأكبر أمامنا، كان تصميم العرض والديكور المناسب للظروف التي نعيشها، وكيف يمكن أن نقيم عرضاً مسرحياً في مهجع لا تتجاوز مساحته ٣٠ متراً. أين سيمثل الممثلون!؟ وأين سيجلس المشاهدون!؟ واخترعنا تصاميم وحلولاً غريبة عجيبة، كأن يتحول الممثل، عند الحاجة، إلى طاولة أو كرسي. وأن تثبّت المخدات على الجدار وينام سكان العنبر ٦ وقوفاً، وأن نجدل الحبال ونثبتها بين السطح والأرض لتتحول إلى قضبان حديدية، وقررنا أن نعتمد إضاءة الشموع، وأن يحضر العرض كل مرة عشرة أشخاص فقط، وأن يكون الكلام همساً تقريباً، كي لا يسمعنا الحراس.. وقام الفنان «طلال أبو دان» برسم تصوراته للشخصيات بقلم الرصاص. وما زلت، لحسن الحظ، أحتفظ بتلك التصاميم والتصورات حتى الآن.. وأصبحت مسرحيتنا حديث الجميع.. وكانت التجربة ممتعة لدرجة أننا تمنينا ألا يصدر قرار بإخلاء سبيلنا قبل عرض المسرحية.. ولكن العرض، مع ذلك، لم يكتمل، لأن إدارة السجن قررت فصلنا عن بعض بجدار إسمنتي، بسبب رسالة بين الطابق الثاني والأول تم ضبطها في المنور...

-٩-

كانت الأم هي التي تصنع الأكل الطيب والخبز والفطائر. عادت العجوز مرة أخرى لتصنع خبز الصاج الرقيق الأشقر والفطائر المنوعة والحلوى، وترسلها إلينا. كانت تخاف من زيارتنا. لا تمتلك القدرة على رؤية ابنها خلف القضبان. زارته مرة واحدة ثم أحجمت..

كان ذلك في فصل الخريف وكانت الريح قاسية لدرجة أنها اقتلعت تلك الورقة من يدها.. أخرجتها من صدرها وأرادت أن تعطيها للحارس، لكن الريح خطفتها من يدها.. لم يكن لها أحد غيره، لا ابناً ولا ابنة ولا زوجاً.. يوم كامل وهي تركض من فرع إلى فرع حتى حصلت على تلك

الورقة وخبأتها في صدرها. من دون هذه الورقة لا يسمحون لها بالزيارة. ولكنها ما إن وصلت إلى باب السجن وأخرجتها، حتى طارت من يدها.. تركت العجوز أكياس النايلون المليئة بالطيّبات، وركضت خلف الورقة كالمجنونة. لعبت بها الريح. تعثرت وسقطت ثم نهضت، وركضت من جديد، وسقطت.. ولولا ذلك الشرطيُّ الشاب الذي كان يقف أمامها ويبتسم لها والورقة بيده لما سمحوا لها بزيارة ابنها الوحيد.. أخرجت برتقالة وأعطتها للشرطي، فرفض أخذها.. أخرجت فطيرة فطيرتين ثلاثة، لكن الشرطي الشاب أعادها شاكراً لها، وحمل أكياس النايلون عوضاً عن العجوز، وسار أمامها إلى داخل السجن...

-١٠-

«بيان الحناوي»، مناضل سوري من محافظة السويداء. اعتُقل لمدة سبع عشرة عاماً، دون توقف، في سجون النظام السوري. خرج في الحادي والعشرين من كانون الأول «ديسمبر» ١٩٩١، وتوجه مباشرة إلى قريته «السهوة»، ولكنه لم يصل إليها إلا بعد منتصف الليل.

ترجّل في أول القرية قرب بيته، لكنه فشل في العثور عليه.. ليس بسبب الظلام الدامس والضباب فقط، بل بسبب التطور العمراني الكبير الذي غير معالم القرية. مشى نحو القرية، ولم يكن من ضوء فيها سوى ضوء مصباح شاحب ووحيد، كان ينوس في شرفة أحد بيوت، ولم يكن أمام «بيان» من خيار سوى التوجه إليه كي يسأل ساكنيه عن بيته.

عندما فُتح الباب فُوجئ بعجوز تقف أمامه مستغربة قدوم ضيف في مثل هذا الوقت من الليل، فتلعثم.

قالت له: تفضل يا ابني..

وقال لها معتذراً: شكراً يا خالة..

وعندما سألها عن بيته، خرجت وأمسكت بتلابيبه وهزته بعنف، وهي تسأله: أنت بيان.. بيان أنت.!؟

ولم يطل الوقت حتى حضنته بذراعيها، وراحت تبكي وتضحك وتصرخ منادية كنّتها: هذا بيان.. بيان يا سمرة.

كانت قد قررت منذ ١٧ عاماً، ترك ضوء شرفتها مشتعلاً، فعسى ولعلّ خرج بيان ذات ليلة واستدل على بيتها..

ملاحظات

حينما فرغت الأديبة الروائية سوسن جميل حسن من قراءة مخطوط هذا الكتاب أرسلت إلي الرسالة التالية:

الصديق الغالي خطيب

تحية طيبة وبعد:

الكتاب مؤنس، وممتع، ومؤلم جداً. هذه حقيقة، فالقارئ لا يستطيع الانفلات من (استبداده) العاطفي والانفعالي.

تقديمك له هو تقديم حريص وذكي، ويحمل حدّاً لا بأس به من الدهاء، فأنت بمَعابرك، وبالنقاط المستحبة القراءة، دَفَعْتَه إلى المجال الذي يمكن أن يحميه إلى حد كبير من النقد، أو يجعله يُقرأ بعيداً عن النظريات النقدية، فهو قبل كل شيء لا ينتمي إلى جنس أدبي محدد، بل ينتمي إلى نفسه (الحكاية فقط) معتمداً قول الجندي شفيك بأنه لا يعرف طريقة أخرى لرواية الحكايات، التي يمكن إدراجها تحت عنوان تذرعتَ به لأجل هذه الغاية: الواقعية الفوتوغرافية.

ثم قولك بأن الكتاب للإمتاع والمؤانسة أو يمكن اعتباره أيضاً مدخلاً أو مفتاحاً للمعرفة، لم تجعله إشهاراً تقريرياً لتقديم الكتاب، بل فتحت باباً موارباً يحميه من هزات النقد عندما ركّزت على جانب اللذة في هذه المعرفة (المحكية)، وهذا يجعل مبدأ اللذة يطفو على نزاهة المعرفة، وعليه فيمكن التمادي أو المغالاة أو الانتقاص من الواقع، أو يجعل هذه الكاميرا التي تصور تعتم جوانب وتضيء أخرى.

فهرس المحتويات

شكر كبير ٩
الفصل الأول- معابر للهواء المنعش........................ ١١
الفصل الثاني- نقاط قراءتُها مستحبة........................ ١٣
الفصل الثالث- بدهيات ومعلومات حكائية ١٩
الفصل الرابع- بعثيات........................ ٢١
الفصل الخامس- ثلاث رميات من خارج القوس ٤٥
الفصل السادس- حافظ الأسد........................ ٥١
الفصل السابع- كوميديا الاستفتاء الرئاسي ٧٣
الفصل الثامن- باسل الأسد ٨٧
الفصل التاسع- صور حافظ الأسد وتماثيله ٩٣
الفصل العاشر-عسكر الثورة والتصحيح ١٠٧
الفصل الحادي عشر- حواجز للتفتيش........................ ١٤٧
الفصل الثاني عشر - حكايات عن استبداد المتطرفين ١٥٩
الفصل الثالث عشر - أيام الثورة على نظام الاستبداد........................ ١٧٩
الفصل الرابع عشر- شؤون ثقافية وإعلامية........................ ١٩٥
الفصل الخامس عشر - جناح خاص بالأدباء المعتقلين ٢٠٥
مذكرات معتقل في الأمن الجوي........................ ٢٢٣
ملاحظات ٢٦١
الفهرس........................ ٢٦٣

ذات مرة، في أحد الأيام المشمسة من شهر تشرين الثاني «نوفمبر» الذي كان يُخَصَّصُ كله للاحتفال بذكرى الحركة التصحيحية، جاء إلى ضيعتنا أمينُ فرع الحزب، والمحافظ، وقائدُ الشرطة، وثلة من رجال الدولة.. وصلوا ماشين بجوار بعضهم، متكاتفين، يصفقون ويهزجون بعبارة:

- بالروح بالدم نفديك يا حافظ.

توقفوا أمام المستطيل الحجري الذي يرتفع عن الأرض بمقدار ٠٢١ سنتمتر. مد أمين الفرع يده وأزاح الستار عن اللوحة التذكارية لتدشين مشروع جر مياه الشرب إلى القرية.

وأما المحافظ فمد أصابعه وفتح حنفية الماء المتصلة بالمستطيل الحجري المرتفع الذي يعرف باسم «حجر الأساس»، فأخذت المياه تتدفق من الحنفية بغزارة، وعلى الفور قُرِع الطبلُ، وتَرْغَلَ المزمار، وأقيمت حلقة الدبكة التي أخذت تتسع حتى صار طولُها أكثرَ من مئة متر!..

حوالي نصف ساعة، غادر الوفد بعدها المكانَ بمثل ما استقبل من حفاوة وتكريم.

في الجانب الآخر لجدار حجر الأساس كان ابنُ بلدنا «عبدو الحجي» يفك النربيش الواصل «بشكل خفي» بين صهريج الماء والحنفية وهو يتمتم ببعض الشتائم والمسبات على القيادة القطرية، وعلى أمين فرع الحزب، وعلى عضو الفرع رئيس المكتب المالي الذي وعده بدفع ثمن صهريج الماء، ولكنه، قبل التدشين بقليل، طلبَ منه اعتبارَ هذا الصهريج تبرعاً لثورة البعث والحركة التصحيحية..

«حكايات سورية» كتاب طريف في فكرته، وفي طريقة تأليفه، وإعداده، وإخراجه، يسعى لتقديم بانوراما واسعة الطيف لواقع سوريا في ظل استبداد حزب البعث وسطوة حافظ الأسد على مدى نصف قرن من الزمان، بالاعتماد على «الحكاية»...

بهذا المعنى يكون الكِتَابُ أقربَ إلى الأسلوب الذي ابتكره أبو حيان التوحيدي وأسماه «الإمتاع والمؤانسة»، ومنسجماً مع فكرة «أندريه جيد» حول العلاقة بين الحكاية والمعرفة حين يقول: (نعرفُ فنقصّ الحكايات، ونقصُّ الحكايات لكي نعرف).

قد يتساءل متسائل: كيف لإبداعات ثلاثين كاتباً سورياً، أُنْجِزَتْ في أزمنة متفاوتة، أن تقدم لنا البانوراما السياسية والإجتماعية التي نطمح لمشاهدتها، في كتاب واحد؟

ههنا يبرز دورُ معد الكتاب، الأديب السوري خطيب بدلة الذي سبق له أن قدم كتباً عديدة تعتمد على القصص والحكايات والطرائف السياسية ذات النكهة الأدبية الساخرة، فقد استطاع، بحق، أن يصنع نسيجاً فريداً للحكايات، ويُبرز أجمل ما فيها، من خلال توزيعها على فصول مختلفة، حتى ليشعر من ينتهي من قراءة الكتاب وكأنه قرأ رواية، أو ملحمة، أو مسرودة أدبية بارعة، بطلها هو: الشعب السوري.

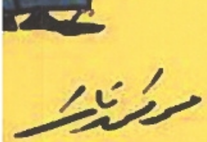

ISBN 978-91-87373-35-0